كلمة العدد

بقلم سعادة الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

احتفلت البحرين منذ أيام بمناسبة عزيزة وهامة.. هي عيدها الوطني المجيد الذى يوافق فى هذا العام مرور ربع قرن على تولى صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة مقاليد الحكم فى البلاد... وان الذى اتيح له ان يشتغل بمعالجة تاريخ البحرين سوف يبهره ما تحقق فى هذه السنوات من انجاز لم يتحقق طوال التاريخ الممتد والعريق.. لقد عاشت هذه الجزيرة قرونا طويلة. وشهدت مولد التاريخ.. وكانت طوال القرون مسرحا للعديد من الحوادث التى لم تترك لها الفرصة اللازمة لتحقيق النمو أو التطور ولكنها وبنظرة فاحصة استطاعت فى السنوات الخمس والعشرين الماضية ان ترسى وبفضل السياسة الحكيمة والرشيدة التى تولت تسيير الامور فيها. أسس أمان افتقدته، وان تدعم جو الاستقرار الذى كانت تتوق اليه.. وفى ظل هذا الجو أمكن الاندفاع لتحقيق طموحات التقدم والتحضر والازدهار وبمعدلات تدعو للعجب وتدعو للاعجاب.. ان ملامح التقدم التى امتدت خلال ربع القرن الاخير لتشمل مختلف مجالات النشاط الانسانى سوف تظل علامة بارزة فى تاريخ هذه البلاد وسوف تسجل بالفخار ثمار الجهد المخلص والسياسة الحكيمة وجو الاستقرار والأمن وما كان وراء كل ذلك من جهد دؤوب وعمل لا يتوقف وبذل لا تحده حدود لتحقيق آمال عريضة وللسير قدما نحو تحقيق مزيد من الطموحات التى لا تقف عند حد. لقد كان عملا كبيرا ذلك الذى سار بالسفينة لتمخر عباب الماء وسط بحار العصر العاصفة.. والذى تمكن ان يقود المسيرة وسط امواج الخليج المتلاطمة

حتى وصلت الى ما وصلت اليه من تطور ونماء .

(والوثيقة) تتقدم في هذه المناسبة بخالص التهنئة لحضرة صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة امير البلاد المفدى وسمو الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة رئيس الوزراء وسمو الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة ولي العهد ولحكومة وشعب البحرين راجية ان يوفق الله كل جهد مخلص وكل عمل امين يستهدف صالح هذه الارض وصالح المواطنين الذي يعيشون في رحابها.

***

في المؤتمر التاسع للامانة العامة لمراكز الوثائق والدراسات في الخليج العربي والجزيرة العربية الذى عقد خلال شهر نوفمبر الماضي بدولة الامارات العربية المتحدة. وعبر المناقشات الجادة والموضوعية والهادفة التى شهدتها جلسات المؤتمر: طرحت ورقة عمل من الامانة العامة حول تنظيم الاستفادة من الوثائق المتعلقة بمنطقة الخليج في الارشيفات الاجنبية. وتوحيد الجهود توفيرا لنفقات لا لزوم لها، ودعما لروح التعاون بين الدول الاعضاء، وتبادل الاستفادة مما يمكن الحصول عليه من هذه الوثائق وتركزت المناقشات التى استغرقت حوالى جلسة كاملة من جلسات المؤتمر حول الارشيفات العثمانية وقد ابدى المتحدثون حول أهمية هذه الارشيفات ملاحظتين على جانب كبير من الاهمية. الأولى: ثراء هذه الارشيفات سواء المفتوحة للباحثين او التى لم تفتح مغاليقها بعد، بالوثائق المتعلقة بمنطقة الخليج والمنطقة العربية بل والمنطقة الاسلامية. ذلك لان العثمانيين كان من عادتهم تسجيل كل شيء ثم الاحتفاظ بما سجلوه ونظرا لترامى الامبراطورية واتساع رقعتها. كانت التقارير والرسائل لا تتوقف بين الولاة او القادة او الرسل او العملاء وبين الحكومة المركزية. هذه الرسائل والتقارير تمثل مصدرا خصبا وغنيا بالنسبة للباحثين في تاريخ المنطقة اليوم، ربما بدرجة تفوق ما يمكن ان يوجد حول نفس الموضوع في الارشيفات الاخرى سواء الهولندية او البريطانية او البرتغالية.

اما الملاحظة الثانية وهى التى قدمها بعض الذين ترددوا على هذه الارشيفات فى الفترة الاخيرة فهى ان هذه الوثائق التى تقادم بها العهد. مخزنة بطريقة قديمة. وبعضها لم تصل اليه يد منذ اكثر من قرن مما يهددها ويهدد ما فيها بالضياع. خاصة والذين يجيدون اللغة التركية القديمة في العالم قلة وهم قلة على وشك الانقراض.

ان المسئولين في هذه الارشيفات يتحدثون احيانا عن املهم في ان تتم فهرسة كنوز الوثائق التي تشتمل عليها هذه الارشيفات ولكن هذه الفهرسة خطة طموح تحتاج لحشد عدد كبير من المهتمين ولو أمكن مد جسور من التعاون بين مراكز الوثائق والدراسات في الخليج وهذه الارشيفات بهدف اعداد فهارس لهذه الوثائق والمخطوطات لأمكن تحقيق الكثير للطرفين ففهرسة الوثائق سوف ترفع عن كاهل المسئولين في هذه الارشيفات حملا ثقيلا ومشاركة مراكز الوثائق في الخليج في هذا العمل مقابل حصول كل مركز على صورة من الفهرس الذي يتم الانتهاء منه تباعا سوف توفر عليه الكثير من الجهد والعناء وسوف تجعل من السهل عليه بعد ذلك وبعد استعراض ما لديه من فهارس طلب الوثائق التي تهمه بالدرجة الاولى دون ان يكون المسئولون فيه في حاجة الى فرز عشرات الالوف من الوثائق للوصول الى بغيتهم.

هذه الفهارس نفسها سوف تكون ذات فائدة كبرى ليس لدول الخليج فقط وانما للدول العربية وللدول الاسلامية فاذا عرفنا ان عملية اعدادها او البدء في عملية اعدادها سوف لن تكلف كثيرا فان ذلك يدفعنا بل يجب ان يدفعنا الى التحرك بفعالية للبدء في هذا المشروع الهام. فالهدف كبير والفائدة المرجوة منه اضخم واعظم مما يمكن ان يبذل في تحقيقه من جهد او مال وهى فائدة لن تقتصر على اجيال اليوم التي تبذل جهدها لحصر حوادث تاريخها العريق وانما سوف تمتد لاجيال كثيرة قادمة سوف تذكر بالعرفان والتقدير كل جهد يبذل في هذا السبيل.

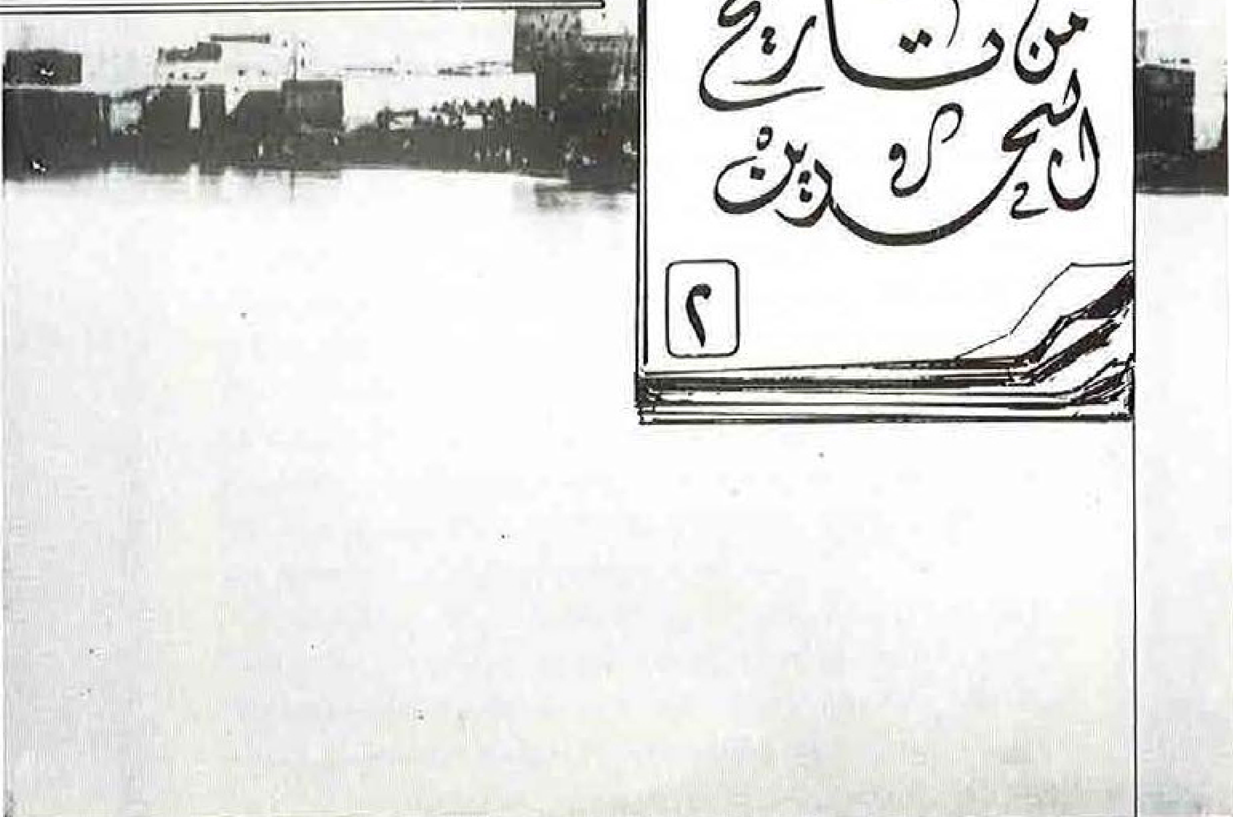
وبالله التوفيق

عبدالله بن خالد آل خليفة

صفحات من تاريخ البحرين

٢

الشيخ سلمان



البحرين : ١٨٧٠

بن أحمد آل خليفة



بقلم : الشيخ عبدالله بن خالد ال خليفة

عـرضنا في الجـزء الأول من هذا البحث والذى نشر بالعدد الثامن من « الوثيقة » تحت نفس العنوان، لنشأة الشيـخ سلمان بن أحمـد ال خليفـة وتـوليـه الحكم في الزبارة والبحرين سنة ١٢٠٩ هـ الموافق ٩٤ ـ ١٧٩٥ م عقب وفاة والده الشيخ أحمـد الفاتـح وعرضنـا خلال

البحث للسمات الشخصية التى تميز بها الشيخ سلمان بن أحمد وطريقة معالجته للأمور وتعامله مع الحوادث التى مرت بها الدولة الوليدة وأنتهينا فى الجزء الأول عند معركة « اخكيكيره» وهى المعركة البحرية التى انتهت بهزيمة ابن عفيصان وارحمة بن جابر وتمكنهما من الهرب فى قارب الى قطر وكيف قام الشيخ سلمان بن أحمد بعد ذلك بتأسيس مدينة الرفاع واتخاذها مقرا لسكناه وكيف قام أخوه الشيخ عبدالله بن أحمد ببناء قلعته فى حالة أبى ماهر وتأسيسه مدينة المحرق واتخاذها مقرا لسكناه . ونعرض فى هذه الصفحات للجزء الثانى من تاريخ حياة الشيخ سلمان بن أحمد ال خليفة والحوادث التى مرت فى عصره والتى تكون جزءا من تاريخ البحرين ومن تاريخ تأسيس الدولة الحديثة التى نعيش اليوم فى رحابها .

بعد استعادة الشيخ سلمان بن أحمد لحكمه على البحرين تمتعت البلاد بفترة من الهدوء الحذر استمرت اربع سنوات من سنة ١٢٢٥ هـ حتى سنة ١٢٢٩ هـ (١٨١١ م - ١٨١٥ م) فقد كانت علاقة البحرين بسلطان مسقط خلالها قوية وكانت حكومة الامام سعود مشغولة بحربها مع طوسون باشا ابن محمد على ولا تستطيع أن تفتح جبهة أخرى خاصة بعد هزيمة ارحمة بن جابر الجلاهمة فى موقعة اخكيكيرة والتى اثبتت أن الهجوم على البحرين ليس بالأمر الهين .. اضافة الى ذلك فان الامام سعود بن عبدالعزيز انتقل الى جوار ربه . وانسحبت القوات السعودية من قطر كما انتقل ارحمة بن جابر الجلاهمة من خورحسان الى الدمام وبنى له قلعة فيها ولكنه لم ينس هزيمته فى موقعة اخكيكيرة * فأخذ يواصل الحاحه على الحكومة السعودية لمساعدته على غزو

* ذكرت هذه الموقعة فى كتاب « نقل الاخبار فى وفيات المشايخ وحوادث هذه الديار » تاليف حميد بن سلطان بن حميد الشاس مراجعة الاستاذ فالح حنظل الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م ص ٣٧ ويقول المؤلف « جرت وقعة تنورة - يقصد اخكيكيرة - البحرية بين ارحمة بن جابر بن عذبى الجلهمى ومن معه من

البحرين والثأر من ال خليفة ولكنه لم يجد استجابة من الحكومة السعودية فانتهز فرصة الخلاف الذى حدث بين السيد سعيد بن سلطان البوسعيدى سلطان مسقط وبين حكام البحرين واتصل بسلطان مسقط ، يحرضه على مهاجمة البحرين ويعرض استعداده للمشاركة. وقد أثار ذلك عليه غضب الحكومة السعودية وعلى رأسها الامام عبدالله بن سعود الذى خلف والده المغفور له الامام سعود فى الحكم فأمر بمهاجمة قلعة ارحمة فى الدمام وقد تم تنفيذ الأمر على الفور وطرد ارحمة بن جابر من الدمام فهاجر الى فارس سنة ١٢٣٠ هـ الموافق ١٨١٦ ● ونزل بقرب بوشهر ومن هناك استأنف اتصالاته بسلطان مسقط الذى كانت العلاقات بينه وبين البحرين قد ساءت بدرجة أكبر وواصل ارحمة بن جابر تحريضه على غزو البحرين ويعرض عليه مساعدته . وفعلا بدأ سلطان مسقط يتحرش بالبحرين وبدأ ذلك التحرش بتعرضه لخمس عشرة سفينة من سفن البحرين على مقربة من مسقط ونهب حمولتها واحتجزها .

عند هذا الحد لا بد من وقفة .. فقد ظهرت ملامح المؤامرة التى تحاك ضد البحرين كما أميط اللثام عن الاطراف المشاركة فيها والتى كانت تستهدف القضاء على الدولة الوليدة قبل أن يشتد عودها واغراقها فى بحر من المعارك يحول بينها وبين دعم أركان الحكم . وقد التقى فى هذه المؤامرة عدد من الاطراف هم .

○ **ارحمة بن جابر الجلاهمة** الذى لم يتوقف يوما واحدا بعد هزيمته فى اخيكيكيرة عن اثارة كل القوى المحيطة ضد البحرين وعن التماس

رعايا السعود وبين الخليفة أمراء البحرين ومن معهم من ال صباح أمراء الكويت وكانت المعركة من العنف لدرجة ان ميازيب السفن سالت دما ويقدر عدد القتلى بألف وخمسمائة قتيل فى عدادهم دعيج الصباح وراشد بن عبدالله ال خليفة وشبت النار فى سبع سفن انفجرت فيها مخازن البارود وتطايرت اقسامها ومن فيها .

ويذكر فى أخبار هذه الموقعة ان الشيخ عبدالله بن أحمد عندما جاءه خبر مقتل ابنه راشد اثناء المعركة قال ارموه فى الخن ياما فى ظهرى من راشد مما يدل على عنف المعركة .

(الباحث)

● ذكر لوريمر فى الجزء الثالث من دليل الخليج صفحة ١٢٠٢ أن أمير الوهابيين أسخطه انقلاب ارحمة بن جابر عليه فقام باضطهاده بكل الوسائل التى ملكتها

العون من هنا وهناك . وبعد فشله فى الحصول على هذا العون من الحكومة السعودية اتصل بسلطان مسقط مما أدى الى طرده من الدمام

ومن فارس حيث لجأ هو وأسرته اتصل بالمقيم السياسى المستر بروس لنفس الهدف .

○ **مستر بروس المقيم السياسى فى الخليج** والمقيم فى بوشهر والذى كان يمثل السياسة الانجليزية فى الخليج وكانت تقوم فى هذه الفترة على الحيلولة دون قيام أى قوة مستقلة وقوية على الشاطىء قدر الامكان وتغذية الصراعات بين القوى المحلية لتتبدد قواها وتنشغل بصراعاتها .

○ **السيد سعيد بن سلطان سلطان مسقط** وهو أول حاكم عربى بالخليج يعقد تحالفا مع الانجليز .

○ **الحاكم العام فى اقليم فارس**

وقد بدأت خيوط المؤامرة باتصال ارحمة بن جابر بالمستر بروس وحكى له ما تعرض له من الطرد من الدمام بسبب ال سعود وال خليفة . وفى نفس الوقت اتصل ارحمة بسلطان مسقط بمباركة وتشجيع مستر بروس وكانت النتيجة كما ذكرنا أن بدأ التحرش باحتجاز سلطان مسقط لسفن البحرين الخمس عشرة ونهب حمولتها واعتقال من فيها وكان من بين الذين قبض عليهم سلطان مسقط الشيخ عبدالرحمن بن راشد الفاضل وسفينته (الجابرى) ومحمد بن مقرن بن محمد ال خليفة وسفينته ومحمد بن صقر المعاودة وسفينته (السلطانى) وغيرهم من أهالى البحرين . وقد سجن الرجال المقبوض عليهم فى قلعة (الجلالى) بعد ذلك اتصل سلطان مسقط بحاكم شيراز وعرض عليه خطة لغزو البحرين وطلب منه امداده بألف فارس واربعمائه جواد وقد وافق حاكم شيراز على ذلك بشرط أن يقوم سلطان مسقط فى حالة فشل الحملة على البحرين بدفع كل تكاليف الحملة مع غرامة سنوية لحاكم شيراز أما اذا نجحت الحملة وتم الاستيلاء على البحرين فان على سلطان مسقط فى هذه الحالة أن يدفع

يداه وفى يوليو ١٨١٦ م أمر بتدمير قلعة كان ارحمة بن جابر قد شيدها فى الدمام على ساحل الاحساء وتمكن هذا بجهد شديد من انقاذ اسرته وممتلكاته ونقلها الى خور حسان . وكان أمير الوهابيين قد أمر بأن تنقل هذه جميعا الى الدرعية . وأخيرا فى اكتوبر سنة ١٨١٦ م وصل ارحمة الى بوشهر لاجئا منفيا تصحبه ٥٠٠ أسرة وكان معه عدا القوارب الصغيرة سفينتان كبيرتان وسفينة متوسطة وعدد من السفن الصغيرة وما زالت السواحل الغربية والشمالية تحتفظ حتى اليوم بآثار قلاع تنسب الى ارحمة بن جابر .

عشرة الاف تومان سنويا لحاكم اقليم فارس الايراني . ووافق سلطان مسقط وبدأ الاستعداد للحملة . فكتب لأهل البحرين ينذرهم بالحرب وضمن كتابه الآية الكريمة : « ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون »● فرفضوا تهديده وردوا عليه بجواب جاء فيه « إن ... وإن » وذلك اشارة الى الآية الكريمة : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ●●

وأعد سلطان مسقط حملته وفى ١٩ يوليو ١٢٣٠/هـ ١٨١٦ م ابحرت الحملة من مسقط قاصدة البحرين يقودها السيد سعيد بن سلطان وقد ضمت معظم أطراف المؤامرة فبعد مغادرتها مسقط انضمت اليها ثلاث سفن من بوشهر بأمر الحاكم الايرانى كما انضمت اليها فرق مختلفة من العرب من مينائى كنكون واعسيلوه وكذلك قوات ارحمة بن جابر الجلاهمة وبينما كانت الحملة فى طريقها الى البحرين كان الطرف الباقى من اطراف المؤامرة وهو المستر بروس المقيم البريطانى فى بوشهر يقوم بدور آخر أكثر خبثا ودهاء .

فقد وصل المستر بروس الى البحرين وكان هدفه الرئيسى هو معرفة مدى قوة ال خليفة واستعدادهم الحربى لمواجهة الحملة التى بدأت بالفعل طريقها الى البحرين ولكنه أخفى هذه المهمة الرئيسية وراء مجموعة من المناورات . لقد التقى بعد وصوله بالشيخ عبدالله بن أحمد ال خليفة والشيخ سلمان بن أحمد ال خليفة وأعلن أنه يريد أن يعرف طبيعة الخلاف فعرض عليه الشيخان أسلوب التحرش الذى مارسه سلطان مسقط وكيف انه استولى غدرا على خمس عشرة سفينة من سفن البحرين وكيف انه ارسل انذارا بالحرب واعلانه أن السفن الحربية الانجليزية سوف تشترك معه فى هجومه على البحرين اضافة الى اغلاق الموانىء الهندية التى تسيطر عليها بريطانيا فى وجه أى جهة على عداء مع سلطان مسقط ورد المستر بروس بأن موقف الحكومة البريطانية هو الحياد وانها لن تساعد سلطان مسقط فى هجومه على البحرين ولكى يزيد من عملية التمويه ويظهر حسن نيته عقد مع الشيخ عبدالله والشيخ سلمان اتفاقية بذلك وهى بالطبع اتفاقية غير رسمية

● النحل - ٣٧ -
●● ال عمران ، - ١٦٠ -

اذ لم يفوض من حكومته بعقدها والهدف منها كان فقط لتغطية مهمته الحقيقية ونعتقد أنها تشبه الاتفاقية التى عقدها مع الشيخ حسن بن أرحمة القاسمي أمير رأس الخيمة فى سنة ١٨١٤ م●

وقد رد عليه الشيخ عبدالله بن أحمد قائلا انه اذا ضمن حياد بريطانيا فانه قادر على حماية البحرين لأنه على علاقة ودية مع الدولة السعودية . ولم نعثر حتى الآن على نص هذه الاتفاقية مما يؤكد انها كانت فقط مجرد مناورة امتاز بها اسلوب الكابتن بروس لتغطية مهامه الحقيقية فى اللعب على كل الخيوط. على أى حال عند هذا الحد غادر بروس البحرين وبعد رحيله مباشرة كانت الحملة التى يقودها سلطان مسقط قد وصلت الى مياه البحرين . ولكن البحرين كانت قد استعدت لمواجهتها واحتشد أهل البحرين للدفاع عن بلدهم فردموا مدخل خور القليعة بالحجارة واغرقوا فيه السفن القديمة بعد أن ملأوها بالحجارة كما اغلقوا مداخل البحرين فى الشمال عند الساية. وقد دلت هذه الاجراءات الدفاعية على بعد نظر الشيخ عبدالله وأخيه الشيخ سلمان ومعرفتهما بأسلوب الحرب البحرية وبالطريقة التى يفكر بها الجيش المهاجم وبالطريقة الدفاعية الفعالة لحماية الجزيرة .

لقد توقعا أن القوة المهاجمة سوف تتجه الى خور القليعة لتتخذ بذلك موقعا متوسطا للهجوم بين المحرق والمنامة وهو موقع يجعل الجزيرتين فى مدى مدافع المراكب كما يجبر المدافعين الى تقسيم جيشهم قسمين قسم للدفاع عن المحرق وآخر للدفاع عن المنامة مما يتيح للقوة المهاجمة التغلب على كل قسم بسهولة . وقد صدق هذا التوقع فتوجهت القوة المهاجمة بالفعل الى خور القليعة ولكنها فوجئت باغلاقه فلم يجد سلطان مسقط أمامه سوى الاتجاه الى جزيرة سترة فنزلت قواته بها واحتلتها وبقيت القوات المهاجمة بها ولم يحاول السلطان أن يتقدم خوفا من أن يبتعد عن سفنه وحتى لا يوسع من جبهة القتال مما يعطى للبحرين فرصة التفوق عليه . ومن الناحية الأخرى كانت قوات البحرين تضم المشاة وكانوا ينقسمون قسمين تحسبا لاحتمال وقوع الهجوم من أكثر من جهة قسم يقوده الشيخ عبدالله بن أحمد ال خليفة وقد تجمعت قواته فى المنامة وزحفت الى جد على حيث

● اتفاقية بين الكابتن بروس وحسن بن أرحمة القاسمى فى ٢٢ تشرين الأول ١٨١٤ م . راجع الملحق فى نهاية البحث .

اتخذت مواقعها وسط النخيل . وقسم تجمع في الرفاع تحت قيادة الشيخ سلمان بن أحمد ال خليفة وقد أصر رغم كبر سنه على الاشتراك في المعركة وقد اعد له جمل ركبه على رأس قواته أما الفرسان فكانوا تحت قيادة الشيخ خليفة بن سلمان ال خليفة وقد كمنت قوات البحرين للقوة المهاجمة دون أن تتسرع بالهجوم حتى يتأكدوا من خطة المهاجمين ويطمئنوا الى عدم قيام أجزاء من جيش السلطان بمهاجمة مناطق أخرى من البلاد وبقوا كذلك ثلاثة أيام حتى ساور القلق السلطان الذى لم يكن يدرى ما يدور فاستدعى ارحمة بن جابر الجلاهمة وقال له « فين اعتيباتك يا شيخ ارحمة .. غابو (يعنى ماتو) فأخذت الحمية ارحمة بن جابر ورد قائلا : يجهزون عشاك ياسيدنا .

وفى الصباح وهو صباح اليوم الرابع انسحب ارحمة بن جابر وجنده من سترة واتجه بسفنه مستهدفا الالتفاف حول المحرق من الشمال لمهاجمة المنامة ونهبها أثناء انشغال القوات البحرينية بالقتال مع السلطان ولكنه ـ وهو الخبير بالبحر ـ خالفه سوء التقدير اذ كان عليه ليصل الى بغيته أن يتجه شمالا وكانت الريح تهب من الشمال مما أجبره على أن (يجاوش) • خاصة وسفنه كانت شراعية وكانت النتيجة انه تأخر كثيرا فى الوصول وفى نفس الوقت وهو صباح اليوم الرابع لنزول القوات فى سترة واثناء الجزر بدأ السلطان فى التقدم الى (العكر) وفوجىء بظهور قوات البحرين من بين النخيل وهم يرفعون اعلامهم ويدقون طبولهم واشتبكت طلائع القوة المتقدمة مع قوات البحرين وفى نفس اللحظة هجمت فرسان البحرين على قوات السلطان من الخلف ومن المكان الذى يوجد فيه الآن جسر سترة بالمعامير وأدرك السلطان على الفور أن قواته على وشك أن تقع بين فكى كماشة وان ذلك لو حدث فسوف تتعرض هذه القوات للابادة وقد هاجمت الخيل بالفعل قواته التى انسحبت بسرعة الى خرسان واديان •• حتى تتفادى هجوم الخيل وأخذ بعضهم يصيح على البعض الآخر لينزلوا هذه الخرسان

• (يجاوش) اصطلاح بحرى توصف به السفينة التى تبحر فى مواجهة الريح مما يجعلها مضطرة للذهاب والعودة مع الميل حتى تصل الى هدفها مما يستغرق منها وقتا طويلا للغاية .

•• الخرسان جمع خريس وهو جدول مائى فى ارض طينية رخوة تنبت فيها بعض الحشائش .



قلعة البحرين

صورة لقلعة البحرين في ١٨٧٠م عثر عليها مركز الوثائق التاريخية في مكتبة دائرة الهند بلندن . وتقع هذه القلعة على الساحل الشمالي لجزيرة البحرين . وتحتل موقعا مهما في نهاية خليج مفتوح . وقد دلت الحفريات على انها قلعة اسلامية في اسسها وان سبب ارتفاعها انها بنيت على آثار قلعة قديمة ..

وفي ٩٦٩هـ/ ١٥٦٨م جدد بناء القلعة في عهد وزارة جلال بن مراد شاه ثم جددت ورممت بواسطة البرتغاليين .

قلعة الرفاع

بناها الشيخ سلمان بن احمد الفاتح قبل عام ١٨١٦م وربما بنيت على اسس لقلعة اقدم من ذلك التاريخ . وجاء وصف للقلعة كتبه الكابتن (لوتش) عام ١٨٢٠م عندما زار سمو الشيخ سلمان بن احمد الفاتح في القلعة وبصحبته الكابتن بروس المقيم السياسي في بوشهر وبعض الضباط وتناولوا الطعام عنده. هذا الوصف منشور ضمن سطور هذا البحث .



حتى لا تدهمهم الخيل ولم تلبث قوات السلطان أن انهزمت وفر من بقى من جنوده الى السفن لا يلوون على شيء وقد خلفوا وراءهم عددا كبيرا من القتلى بينهم حمد بن سلطان شقيق السلطان سعيد وكانت خسائر البحرين قليلة وقد قتل فى المعركة من جانبهم قاسم بن درباس من ال بنعلى والشيخ محمد بن ابراهيم ال خليفة وأحد أولاد الشيخ عبدالله بن أحمد . واسرع السلطان بالانسحاب بمن بقى من قواته . وقد بلغت أخبار الهزيمة ارحمة بن جابر الذى كان ما يزال يكافح الريح للوصول الى المنامة فأسرع هو الآخر بالفرار بسفنه الى بوشهر .

بعد وصول السلطان الى مسقط هم بقتل المعتقلين البحرينيين عنده والذين قبض عليهم عندما احتجز سفن البحرين ولكن أخته موزة منعته من ذلك قائلة له انهم أسرى وان الوسيلة الوحيدة للانتقام هى تجهيز حملة ثانية على البحرين اذا كان يريد حقا أن يثأر لمقتل أخيه . فأعاد السلطان تجميع قواته وسار بها الى جزيرة قيس استعدادا لمعاودة الهجوم على البحرين .

وهنا تتبدى حنكة حكام البحرين فى معالجة الامور سلما أو حربا . فقد حاربوا عندما فرضت عليهم الحرب وانتصروا فى حربهم دفاعا عن أرض البحرين ولكن اذا كانت الحرب ضرورية أحيانا فان السلم قد يحقق من النتائج أكثر مما تحققه الحرب وهى السياسة التى اعتمد عليها حكم الشيخ سلمان بن أحمد والتى عرضنا لها فى بداية البحث . فعندما علم الشيخ سلمان بن أحمد بخبر الحشد الجديد أرسل وفدا برئاسة السيد عبدالجليل بن السيد ياسين الطباطبائى ومعه الشيخ حمد بن عبدالله بن أحمد ال خليفة وآخرون ووصل الوفد الى جزيرة قيس فى الوقت المناسب والذى لا شك أن ال خليفة كانوا يدركون جيدا أبعاده وأبعاد الظروف التى تحاصر السلطان الغاضب .. الذى أدرك من موقعه فى جزيرة قيس تلاعب الانجليز وسياستهم فى ضرب القوى المحلية بعضها ببعض كما تبين كما يقول لوريمر فى كتابه أن الايرانيين ينوون الغدر به والقاء القبض عليه وسجنه فى شيراز . وسط هذه الظروف وصل وفد البحرين للتفاوض من أجل الصلح وعرضوا على السلطان مبلغا من المال مقابل فدية أخيه ومقابل اطلاق سراح المعتقلين البحرينيين فى (الجلالى) وقد وافق السلطان على الصلح وتنازل عن ثلاثة أرباع المبلغ الذى سبق الاتفاق عليه .

★★★

ظهر من التحركات الأخيرة ومن

السياسة التى انتهجها الكابتن بروس أبعاد السياسة البريطانية فى الخليج وهدف بريطانيا فى احكام سيطرتها على الخليج وهو الهدف الذى مهدت له بضرب القوى المحلية بعضها ببعض حتى تضعف من قوتهم وحتى يسهل عليها بعد ذلك احكام سيطرتها وقد أخذت الظروف تتهيأ لتحقيق هذه السياسة . ففى يوم ٤ سبتمبر ١٨١٨ م تمكن ابراهيم باشا ابن محمد على من تدمير الدرعية والقضاء على الدولة السعودية الأولى وفى يوم ١٠ يوليو ١٨١٩ م اجتمع مجلس الرئاسة فى بومبى وقرر اعداد حملة عسكرية لمهاجمة رأس الخيمة واختير الميجور جنرال (اللواء) السير وليم جرانت كير (Major . Cen. Cir W. G. Keir) قائدا عاما للحملة التى اشتركت فيها قوات السلطان . وهاجمت هذه القوة القواسم فى رأس الخيمة الذين استبسلوا فى الدفاع عن أرضهم ولكن المدافع البريطانية بعيدة المدى والسلاح الحديث الذى استخدمه الانجليز تفوق على مالدى القواسم من سلاح ورغم ذلك استمرت المعركة من ١٨١٩/١٢/٣ م وحتى ١٨١٩/١٢/٩ م قبل أن يتمكن الجنرال كير من دخول رأس الخيمة حيث استسلم الشيخ حسن بن ارحمة القاسمى . بعد ذلك انطلق الاسطول البريطانى فى الخليج ليدمر المدن فدمر مدينة (الرس) ودمر جميع السفن التى كانت راسية فى موانىء الساحل وتوجهت السفن البريطانية الى البحرين ومشطت موانئها ثم عبرت الى الساحل الغربى للخليج وفتشت موانىء لنجة وعسيلوه وكنكون وجارك ودمرت جميع ماصادفته من سفن القواسم وكان من نتيجة هذه الحملة والتدمير الذى الحقته بالموانىء والسفن أن أصبحت بريطانيا هى المسيطرة على الخليج والقوة المرهوبة فيه وأصدر الجنرال كير أمره للنقيب بيرونت تومسن فى ١٨١٩/١٢/١٩ م ليكون ضابط الارتباط الجديد بين القوة البريطانية والسيد سعيد سلطان عمان وطلب اليه أن يعد صيغة معاهدة سلام عامة ليوقعها كل شيوخ الخليج . وقام النقيب تومسن تساعده زوجته المسز تومسن بكتابة صيغة المعاهدة وكان النقيب تومسن يجيد العربية والتحق اصلا بالحملة ليكون مترجما للجنرال كير .

وقد جاء نص المعاهدة التى اطلق عليها المعاهدة العامة بين شيوخ الخليج والحكومة البريطانية عام ١٨٢٠ باللغة العربيةو كالآتى :

«الحمدلله الذى جعل الصلح خير الانام وبعد قد صار الصلح الدائم بين دولة سركار الانكريز وبين الطوايف العربية المشروطين على هذه الشروط»

No. 2.

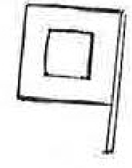
معاهدة العمومية مع الاقوام العرب في خليج فارس في سنه ١٨٢٠ ع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل الصلح خيراً للأنام وبعد قد صار الصلح الدائم بين دولة سركار الانكريز وبين الطوايف العربية المشروطين على هذه الشروط ·

الشرط الأول — ان أزال النهب والغارات في البر والبحر من طرف العرب المشروطين في كل الأزمان ·

الشرط الثاني — ان تعرض احد من قوم العرب المشروطين على المترددين في البر والبحر من كافة الناس بالنهب والغارات بلا حرب معروف فهو عدو لكافة الناس فليس له الأمان على نفسه ولا ماله والحرب المعروف هو الذي معاداة به مبين مأمور به من دولة الى دولة وقتل الناس واخذ المال بغير معاداة وتبيين وامر دولة فهو النهب والغارات ·



الشرط الثالث — ان العرب المصالحين لهم في البر والبحر علم احمر فيه حروف او بلا حروف على مطلوبهم وهو في لفة ابيض عرض الأبيض الذي في اللفة يعادل عرض الأحمر كما هو مصور في الحاشية وان هذا هو علم العرب المصالحين فيستعملون به ولا يستعملون بغيره ·

الشرط الرابع — ان الطوايف المصالحين كلهم على حالة الأول الا انهم صار الصلح بينهم وبين دولة سركار الانكريز وان لا يحرب بعضهم بعضاً والعلم هو الشاهد على ذلك فقط وليس هو شاهد على غيره ·

الشرط الخامس — ان مراكب العرب المصالحين كلهم بأيديهم قرطاس مرشوم بخط اميرهم فيه اسم المركب وطوله وعرضه وكم يحمل من كاره وبأيديهم ايضاً مكتوب آخر مرشوم بخط اميرهم فيه اسم صاحب المركب واسم الناخذاة وعدد الرجال وعدد السلاح ومن اين سار وفي اي وقت والى اي بندر يتوجه فان تعرض لهم مركب من الانكريز او غيرهم يعرضون عليه القرطاس والمكتوب ·

الشرط السادس — ان العرب المصالحين ان كان مرادهم يرسلون رسولاً الى سركار الانكريز في بحر الفارس ومعه الذي يحتاج اليه فيتحدث مع السركار حتى يقضي غرضهم منه وسركار الانكريز ان كان مراده يرسل رسولاً ايضاً الى عندهم كذلك والرسول يأتي بخطه الى خط اميرهم في قرطاس مراكبهم المذكور الذي فيه طول المركب وعرضه وكم يحمل من كاره وينبغي خط الرسول تجديد في كل سنة وايضاً كل من المرسولين خرجه على قومه ·

المعروف و ان كل طائفة يقتل الناس مسلمين او غيره بعد تسليم السلاح فهو قد اخالف الصلح فان العرب المصالحين مع الانكريز يقومون عليهم و ان شاء الله تعالى فلا يزال عليهم العرب الا بعد تسليم من فعل بذلك و حكم به .

الشرط التاسع — ان نهب الرقيق الرجال و النساء و الأولاد في سواحل السودان او غيره و حملهم في المراكب فهو من النهب و الغارات فالعرب المصالحين لا يفعلون من ذلك شيئاً .

الشرط العاشر — ان مراكب العرب المصالحين العاملة علمهم المذكور يدخلون في كل بنادر دولة سركار الانكريز و في بنادر رفقائهم على قدرهم يشترون و يبيعون فيها و ان كان احد تعرض لهم فذلك على سركار الانكريز .

الشرط حادي عشر . ان هذه الشروط المذكورة هي على جميع الطوايف و الناس يقبلونها في المستقبل كما قبلوها في الحين . تم الشروط . و كان تحرير الاصل في راس الخيمة بثلاثة نسخ في تاريخ ظهر يوم السبت الثامن و عشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٢٣٥ الهجرية مايقون خمس و ثلاثين بعد الألف و رشموه المشروطون في الأماكن و الأوراق المكتوبة ذيلاً فرشموه في راس الخيمة في تاريخ تحرير الأول .

ختم السردار بيده و خاتمه

(Sd.) W. GRANT KEIR,
Major-General.

* * * * * * *

بسم الله قد كتبه بيده السيد عبد الجليل بن السيد يس الوكيل عن الشيخ سليمان بن احمد و الشيخ عبد الله بن احمد آل خليفة شيخي البحرين .

فرشمه عبد الله بن احمد آل خليفة في ٩ جماد الأول سنة ١٢٣٥ في البحرين و ذلك ظهرية الأربعا .

عبد الله بن احمد آل خليفه

فرشمه سليمان بن احمد آل خليفة في ٩ جماد الأول سنة ١٢٣٥ في البحرين و قبلوا ذلك في ظهرية يوم الأربعا .

سليمان بن احمد آل خليفه

الشـــرط الأول أن يــزال النــهب والغـارات في البر والبحـر من طرف العرب المشروطين في كل الأزمان .

الشرط الثاني ان تعرض أحد من قوم العرب المشروطين على المترددين في البر والبحر من كافة الناس بالنهب والغارات بلا حرب معروف فهو علنا كافة الناس فليس له الامان على حاله ولا مـاله والحرب المعـروف هو الذي منادى به مبين مامود به من دولة الى دولة قتل الناس واخذ ماله بغير مناديه وتـبـين أوامـر دولة فهـو النــهب والغارات .

الشـــرط الثـالث ان العـــرب المتصالحين لهم في البـر والبحر علم أحمر فيه حروف أو بلا حـروف على مـطلوبهم وهو في كفـة أبيض عرض الابيض الذي في الكفة يعادل عرض الأحمر كما هو مصور في الحاشية وان هـذا هـو علم العـرب المصـالحـين فيستعملون به ولا يستعملون بغيره .

الشـــرط الرابــع أن الطوايــف المصـالحـين كلهم عـلى حـالة الأول ولانهم صار الصلح بينهم وبين دولة سـركـار الانكـريـز وان لا يحـارب بعضهم بعضا والعلم هو الشاهد على ذلك فقط وليس هو شاهد على غيره .

الشرط الخامس أن مراكب العرب المصـالحين كلهم بـأيديهم قـرطاس مرشوم بخط أميرهم فيه اسم المركب وطوله وعـرضه وكم يحمـل من كاره وبايدهم ايضا مكتوب أخـر مرشـوم بخط أميرهم فيه اسم صاحب المركب واسم الناخذة وعـدد الرجال وعـدد السلاح ومن اين ساروا وفي أى وقت والى أى بندر يتوجه فان تعرض لهم مركب من الانكريز أو غيرهم يعرضون عليه القرطاس والمكتوب .

الشـــرط الســـادس ان العـــرب المصالحين ان كان مرادهم يـرسلون رسـولا الى سركـار الانكريـز في بحر فارس ومعه الذى يحتاج اليه فيجلس مع السركـاريين يقضى غـرضهم منه وسركار الانكريز ان كان مراده يرسل رســولا أيضــا الى عنـدهم كـذلك والرسول يلحق خطه الى خط أميرهم في قرطاس مراكبهم المذكور الذى فيه طول المركب وعرضـه وكم يحمل من كارة وينبغى خط الرسول يجدد في كل سنة وايضا كل من الرسولين خرجه على قومه .

الشـرط السابـع ان كـان طايفـة أو غيرهم لا يزالون من النهب والغارات فالعرب المصلحون يقومون عليهم على قدر حالهم ويصـير بين العـرب وبين الانكريز كلام في ذلك في وقت وقوع ذلك النهب والغارة .

الشرط الثامن ان قتل الناس بعد تسليم السلاح فهو من الغارات ولا من الحرب المعروف وان كان طائفة يقتل النـاس مسلمين أو غيـره بعد تسلم الســلاح فهو قـد اخلف الصلح فان

العرب المصالحين مع الانكريز يقومون عليهم وان شاء الله تعالى فلا يزال عليهم الحرب الا بعد تسليم من فعل بذلك وحكم به .

الشرط التاسع ان نهب الرقيق الرجال والنساء والأولاد فى سواحل السودان أو غيره وحملهم فى المراكب فهو النهب والغارات فالعرب المصالحون لا يفعلون من ذلك شيئا .

الشرط العاشر ان مراكب العرب المصالحين الحاملة علمهم المذكور يدخلون فى كل بنادر دولة سركار الانكريز وفى بنادر فيتهم على قدرهم يشترون ويبيعون فيها وان كان أحد لغرض لهم فذلك على سركار الانكريز .

الشرط احدى عشر ان هذه الشروط المذكورة فهى على جميع الطوايف والناس يتقبلونها فى المستقبل كل قبلوها فى الحين .

الشروط وان تحرير القول فى رأس الخيمة بثلاث نسخ فى فى تاريخ ظهر يوم السبت اثنين وعشرين من شهر ربيع الأول فى سنة ١٢٣٥ الهجرية مائتين وخمس وثلاثين بعد الالف ورشموه المشروطون فى الاماكن والتواريخ المكتوبة ذيلا فرشموه فى رأس الخيمة فى تاريخ تحرير القول .

خط السر دار بيده وخاتمه

كتبه حسن بن رحمة بيده

كتبه قضيب بن أحمد بيده

كما جاء النص بالانجليزية كالآتى :

TRANSLATION OF THE GENERAL TREATY WITH THE ARAB TRIBES OF THE PERSIAN GULF, 1820.

IN THE NAME OF GOD, THE MERCIFUL, THE COMPASSIONATE!

Praise be to God, who hath ordained peace to be a blessing to his creatures. There is established a lasting peace between the British Government and the Arab tribes, who are parties to this contract, on the following conditions:—

ARTICLE 1.

There shall be a cessation of plunder and piracy by land and sea on the part of the Arabs, who are parties to this contract, for ever.

No. 2.

TRANSLATION OF THE GENERAL TREATY WITH THE ARAB TRIBES OF THE PERSIAN GULF, 1820.

IN THE NAME OF GOD, THE MERCIFUL, THE COMPASSIONATE!

Praise be to God, who hath ordained peace to be a blessing to his creatures. There is established a lasting peace between the British Government and the Arab tribes, who are parties to this contract, on the following conditions:—

ARTICLE 1.

There shall be a cessation of plunder and piracy by land and sea on the part of the Arabs, who are parties to this contract, for ever.

ARTICLE 2.

If any individual of the people of the Arabs contracting shall attack any that pass by land or sea of any nation whatsoever, in the way of plunder and piracy and not of acknowledged war, he shall be accounted an enemy of all mankind and shall be held to have forfeited both life and goods. An acknowledged war is that which is proclaimed, avowed, and ordered by government against government; and the killing of men and taking of goods without proclamation, avowal, and the order of a government, is plunder and piracy.

ARTICLE 3.

The friendly (literally the pacificated) Arabs shall carry by land and sea a red flag, with or without letters in it, at their option, and this shall be in a border of white, the breadth of the white in the border being equal to the breadth of the red as represented in the margin (the whole forming the flag known in the British Navy by the title of white pierced red), this shall be the flag of the friendly Arabs, and they shall use it and no other.

ARTICLE 4.

The pacificated tribes shall all of them continue in their former relations, with the exception that they shall be at peace with the British Government, and shall not fight with each other, and the flag shall be a symbol of this only and of nothing further.

ARTICLE 5.

The vessels of the friendly Arabs shall all of them have in their possession a paper (Register) signed with the signature of their Chief, in which shall be the name of the vessel, its length, its breadth, and how many Karahs it holds. And they shall also have in their possession another writing (Port Clearance) signed with the signature of their Chief, in which shall be the name of the owner, the name of the Nakhoda, the number of men, the number of arms from whence sailed, at what time, and to what port bound. And if a British or other vessel meet them, they shall produce the Register and the clearance.

ARTICLE 6.

The friendly Arabs, if they choose, shall send an envoy to the British Residency in the Persian Gulf with the necessary accompaniments, and he shall remain there for the transaction of their business with the Residency; and the British Government, if it chooses, shall send an envoy also to them in

endly Arabs and the British at the time when such plunder and piracy shall ccur.

ARTICLE 8.

The putting men to death after they have given up their arms is an act of racy and not of acknowledged war; and if any tribe shall put to death any rsons, either Mohammadans or others, after they have given up their arms, ch tribe shall be held to have broken the peace; and the friendly Arabs shall t against them in conjunction with the British, and, God willing, the war ainst them shall not cease until the surrender of those who performed the act d of those who ordered it.

ARTICLE 9.

The carrying off of the slaves, men, women, or children from the coasts of rica or elsewhere, and the transporting them in vessels, is plunder and piracy d the friendly Arabs shall do nothing of this nature.

ARTICLE 10.

The vessels of the friendly Arabs, bearing their flag above described, shall er into all the British ports and into the ports of the allies of the British far as they shall be able to effect it; and they shall buy and sell therein, and ny [illegible] attack them the British Government [illegible].

ARTICLE 11.

These conditions aforesaid shall be common to all tribes and persons, who ll hereafter [illegible] thereto [illegible] the same [illegible] to those who adhere to m at the time present. End of the Articles.

Signed [illegible] Shargah by the Vakeel on the part of the Shaikhs Suleiman bin med and Abdulla bin Ahmed, in his quality of Vakeel to the Shaikhs aforel, on Saturday, the twent[illegible] of the month of Rubee-oos-Sanee in the year he Hegira one thousand two hundred and thirty-five, corresponding to the of February 1820.

(Sd.) SYUD ABDOOL JALIL BIN SYUD YAS,

Vakeel of Shaikh Suleiman bin Ahmed and Shaikh Abdulla bin Ahmed of the family of Khalifah, Shaikhs of Bahrain.

ed at Ras-ool-Kheimeh at the me of issue by

(Sd.) W. GRANT KEIR, *Major-General.*

(L. S.)

Signed and accepted by Suleiman bin Ahmad, of the house of Khalifah, at Bahrain, on the 9th of Jamadi-ool-Awal in the year of the Hegira one thousand two hundred and thirty-five, corresponding to the 23rd February 1820.

(L. S)

ed and accepted by Abdulla n Ahmed of the house of Khaah at Bahrain, on the 9th of madi-ool-Awal in the year of e Hegira one thousand two ndred and thirty-five [illegible] ding to the twent[illegible] of bruary 1820.

(L. S.)

ARTICLE 2.

If any individual of the people of the Arab contracting shall attack any that pass by land or sea of any nation whatsoever, in the way of plunder and piracy and not of acknowledged war, he shall be accounted an enemy of all mankind and shall be held to have forfeited both life and goods. An acknowledged war is that which is proclaimed, avowed, and ordered by government against government; and the killing of men and taking of goods without proclamation, avowal, and the order of a government, is plunder and piracy.

ARTICLE 3.

The friendly (literally the pacificated) Arabs shall carry by land and sea a red flag, with or without letters in it, at their option, and this shall be in a border of white, the breadth of the white in the border being equal to the breadth of the red as represented in the margin (the whole forming the flag known in the British Navy by the title of white pierced red), this shall be the flag of the friendly Arabs, and they shall use it and no other.

ARTICLE 4.

The pacificated tribes shall all of them continue in their former relations, with the exception that they shall be at peace with the British Government, and shall not fight with each other, and the flag shall be a symbol of this only and of nothing further.

ARTICLE 5.

The vessels of the friendly Arabs shall all of them have in their possession a paper (Register) signed with the signature of their Chief, in which shall be the name of the

vessel, its length, its breadth, and how many Karahs it holds. And they shall also have in their possession another writing (Port Clearance) signed with the signature of their Chief, in which shall be the name of the owner, the name of the Nakhoda, the number of men, the number of arms from whence sailed, at what time, and to what port bound. And if a British or other vessel meet them, they shall produce the Register and the clearance.

ARTICLE 6.

The friendly Arabs, if they choose, shall send an envoy to the British Residencey in the Persian Gulf with the necessary accompaniments, and he shall remain there for the transaction of their business with the Residency; and the British Government, if it chooses, shall send an envoy also to them in like manner; and the envoy shall add his signature to the signature of the Chief in the paper (Register) of their vessels, which contains the length of the vessel, its breadth, and tonnage; the signature of the envoy to be renewed every year. Also all such envoys shall be at the expense of their own party.

ARTICLE 7.

If any tribe or others shall not desist from plunder and piracy, the friendly Arabs shall act against them according to their ability and circumstances, and an arrangement for this purpose shall take place between the friendly Arabs and the British at the time when such plunder and piracy shall occur.

ARTICLE 8.

The putting men to death after they have given up their arms is an act of piracy and not of acknowleged war; and if any tribe shall put to death any persons, either Muhammadans or others, after they have given up their arms, such

tribe shall be held to have broken the peace; and the friendly Arabs shall act against them in conjunction with the British, and, God willing, the war against them shall not cease until the surrender of those who performed the act and of those who ordered it.

ARTICLE 9.

The carrying off the slaves, men, women, or children from the coasts of Africa or elsewhere, and the transporting them in vessels, is plunder and piracy and the friendly Arabs shall do nothing of this nature.

ARTICLE 10.

The vessels of the friendly Arabs, bearing their flags above described, shall enter into all the British ports and into the ports of the allies of the British as far as they shall be able to effect it; and they shall buy and sell therein, and enemy shall attack them the British Government shall take notice of it.

ARTICLE 11.

These conditions aforesaid shall be common to all tribes and persons, who shall hereafter adhere thereto in the same manner as to those who adhere to them at the time present. End of the Articles.

Signed at Shargah by the Vakeel on the part of the Shaikhs Suleiman bin Ahmed and Abdulla bin Ahmed, his quality of Vakeel to the Shaikhs aforesaid, on Saturday, the twentieth of the month of Rubee-oos-Sance in the year of the Hegira one thousand two hundred and thrity-five, corresponding to the 5th of February 1820.

(Sd.) SYUD ABDOOL JALIL BIN SYUD YAS,

Vakeel of Shaikh Suleiman bin Ahmed and Shaikh Abdulla bin Ahmed of the family of Khalifah, Shaikhs of Bahrain.

Signed at Ras-ool-Kheimeh at the time of issue by
(Sd.) W. GRANT KEIR, Major-General.

Signed and accepted by Suleiman bin Ahmed, of the house of Khalifah, at Bahrain, on the 9th of Jamadi-ool-Awal in the year of the Hegira one thousand two hundred and thirty-five, corresponding to the 23rd February 1820.

(L.S.).

Signed and accepted by Abdulla bin Ahmed of the house of Khalifah, at Bahrain, on the 9th of Jamadi-ool-Awal in the year of the Hegira one thousand two two hundred and thirty-five, corresponding to the twenty-third of February 1820.

(L.S.)

بعد تحطيم قوة القواسم وفي يوم ٢٠ يناير ١٨٢٠ م وصلت الى البحرين السفينة الحربية الانجليزية (ايدن) التي كانت تقوم بتفتيش الخليج بحثا عن سفن القواسم وبأسلوب استعراض العضلات. ونزل منها الكابتن فرانسيس لوتش (Francis Locch) قائد السفينة يرافقه المستر بروس المقيم البريطاني في الخليج ومعهما بعض ضباط البحرية الانجليزية في زيارة للبحرين. وقد كتب الكابتن فرانسيس لوتش في مذكراته عن هذه الزيارة يقول:

« ان موقع ووضع مدينة المنامة

أفضل بكثير من أى مكان شاهدته فى الخليج وبالرغم من أن معظم بيوتها مشيدة من سعف النخيل الا انها تمتاز بتنسيق ونظافة لا يوجدان فى الاماكن الأخرى ويبدو من تصرفات السكان أنهم من طبقة ممتازة : (The People also appeard to be of a very superior class): والحقول خارج المدينة مزروعة بعناية واتقان وترى فيها صفوف النخيل المتقاطعة وتوجد بالمنطقة الداخلية حدائق نخيل واسعة ومنظمة . والامر الذى شد انتباهى فى هذا الوقت من السنة هو وجود البرسيم (الجت) الجميل بكثرة حيث تتغذى به المواشى التى تنتج أفضل أنواع اللحم والحليب والزبدة التى لم نتذوق مثلها منذ تركنا انجلترا » .

وقد توجه الكابتن فرانسيس لوتش ومرافقوه الى الرفاع للسلام على الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة وكتب فرانسيس عن ذلك يقول :

« توجد فى وسط الجزيرة أرض مرتفعة أقيم عليها قصر الشيخ وقامت حوله مدينة واسعة . وجدران القصر ترتفع الى حوالى ١٥ أو ٢٠ قدما وعرضها فى القاعدة يتراوح بين ١٠ اقدام و ١٢ قدما وهي مربعة الشكل ويوجد فى كل زاوية منها برج كما توجد المتاريس حول الجدران . وفى الابراج فتحتان (مزاغيل) لرماة البنادق والأرض حول القلعة خالية من الزراعة كما انها منحدرة من أغلب جهاتها عدا قطعة مسطحة واحدة فى أحد الجوانب . وقد وجدنا الشيخ عند باب القلعة حيث اصطف حوالى ٢٠٠ حارس يرتدون الجلابيب البيضاء وكل منهم مسلح ببندقية وسيف وكيس للبارود والرصاص مصنوع من جلد ناعم . وكان الشيخ جالسا على مقعد حجرى (دكة) عند الباب وبعد القهوة قام الشيخ ودعانا ان نتبعه وأمر الا يصحبنا أحد الا أخوه عبدالله واقتادنا أنا وبروس حول زاوية من زوايا القلعة شمالا على الأرض المرتفعة حتى وصلنا الى مدخل كهف منحوت فى الصخر فدخلناه . لم نكن نعرف أين كنا نتجه وكان الممر منحوتا فى الصخر ومنخفضا ولم نكن نستطيع السير منتصبى القامة كان الممر شبه مظلم وقد واصلنا سيرنا حتى وصلنا الى غرفة واسعة منحوتة فى الصخر وجدرانها من الحجر الرملى وفى هذه الحجرة جلس الشيخ ودار بيننا حديث طويل » . وفى هذه الزيارة عقدت اتفاقية مؤقتة جاء فى شروطها .

ان يلتزم شيخ البحرين بعدم السماح لأى سفن أو قوارب ترفع علم القواسم باللجوء الى موانىء البحرين وكان الكابتن لوتش قد استلم بالفعل عشر سفن من سفن القواسم كانت موجودة بالبحرين.

وفى ٢٣ فبراير ١٨٢٠ وقع الشيخ سلمان بن أحمد وأخوه الشيخ عبدالله بن أحمد معاهدة السلام العامة التى كان قد وقعها من قبل فى الشارقة ممثلهم السيد عبدالجليل بن السيد يسن الطباطبائى فى ٥ فبراير ١٨٢٠ م .

وفى صيف سنة ١٨٢١ م اجتاح وباء الكوليرا جزر البحرين وقيل ان ضحايا وباء الكوليرا بلغوا أربعة الاف شخص .

وفى سنة ١٨٢٢ م غدر المستر بروس بالبحرين عندما وقع اتفاقية مع حكومة شيراز وهى الاتفاقية التى لم تقرها الحكومة البريطانية ولم يقرها الشاه وعزل بسببها بروس من منصبه وفى ٢٧ يناير ١٨٢٣ قام الملازم ماكلويد الذى عين خلفا للكابتن بروس بزيارة للبحرين حيث استقبل بحفاوة واكرام خاصة والهدف من الزيارة كان لتأكيد أن المعاهدة التى وقعها بروس مع شيراز يتحمل وزرها وحده وان الحكومة البريطانية لم تقرها وقد قام ماكلويد بزيارة الشيخ سلمان بن أحمد ال خليفة فى الرفاع وقد أوكل الشيخ سلمان بن أحمد حكم البحرين الى أخيه الشيخ عبدالله بن أحمد والى ابنه الشيخ خليفة بن سلمان وركن الى الراحة لكبر سنه وفى سنة ١٨٢٥ م/ ١٢٣٦ هجرية انتقل الشيخ سلمان بن أحمد ال خليفة الى رحمة الله ودفن فى مقبرة الرفاع وخلفه فى حكم البلاد أخوه الشيخ عبدالله بن أحمد ال خليفة ليبدأ فصل جديد من تاريخ البحرين .

Extract from the Diary of Captain Francis E. LOCH who commanded the man of war H.M.S. ELEN in the Persian Gulf during the expedition against the Pirates. The following extract was written in January 1820. Captain Loch with captain BRUCE, who was the British Resident in Bushire, with some of the ship's officers rode out to Rafaa to visit SHAIKH AHMAD BIN KHALIFA and his brother SHAIKH ABDULLA.

" The aspect and the situation of the town (MANAMA) is far superior to any I had seen in the Persian Gulf, although many of the houses are made of date branches, yet with a neatness and cleanliness not to be seen elsewhere. The people also appeared to be of a very superior class. Outside the town are fields in the highest state of cultivation, they are intersected by rows of date trees. Further inland are large date groves, in excellent order but what struck me was that, at this time of the year many of the fields contained the most beautiful crops of clover (Jett) which the cattle were fed on. The cattle produced the most superior meat, milk and butter such as we had not tasted since we left England."

(LOCH then went out to Rafaa which he describes as follows:-)

" In the centre of the island is rising ground on which is built the Shaikh's castle and a considerable town. The walls (of the castle) are between fifteen and twenty feet in height and ten to twelve feet in thickness at the base. The walls are in the form of a square with a round tower at each corner. The walls and towers have parapets and loop holes for muskets. Round the fort there was no cultivation and the ground sloped from it on all sides, except at the top where there was a considerable flat space.

At the gate of the fortress we met the Shaikh, attended by about 200 guards, all dressed in long white robes, each man had a musket and a sword and a cartouche box, made of soft leather. The Shaikh was seated on one of the stone benches at the side of the gate. After coffee the Shaikh rose and beckoned us to follow him, giving orders that nobody else, except his brother (ABDULLA) should come. Off he went, leading Bruce and me, ROUND ONE ANGLE OF THE FORT, THEN DOWN THE NORTH EASTERN SIDE OF THE RISING GROUND UNTIL WE CAME TO THE MOUTH OF A CAVE, CUT OUT OF WHAT SEEMED TO BE SOLID ROCK into which we were conducted.

To where this place would lead neither Bruce or I could devise nor did we know where we would be taken to. The passage.. in the rock, into which we had entered almost at once became too low for us to walk in an erect position and it was in nearly total darkness. We groped our way until we came to a SPACIOUS ROOM, CUT OUT OF THE SUBTERRANEAN ROCK. Here the Shaikh sat down.

(They then had a long conversation about the pirates.)

THIS NEWS ABOUT BAHRAIN WAS SENT TO HIS EXCELLENCY SHAIKH MUHAMAD BIN SULMAN AL-KHALIFA BY SIR CHARLES BELGRAVE, on 25th July 1961.

صفحة من مذكرات فرانسيس لوتش

الملحق

نص الاتفاقية التى عقدت بين الكابتن بروس وحسن بن ارحمة القاسمى وقد آثرنا أن نورد نصها لسببين الأول أن الاتفاقية المشابهة والتى تذكر المصادر أنها عقدت مع البحرين لم يعثر عليها حتى الآن والثانى أنه لما كنا نعتقد أن اتفاقية البحرين لابد أن تكون مشابهة لهذه الاتفاقية لأنهما عقدتا فى نفس الظروف ومع نفس الممثل الانجليزى فقد يكون من المفيد للباحث أن يطلع على نصوص هذه الاتفاقية .

(الباحث)

٢٢/تشرين أول/ ١٨١٤م

اتفاقية بين الكابتن بروس . وحسن بن رحمة القاسمى

قولنامة أو اتفاقية بين الكابتن وليم بروس ، المقيم فى بوشهر ، نيابة عن الحكومة البريطانية ، وحسن بن محمد بن غيث القاسمى ، نيابة عن الأمير حسن بن رحمة ، زعيم القواسم فى رأس الخيمة ، معقودة فى اليوم الحالى فى بوشهر .

تقرر من الآن فصاعدا تحقيق علاقات صداقة ملزمة بين الحكومة البريطانية وقواسم رأس الخيمة ، ويجب اعتبار كافة ماحدث سابقا فى طى النسيان وفقا للشروط التالية :

المادة الأولى : ان على القواسم احترام الراية البريطانية والامتناع عن التحرش أو عرقلة الملاحة فيما يتعلق بكافة أنواع السفن سواء

أكانت سفنا أو أدوات أو زوارق الخ .. التى تبحر حاملة الرخصة والعلم البريطانى ، بل على العكس من ذلك ، فان عليهم تقديم المساعدة والعون اللازمين لها لغرض مواصلة رحلتها .

المادة الثانية : يكون ميناء رأس الخيمة وكافة الموانىء الأخرى الواقعة تحت سيطرة حكومة القواسم مفتوحة للرعايا البريطانيين ، الذين يكون من حقهم زيارة وانجاز مهامهم التجارية فيها كما هو الحال بالنسبة لموانىء الخليج الأخرى ، وان نفس هذا المبدأ سوف يطبق بالنسبة للموانىء البريطانية فى الهند ، اذ انها ستكون مفتوحة للقواسم بنفس الشروط المطبقة على العرب الآخرين .

المادة الثالثة : فى حالة تحطم سفينة ما أو تعرضها لبعض الحوادث الأخرى حين تواجدها بالقرب من سواحل أو جزر الخليج التابعة لحكومة القواسم أو الواقعة تحت نفوذها ، يتحتم تقديم كافة المساعدات اللازمة لتلك السفينة وملاحيها ، مع اتخاذ كافة الاحتياطات لمنع اتلاف أو سرقة شحنتها .

المادة الرابعة : لغرض تلافى الاشتباه ولتمييز سفن القواسم عن غيرها من سفن الدول العربية الأخرى ، يوافق القواسم على رفع علم أحمر مكتوب فى وسطه بالعربية « لا اله الا الله محمد رسول الله » وسيعتبر هذا العلم راية لرعاية حسن بن رحمة وقواسم رأس الخيمة فى المستقبل .

المادة الخامسة : اذا استولى قواسم رأس الخيمة على زورق أو سفينة من أية مواصفات كانت تابعة لقبائل معادية لهم ، فانه يجب اعادة الأموال التى تكون محمولة عليها عند المطالبة بها مباشرة اذا ثبت أن تلك الأموال تعود ملكيتها الى رعايا يتمتعون بالحماية البريطانية .

المادة السادسة : يتعهد حسن بن غيث ، وكيل حسن بن رحمة ، والذى عقدت معه هذه الاتفاقية بشكل قاطع بأنه حال عودته الى رأس الخيمة سوف يعيد السفينة H.C.MARES (١) والأموال العائدة

---

(١) اسم وكيل السفينة العمانية التى اسرها القواسم وكانت محملة بالافراس المرسلة الى الفرقة السابعة عشرة البريطانية وكبريت الى الحكومة البريطانية .

ملكيتها لأحمد شاه والتى ذكر أنها نقلت من جزيرة قيس فى زورق قاسمى ، ويرسلها الى خوجا غولاب وسيط الشركة الموقرة فى مسقط .

المادة السابعة : اضافة الى ما تقدم ، تم الاتفاق على أنه فى حالة بروز ضرورة لابطال هذه الاتفاقية ، فعلى الراغب فى ابطالها اعطاء اشعار مسبق بذلك . فان من يرجع فى عهده فانما يبتعد عن الله .

المادة الثامنة : بما أن فى نية حسن بن رحمة ايفاد وكيل عنه ، مخول بكافة الصلاحيات الى بومباى لمناقشة وتوقيع اتفاقات أكثر الزاما وشمولا مع الحكومة البريطانية فى وقت قريب ، فان الاتفاق الحالى على هذه المواد المبدئية سيكون رهنا بموافقة حاكم بومباى الموقر ، والذى ستحال اليه بأقرب فرصة ممكنة لغرض دراستها .

وقعت فى بوشهر فى هذا اليوم من تشرين الأول ١٨١٤ ، الموافق ٢١ من شوال ١٢٢٩ هجرية ، بأيدينا وختمنا .

وليم بروس
المقيم
٢٣ تشرين الأول ١٨١٤

المراجع

- التحفة النبهانية تاليف الشيخ محمد بن خليفة النبهانى . دار اخبار العلوم بيروت .
- المفصل فى تاريخ الامارات العربية المتحدة الجزء الأول تاليف الاستاذ فالح حنظل .
- نقل الاخبار فى وفيات المشايخ وحوادث هذه الديار : تاليف حميد بن سلطان بن حميد الساسى مراجعة فالح حنظل طبعة أولى ١٤٠٦/١٩٨٦ م .
- دليل الخليج القسم التاريخى الجزء الثالث تاليف ج .ج . لوريمر طبعة قطر .

التطوّر التاريخي لسياسة

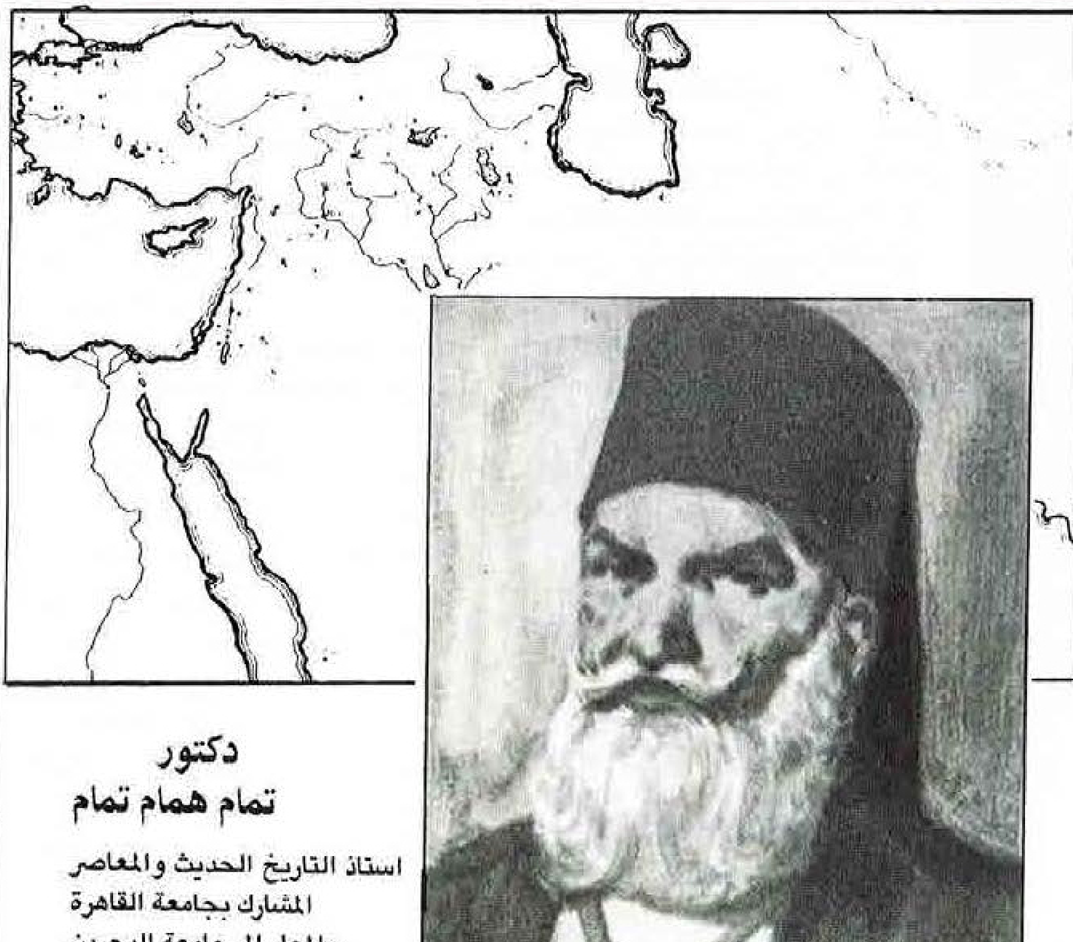
دراسة
وثائقية
وتحليلية



لاحظ الباحث من خلال دراساته في تاريخ العالم العربي الحديث ، ان هناك اراء تتردد حول توسعات «محمد على» حاكم ولاية مصر ، في املاك الدولة العثمانية ، التي كانت لها السيادة الشرعية ـ وقتذاك ـ علي ـ مصر ـ وعلى معظم العالم العربي الحالي .

وقد تضاربت الاراء فيما بينها ، حول الاسباب التي ادت الى تلك التوسعات ، وعن الاهداف منها ، وشدت انتباه الباحث ، مسالة الخليج العربي بالذات ، فرغم ان بعض بلاده ، كانت لا تدور في فلك الدولة العثمانية ، الا انه كانت هناك تطلعات واهتمامات من جانب محمد على تجاه الخليج ، الامر الذي شكل علامة استفهام ، وبالتالي اخذ المؤرخون الذين تناولوا هذه المسألة أو اشاروا اليها بصورة أو بأخرى ينظر كل واحد منهم الى المسألة بمنظار وبمفهوم قد يتفق او يختلف مع غيره .

محمّد علي تجاه الخليج العربي



دكتور

تمام همام تمام

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر
المشارك بجامعة القاهرة
والمعار الى جامعة البحرين

والمعروف أن محمد علي كانت له سياسة خارجية ، يرى الباحث انها مرت بعدة ادوار ، ولذلك نتساءل ، هل كانت تطلعات محمد علي الى الخليج العربي ، نوعا من الاستعمار ، يشبه ذلك الذي اوجده الاوروبيون منذ بداية العصر الحديث خارج اوروبا ، ام ان هناك دوافع جعلته ، يتطلع الى تلك الجهات ، رغم بعدها عن مركز قيادته في القاهرة ، أم ان تطلعه اليها ، كان وليد الظروف وقتذاك ، حين كان في شرق الجزيرة العربية ، أم ان هناك اسبابا اقوى من كل ذلك دفعته للاهتمام بهذه المنطقة .

وسرعان ماشكلت هذه التساؤلات وغيرها ، قضية ، امام الباحث رأى ان لها مكانا من الاهمية في تاريخ العالم العربي الحديث ، عامة وفي تاريخ الخليج خاصة ومن ثم فهي جديرة بالدراسة الاكاديمية والتحليلية ، حتى تظهر لنا الحقيقة المجردة ، من اي غرض ، من وراء تطلعات هذا الحاكم ، وهل كانت محاولة توحيدية لتلك الجهات ، وما هو موقعها في سياسة القاهرة وقتذاك ، وهل كانت هناك عقبات ، وما هي الاثار التي ترتبت على تلك التجربة .

وقد عالج الباحث هذه القضية ، برؤية ، يرجو أن تكون جديدة ، فقد اخضع الوثائق الرسمية وغيرها مما جمعه من مادة علمية ، للدراسة التحليلية ، في اطار منهج البحث التاريخي ، ويأمل ان يكون قد كشف في هذه الدراسة ، عن الحقيقة التاريخية ، بروح محايدة ، وان تكون هذه الدراسة اسهاما في صناعة تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ، من ناحية ، وفي اثراء المكتبة العربية من ناحية اخرى .

موقع الخليج العربي :

يقع الخليج العربي في قلب العالم القديم بين المحيط الهندي والبحر المتوسط ، وهو بحر هامشي أو بحر داخلي ، يشغل الرصيف القاري ، ولهذا كان قليل العمق ، اذا قيس بأعماق خليج عمان والخلجان الاخرى ، ويتصل الخليج العربي بخليج عمان ، عن طريق مضيق «هرمز» الذي يبلغ اتساعه ٦٠ كم ، وهو بذلك يشكل الذراع اليمنى للمحيط الهندي [١] .

ويمتد الخليج العربي من دائرة العرض ٢٤° شمالا الى دائرة العرض ٣٠,٣٠° شمالا ، أي أنه يمتد ستا ونصفا من دوائر العرض ، ويمتد من خط الطول ٤٨° شرقا الى ٥٦,٢٠° شرقا اي انه ذو محور يميل من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي بمقدار ثمان درجات .

وتبلغ مساحة الخليج ٢٢٦,٠٠٠كم^{2} ، ويمتد ساحله الغربي من رأس مسندم حتى شط

العرب (١٥٠٠ كم) ، اما الساحل الشرقي فيمتد (١٠٦٠ كم) من مضيق هرمز جنوبا حتى شط العرب شمالا .

ويتراوح عرض الخليج بين ٢٠٠ و٣٠٠ كم ويبلغ طوله ١٠٠٠ كم[٢]

واعمق اجزاء الخليج ، يتجاوز مائة متر في الغالب ، وبه مناطق واسعة ، لا يتجاوز عمقها ٤٠ مترا ، ويوجد هذا العمق القليل فيه الى مسافة ١١٠ كم من ساحله عند مصب شط العرب . كما يوجد ايضا في مناطق اخرى في داخله مثل المناطق التي تكتنف جزر البحرين ، وعلى العموم فان اعمق اجزائه يوجد بالغرب من مضيق هرمز ، ويزداد العمق كلما اتجهنا من رأس الخليج الى هذا المضيق[٣] .

وقد ادت العوامل الجغرافية ، مثل الموقع والتضاريس والمناخ ، والموارد الاقتصادية ، الى جعل الخليج ، مركزا تجاريا وممرا مائيا عالميا ، منذ اقدم العصور ، لعالم التجارة والحرب واخيرا السياسة . الامر الذي طبع تاريخ بلاد الخليج ، ونشاطها ، سواء كان تجاريا او حربيا او سياسيا ، بطابع خاص .

فيمتد الخليج العربي ومدخله خليج عمان في اتجاه شمالي غربي ، اذ ان محوره يأخذ هذا الاتجاه ، موازيا لمرتفعات زاجروس ، كما ان نهرى دجلة والفرات اللذين يلتقيان عند «القرنه» مكونين مجرى مائيا واحدا هو شط العرب الذي يصب في الخليج قرب ميناء «الفاو» يجريان في اتجاه شمالي غربي ايضا ، ليقترب نهر الفرات من الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، فلا تزيد المسافة بين مسكنه على نهر الفرات وبين هذا الساحل على ١٩٠ كم .

وقد جعل امتداد هذين المسطحين المائيين «الخليج وعمان» وكذلك نهرى دجلة والفرات في هذا الاتجاه الشمالي الغربي ، جعل الخليج العربي طريقا مائيا للسلع التجارية بين الشرق والغرب . كما ان الخليج كان ملتقى طرق القوافل البرية القادمة من الصين ومن منطقة ما وراء النهر وايضا ملتقى طرق القوافل القادمة من جنوب الجزيرة العربية[٤] .

وقد فرض موقع الخليج بين الاقليم المدارى «شرق افريقيا وشبه القارة الهندية» في الجنوب ، وبين الاقليم المعتدل في الشمال «دول حوض البحر المتوسط» ، وهذان الاقليمان يختلفان من حيث المناخ ، ويختلفان من حيث الانتاج النباتي والزراعي ، ثم طلب دول البحر المتوسط لانتاج الاقليم المداري من التوابل والمر والبخور وغيرها ـ فرض ـ على سكان الخليج العربي ، ان يقوموا بالوساطة التجارية بين الاقليمين السابقين

وبمعنى اخر العمل كوسطاء للملاحة بين الشرق والغرب[٥] .

وبالاضافة الى ذلك ، يتميز الخليج العربي باهمية استراتيجية بالغة الاهمية فبحكم موقعه في قلب العالم القديم ، اصبح من اليسير على من يتمكن من السيطرة عليه ، أن يسيطر بالتالي على جنوب غرب اسيا وشبه القارة الهندية[٦] وقد فطنت شركة الهند الشرقية البريطانية لاهمية موقع الخليج [٧] ، ولم يأت القرن التاسع عشر ، حتى كانت انجلترا تفرض هيمنتها العسكرية عليه ، والسيطرة على كل مقدراته ، لتأمين طرق تجارتها مع الهند ، وحماية مصالحها في الشرق[٨] .

الأدوار التي مرت بها سياسة محمد على الخارجية :

يستحسن قبل ان ندخل في جوهر الدراسة ، ان نلقى نظرة سريعة ، على سياسة محمد على الخارجية ، لنقف على خطوطها العامة ، وحتى نتمكن من معرفة ما اذا كانت له تطلعات تجاه الخليج العربي من عدمه ، وبمعنى اخر ، هل كان الخليج ضمن خططه السياسية ، ام ان التطلع اليه كان وليد الظروف التي ساقته الى تلك الجهات .

في الوقت الذي تولى فيه محمد علي باشا حكم مصر في عام ١٨٠٥ م كان الموحدون ، يزيدون من توسعاتهم في شبه الجزيرة العربية ، وكانت الدعوة التى رفعوا شعارها وهي الدعوة الوهابية - التوحيدية - التي تطالب بتنقية التعاليم والمفاهيم الاسلامية من الشوائب التي علقت بها ، والعودة بالاسلام الى بساطته الاولى ، كانت قد ازدادت قوة وانتشارا ، فقد تخطت توسعات الموحدين ، حدود نجد ، واطلت على الخليج العربي ، ووصلت الى جنوب العراق ، وبسطت نفوذها على الحجاز ، ورنت بأبصارها الى الشام[٩] .

وكانت حركة الموحدين ، ضربة وجهت الى مكانة الدولة العثمانية وهيبتها ، خاصة في البلاد الاسلامية ، التي كانت تدين لها روحيا ، ولا تتبع لها سياسيا .

ومما زاد من تحرج الموقف ، اعلان الموحدين زوال السيادة العثمانية عن الحرمين الشريفين ، ومنع الامير «سعود بن عبدالعزيز» قوافل الحج من الشام ومصر والعراق ، من الوصول الى الحجاز لاداء فريضة الحج ، وكان هذا الاجراء ، له من الخطورة بمكان ، فقد ترتب عليه ان تشكك المسلمون في مقدرة السلطان العثماني - خادم هذين الحرمين على تأمين الطرق المؤدية الى الاماكن المقدسة .

وبعد ان فشل كل من ولاة بغداد ودمشق في الوقوف في وجه الموحدين او

محاربة الدعوة الجديدة ، ولما كانت دولة الخلافة العثمانية يهمها الى حد بعيد ، الاحتفاظ بسيادتها على الحجاز ، حيث وجود الحرمين الشريفين في مكة والمدينة ، حتى تظل مكانتها الروحية قائمة في العالم الاسلامي [١٠] ، تطلبت منها الضرورة ، ان تتطلع الى والي مصر ، رغم ما تحمله من مرارة وكراهية ضده ، فهي لم تنس ان مجيئه الى الحكم ، كان رغما عنها بسبب قوة الارادة الشعبية في مصر ، التي جاءت به الى كرسي الولاية ، واضطرت الدولة ان توافق على التعيين ، وحفاظا على مكانتها ، قالت ان التعيين تم بناء على رغبة الرعية وتمسكها به[١١] .

فأرسلت الدولة اليه اوامر التكليف منذ عام ١٨٠٧ بالتوجه الى بلاد العرب ، للقضاء على قوة الموحدين ، واعادة مكة والمدينة الى حكم السلطان[١٢] ، الذي يعتبر الرمز الاكبر لمعظم العالم الاسلامي .

ويبدو ان السلطان العثماني تغاضى عن الخلافات التي كانت بين الدولة وبين محمد على وذلك لهدفين هما :

١ ـ القضاء على حركة الموحدين واعادة سلطانه على بلاد العرب .

٢ ـ من الممكن اضعاف قوة محمد على الصاعدة عن طريق خوضه المعارك مع الموحدين .

وعلى ضوء ذلك ، يتضح لنا ، أن مهمة محمد على ، كانت فتح بلاد العرب للدولة العثمانية من جديد ولحسابها ، بل وكان بقاؤه هو شخصيا على ولاية مصر متوقفا الى حد كبير على نجاحه في هذه المهمة .

ورغم الاعتذارات التي كان يسوقها للباب العالي ، والتي تتضمن عدم قدرته المالية ، او تخوفه من والي الشام «سليمان باشا» او خوفه من تطلع الدول الاوروبية الى مصر [١٣] وكان اقربها الى ذهنه ، حملة فريزر الانجليزية الفاشلة والتي تم اجلاؤها عن الاسكندرية في ١٩ سبتمبر ١٨٠٧[١٤] . وغير ذلك من الامور التي كانت في نظره ، تستوجب عدم الاندفاع ومحاربة الموحدين . الا انه ، بسبب الضغوط عليه من جانب الدولة العثمانية ، استجاب في نهاية الامر ، وسير حملة بقيادة ابنه «طوسون» عن طريق السويس الى الحجاز في اغسطس ١٨١١ ، لتنفيذ هذه المهمة التي القيت على عاتقه[١٥] .

والواقع أنه بجانب الاعتذارات التي ساقها محمد على الى الباب العالي ، كانت هناك عوامل اساسية ، لم يستطع الكشف عنها للسلطان العثماني ، ولعل اهمها ما يلي :

١ ـ كانت سلطته في مصر حتى ذلك الوقت لا تزال مزعزعة الاركان ، لان اختياره واليا على البلاد ، كان ـ كما ذكرنا ـ على غير رغبة الباب العالي ،

ومن ثم كان اولياء الامور في الاستانة ، يتحينون الفرص للتخلص منه .

٢ ـ كان المماليك لا يزالون يتربصون للاطاحة به ، حتي يستعيدوا نفوذهم وسيطرتهم التي كانت لهم قبل قدوم الحملة الفرنسية على مصر والشام[١٦] .

٣ ـ حدوث توترات بينه ـ اي محمد على ـ والزعامات الدينية والشعبية في مصر .

٤ ـ ان الموقف في اوروبا والصراع بين فرنسا وانجلترا ـ خاصة ـ كان ينعكس على المشرق الاسلامي ، وخاصة مصر بالذات وواليها الجديد من جانب ، ومن بقايا المماليك من جانب اخر ومن الدولة العثمانية نفسها من جانب ثالث .

فقد تحسب محمد على لكل هذه العوامل ووضعها في عين الاعتبار ومن ثم كان يقدم الاعتذارات للباب العالي ، حتى لا يؤخذ هو على غرة .

فلما تمكن من التخلص من اعدائه في الداخل ، سواء من الزعامات الدينية او الشعبية او من المماليك[١٧] . بجانب ملاحقة الباب العالي لتجريد الحملة العسكرية الى بلاد العرب ، رأى أن يعمل على كسب ود السلطان ووجد انه ليس من المستساغ ان يقدم اعتذارا يحمل اي معنى للرفض ، لأنه اخذ في اطار سياسته العامة ، يتجه الى تحقيق فكرته الرامية الى تكوين دولة حديثة .

ويبدو ان محمد على ، ادرك حقيقة الوضع السياسي لمصر ، عقب الحملة الفرنسية ، ومدى تأثرها بتيارات السياسة الاوروبية ، وانعكاس الصراع بين الدول الاوروبية ، ليس على مصر فقط ، بل على العالم العربي كله ، ولعله تيقن ببعد نظره ، وهو الرجل الداهية ، ان حالة الدولة العثمانية ، من الضعف ، بحيث لا يمكنها الاحتفاظ بأملاكها طويلا . اذا لم تفعل شيئا يجدد من حيويتها ويعيد لها قوتها ، فقد تغيرت الظروف الدولية ، ولم يعد القرن التاسع عشر ، على غرار القرن السادس عشر ، الذي كانت فيه الدول الاوروبية نفسها تعمل الف حساب للدولة العثمانية ، فقد رأى محمد على ان تلك الدول بما فيها روسيا القيصرية ، لابد ان تعمل على تمزيق املاك دولة الخلافة العثمانية ، التي كان من ضمنها بطبيعة الحال ، معظم العالم العربي[١٨] .

لذلك اخذ محمد على ، ينشط ، ليستفيد من مصر بالذات ، ربما لثقلها الحضاري وبعدها التاريخي ، وكثافتها السكانية ، ومواردها الاقتصادية وان يكون منها دولة حديثة قوية ، عسكريا واقتصاديا ، ليتمكن بها من مقاومة اي غزو من الخارج ، وحماية او فتح اقاليم جديدة في اسيا وافريقيا .

وكان يهدف من وراء ذلك وهو بهذه القــوة ، ان يقف في وجــه الضغــط الاستعمــاري الاوروبي الذي صــار يــزحف على العــالم الاسلامي ، لكن يجب ان نقول منذ البداية ان محمد على ، لم يكن يتطلب منه هذا العمـل بـالضـرورة ، ان يقضي عــلى الدولة العثمــانيــة نفسهــا ، ويتـولى هــو السلطة ، اذ كان يمكن ان يبقى على الاسرة الحاكمة العثمانية ، خاصــة وان الخليفــة ـ الرمز الاكبـر لمعـظم العــالم الاســلامي ـ من ابنــاء تلك الاسرة ـ ويوجه سياستها بالطريقــة التي تؤدي الى تجديد شبابها وقوتها ، كما ان ذلك لم يكن يتعارض مع امله ـ اي محمد على ـ في الحصول على نوع من الاستقلال ، داخل نطاق الدولة ، يشبه ذلك الذي تتمتع به ولايات شمال افريقيا[19] .

وعلى ضوء ذلك ، نستطيع القــول ان سياسة محمد على الخارجية مرت بثلاثة ادوار هي :

الدور الاول :

ويمتــد من عــام ١٨٠٥ م حتــى موقعة نوارين في عام ١٨٢٧ ، وفيــه انصرفت جهود محمد على لاستمـالة السلطان العثماني ، صاحب السيادة الشرعية على مصر ، وظل يظهر له كل انــواع الخضــوع ، ويستجيب لكـل مطالبه من امــوال وغلال واخضــاع الاقــاليم الثائـرة . وكان محمــد على يهدف في هذا الدور الى ان يثبت مركزه في مصر ، والمحافظة على استقراره ، حتى يتمكن من اعادة بناء مصر على اسس حديثة ومحــاولة ان يزيــد من رقعتهــا عــلى حســاب امــلاك الدولة نفسها ولكن في اطارها .

ويلاحظ ان السلطان العثمــاني ، رغم انه كان يحبذ انتصارات محمد على في الاقاليم المتمردة على الدولة ، الا انه في قرارة نفسه لم يكن مرتاحا من تصاعد قوة ذلك الوالي ، وظهوره بمـظهر الفــارس الاسلامي ، في ظل وجود الخلافة في بنى عثمان ، خشية ان يحدث منه مالا تحمد عقباه ، لذلك سنـرى ان العلاقــات بـين الطرفــين سرعان ما تتخذ طريقــا اخر ، وهــو الخــلاف ، وتنتهي الى المــواجهــة المباشرة في الدور الثاني .

الدور الثاني :

ويمتد من ١٨٢٨ الى ١٨٤٠ ، وفيه يحدث النزاع مع السلطان العثماني ، وتدور حروب بين الطرفين على ارض الشام ، ويشتط محمد على بالتفكير ، كلما اشتدت به المضايقات من جانب الاستانة وتســد الابواب في وجهــه ، لايجاد الحلول التي كان يتطلع اليها ، الى الانفصال عن الدولة العثمانيــة ، وتأسيس دولة حديثة ، من مصر وما يمكن ان يضــم اليهــا مــن البــلاد العــربية ، الامــر الذي كان يــزعــج السلطان ويقلقه الى حد كبير ، ومن ثم كان يتمسك بسيادته الشــرعية عــلى مصر ويعمل على تأكيدها ، فيبدو ان

انسلاخ الولايات الاوروبية عن الدولة العثمانية ، جعلها اكثر تشبثا بما بقى لها من الولايات الاسلامية ، خاصة مصر ، فكان السلطان يدرك جيدا ، ان ضياع مصر الناهضة القوية، منه سوف يجعلها - أي مصر - تتطلع الى جاراتها العربيات ، في وقت ضعفت فيه دولة الخلافة ، واتجهت الاطماع الاوروبية الى املاكها[٢٠] الامر الذي ترتب عليه ، ان تكتلت الدول الاوروبية ، وعلى رأسها انجلترا ، للقضاء على قوة مصر الاسلامية الصاعدة ، تحت ستار المحافظة على كيان الدولة العثمانية ، ومن ثم وجهت الى محمد على ضربة كسرت عموده الفقري ، ممثلة في معاهدة لندن (١٨٤٠) وانتهى الامر بان سحب محمد على قواته من الشام وشبه الجزيرة العربية ، وابقاء مصر ولاية في اطار الدولة العثمانية ، وسريان المعاهدات والاتفاقات المبرمة بين الباب العالي وتلك الدول في مصر ، وكان من بينها معاهدات الامتيازات الاجنبية والمعاهدة التجارية «معاهدة بالطة ليمان» التي كانت تهدف للقضاء على سياسة الاحتكار التي اتبعها محمد على في مصر والسودان وسوريا واليمن[٢١] .

الدور الثالث :

ويمتد من ١٨٤١ الى ١٨٤٨ وفيه عاش محمد على مجروحا منهوك القوى ، بعد ان تبددت احلامه ، واقتصر نشاطه السياسي على مصر والسودان[٢٢]

وصول محمد على الى شرق الجزيرة العربية واطلاله على مياه الخليج العربي :

ذكرنا انه ترتب على حركة توسع الموحدين في شبه الجزيرة العربية ، والتطلع الى الشام والعراق ، ان دب الخوف لدى حكومة السلطان العثماني ، وبعد ان فشل كل من ولاة العراق والشام ، في صد خطر حركة الموحدين ، طلبت الدولة العثمانية من واليها في مصر «محمد علي» ان يوجه جيشا للقضاء على هذه الحركة واعادة الحرمين الشريفين في مكة والمدينة الى سلطة الدولة[٢٣] .

حدث ذلك في فترة كانت تتواكب مع الدور الاول من سياسة محمد على الخارجية التي تتسم بالطاعة والولاء الكامل للسلطان العثماني ، فوجه قواته الى بلاد العرب بقيادة ابنه «طوسون» . وحين لاحظ محمد على ، ان تلك القوات - رغم انتصاراتها على الموحدين - لم تحقق الهدف كاملا ، والذي يتلخص في ان يدفع الامام «سعود بن عبدالعزيز آل سعود» كل تكاليف الحملة العسكرية على الحجاز ، واعادة ما كان الموحدون قد اخذوه من الحجرة النبوية الشريفة ، بل وان يذهب الامام بنفسه الى

القاهرة لمعالجة القضية مع حاكمها[٢٤] الامر الذي جعل الامير سعود ، يعتبر ان هذه الشروط اهانة له ، فأخذته حميته العربية ، وصمم على رفضها ، واعلن استعداده لمواصلة الحرب . فاضطر محمد على والحالة هذه ، ان يعد نفسه للذهاب شخصيا لاخضاع قوة الموحدين[٢٥] .

ويبدو ان هناك عوامل دفعت محمد على للمخاطرة والذهاب بشخصه الى بلاد العرب ، لعل منها ما يلي :

١ ـ ان يثبت للباب العالي انه جدير بالتكليف من قبل الدولة .

٢ ـ عدم انهيار سمعته وقوته ، كما حدث لغيره من ولاة العراق والشام .

٣ ـ المحافظة على اسمه الذي صار يتردد في العالم الاسلامي ، بانه يحارب لتأمين طرق الحج ، بعد ان توقف قدومه من بعض الجهات كمصر والشام والعراق ، وكذلك حماية المقدسات الاسلامية في الحجاز[٢٦] .

٤ ـ ان مصر جديرة بان تنال من الامتيازات ، كما هو الحال بالنسبة لولاية الجزائر في شمال افريقيا[٢٧] .

وقبل ان يرحل الى بلاد العرب ، ارسل الى رؤساء الجند ، يطلب منهم الصمود والمداومة على الصلاة ، حيث قال « .. كونوا يدا واحدة ، وصلوا اوقاتكم الخمس ، فمكانكم مكان اصلاح واستغفار ، ينصركم الله ويثبت أقدامكم»[٢٨] .

وفي ٢٥ اغسطس ١٨١٣ تحرك ـ اي محمد على ـ من السويس الى جده ، بعد ان اناب عنه ولديه اسماعيل وابراهيم في ادارة شئون البلاد[٢٩] .

هذا وقد دارت في البداية احتكاكات بين محمد على والموحدين ، كان النصر فيها للموحدين ، الا ان الحظ خدم محمد على ، بوفاة الامام سعود بن عبدالعزيز في ابريل ١٨١٤ ، وبوفاته فقد الموحدون ، اعظم مساعد واكبر بطل ، بلغت في عهده الدولة السعودية الاولى ، شأوا بعيدا لم تبلغه من قبل .

لكن شاءت الظروف ان لا يستمر محمد على كثيرا في بلاد العرب ، فقد جرت حوادث في تلك الفترة ، اضطرته ان يعود الى مصر منها :

١ ـ علمه بهروب نابليون بونابرت من منفاه في جزيرة «البا» ودخوله باريس في ٢٠ مارس ١٨١٥ ، وهروب الملك لويس الثامن عشر الى الحدود البلجيكية[٣٠] فخشى محمد على ـ ان تصبح مصر هدفا لحملة فرنسية جديدة ، لانه كان يدرك ان الصراع في اوروبا ينعكس على مصر بطريق مباشر او غير مباشر .

٢ ـ شكوكه في مسألة انعام السلطان العثماني بالباشوية على احد المماليك في مصر ، وكان يدعى «لطيف باشا» ولم يسبق للسلطان ان انعم بها على احد بعد تولية محمد على الحكم غير

اولاده[٣١] .

على اية حال عاد محمد على الى مصر عن طريق قنا ووصل الى الجيزة في ٢٣ يونيو ١٨١٥ ، واستمر طوسون في مباشرة العمليات الحربية التي كانت تتقدم تجاه الدرعية ـ عاصمة الموحدين ـ ولكنه توقف بسبب نقص المؤن والذخائر ، وقبل المفاوضة مع الامير «عبدالله بن سعود» ، وعقدت شروط الصلح في يونيو من ذات العام[٣٢] ، وقفل طوسون عائدا الى مصر ، حيث توفي بالاسكندرية .

وسرعان ما رفض الامير عبدالله بن سعود الشروط التي فرضها عليه محمد على الامر الذي ترتب عليه ان استعد الطرفان لاستئناف القتال[٣٣] .

وقد اختار محمد على لقيادة الجيش في هذه المرة ابنه «ابراهيم باشا[٣٤]» الذي تمكن من الوصول الى الدرعية ، وضرب الحصار حولها في السادس من ابرايل ١٨١٨ ، فاضطر الامير عبدالله بن سعود ، ان يستسلم للامر الواقع ، بعد ان دافع عن عاصمة الموحدين دفاعا بطوليا مستميتا ، وتسلم ابراهيم باشا العاصمة في ٩ سبتمبر ١٨١٨ ، وبهذا تكون الدولة السعودية الاولى قد سقطت لحساب الدولة العثمانية ، واطلت القوات المصرية على مياه الخليج العربي ، بعد أن سيطرت تلك القوات على الاحساء والقطيف[٣٥] .

وهنا توقفت فتوحات محمد على ، بل وصدرت الاوامر الى ابراهيم باشا بالانسحاب من شرق الجزيرة العربية[٣٦] ، والعودة الى مصر ، التي وصلها في ديسمبر ١٨١٩ ، وكان قد بدأ بتنفيذ السياسة الجديدة التي رسمها والده لحكم البلاد ، فعين ابن اخته «احمد يكن باشا» محافظا على مكة ، وحاكما على الحجاز ، واليه يرجع جميع المسئولين الاخرين في شئونهم[٣٧] .

العوامل التي ادت الى الانسحاب من شرق الجزيرة العربية ١٨١٩

لعل هناك من يتساءل لماذا توقفت قوات محمد على ، بعد ان اطلت على مياه الخليج ، فهل كانت هناك خطة مسبقة في القاهرة ، سار ابراهيم على هديها ، أم هناك ظروفا دعته للانسحاب ، خاصة بعد ان سيطرت قواته على الاحساء والقطيف ، رغم الاهمية الاستراتيجية والاقتصادية التي تتميز بها تلك الجهات .

في الواقع قبل ان نناقش هذه القضية ، يستحسن ان نعرف كيف تمت السيطرة على الاحساء والقطيف اولا ، وهل كان ذلك من العوامل التي ادت الى الانسحاب .

تشير الوثائق الرسمية ، الى ان فتح الاحساء والقطيف ، واعادتهما لسيادة الدولة العثمانية ، كان في ذهن



ابراهيم باشا ، قبل ان تسقط الدرعية نفسها ، وذلك لاسباب منها .

١ ـ اهمية هذه البلاد لاطلالها على الساحل الغربي للخليج ، مما يكسبها ميزة استراتيجية خطيرة . فضلا عن مواردها الاقتصادية من زراعة وغوص ، وتعاملها التجاري الواسع مع بلدان الخليج وغيرها .

٢ ـ ما يمكن ان تقدمه من مساعدات للقوات المصرية .

٣ ـ تشجيع «الخوالد» حكام الاحساء السابقين ، لابراهيم باشا ، على فتح تلك البلاد ، على ان يكونوا وكلاء عن محمد على في حكمها[٣٨] .

٤ ـ كان ابراهيم باشا ، قد تلقى رسالة من والده ، تشير الى ان السلطان العثماني ، كلفه باعادة فتح القصيم ، وما حولها وميناء القطيف والاحساء ، وادخال تلك الجهات في طاعة السلطان[٣٩] .

ولما كان ابراهيم باشا مشغولا في تلك الفترة بحصار الدرعية ، رد على والده بانه «بعد فتح الدرعية بتوفيق الله تعالى ، يكون ضبط الحسا وميناء القطيف ، وانتزاعهما من يد الخوارج ، من المسائل الطبيعية ، كما انه سيحصل العلم بالتمام ، بكل امر من امور الاقاليم ، وبخصوص وضع البلد في الحالة الموجبة للضبط والربط ، سيفاد طرف ذاتكم الولية النعم بالتفصيل عما ترغبونه دولتكم ، من أوجه النظام ، وذلك على الوجه الذي اكون وقفت عليه ، بعد انهاء مسألة الدرعية(٤٠) » .

٥ ـ كانت عمليات الفتح في حد ذاتها ، مسألة عادية ، لأنه لم تكن هناك نقطة محددة تتوقف عندها .

لذلك بعد ان سقطت الدرعية ، كان الموقف عاديا ومهيأ ، ان ينظر ابراهيم باشا الى تلك البلاد ، فأمد محمد وماجد ، ولدي «عريعر بن دجين» من زعماء الخوالد ، بقوة عسكرية ، لطرد «فهد بن عفيصان» عامل الموحدين من الاحساء .

وحين علم ابن عفيصان بهذه الاخبار ، فر هاربا الى البحرين ، وبعد ان تم الاستيلاء على الاحساء ، توجه الاخوان «محمد وماجد» الى القطيف وفرضا الحصار عليها من ناحية البر ، بينما انصبت نيران مدفعية اسطول «ارحمة بن جابر الجلاهمة» عليها من ناحية البحر ، وانتهى الامر ، بأن رفعت المدينة راية الاستسلام باسم القوات المصرية ، وسيطر الخوالد على اقليم الاحساء في اطار الادارة المصرية(٤١) ، ومن ناحية اخرى تمكن «ارحمة بن جابر» من اعادة بناء قلعته السابقة في الدمام ، بعد ان وافق له ابراهيم باشا على ذلك(٤٢) .

وهكذا بينما كانت قوات ابراهيم باشا مستمرة في اداء مهامها ، وصلت الاوامر من القاهرة ، تطلب اليه الانسحاب من شرق الجزيرة العربية(٤٣) وبالتالي اسندت ادارة الاحساء الى الخوالد من قبل الدولة العثمانية ، على ان تتبع والى العراق من النواحي الادارية(٤٤) .

وهنا تتضارب اراء المؤرخين حول دوافع الانسحاب المفاجىء ، فمنهم من يرى انه كان بضغط من الباب العالي ، على حاكم مصر ، ويبررون ذلك ، بان الادارة المصرية في الاحساء ، ارتكبت بعض الاخطاء ، فقد ارسل ابراهيم باشا ، محمد بك كاشف ومعه مائتان واربعون شخصا ، وامرهم بالاستيلاء على ما في بيت المال ، وما كان لآل سعود من اموال وسلاح وخيل ، وقد نفذوا ذلك الامر ، وزيادة على ذلك استولوا على اموال كل شخص كانت له علاقة مع الموحدين ، وقتلوا قاضي الاحساء «الشيخ عبدالرحمن بن نافع» وجميع

هيئة الوعظ والارشاد التابعة للموحدين[٤٥] الامر الذي جعل الخوالد ، يهرعون الى «داود باشا» حاكم العراق[٤٦] حتى لا تلصق بهم تهمة تلك الاخطاء ، فاستثمر والي العراق هذه المسألة ، واخذ يستثير الباب العالي ، على ان تعود الاحساء ، تحت اشرافه ، كما كانت قبل ان يستولى الموحدون عليها ، وكان في الوقت نفسه ، يقدر خطورة قوات محمد على ومدى قوتها ، وهي تلك التي اخضعت الدولة السعودية الاولى ، ولعله تصور - اي والي العراق - انه اذا تركت تلك القوات تواصل نشاطها في شرق الجزيرة العربية ، فانه لابد ان تتطلع الى العراق وتهدد حكمه .

والواقع ان داود باشا كان يعاني في تلك الفترة من تهديدات داخلية ، حيث اخذت القوى العربية ، منذ اواخر عام ١٨١٨ ، في التجمع والعمل ضده ، مستغلة فرصة الاضطرابات الكردية ، للتخلص من الحكام المماليك في العراق ، وقامت بالتعرض للسفن المارة بين بغداد والبصرة ، بهدف اضعاف قدرات هؤلاء الحكام ، وفقد ثقة الجماهير بهم ، والعمل على عزلهم من حكم العراق . وسرعان ما اتسع نطاق هذه الحركة العربية ، وشمل نشاطها وسط وجنوب العراق وامتدت الى منطقة الجزيرة بمساعدة الجنود الاكراد ، ومما زاد الطين بله ، رواج اشاعات ، مفادها ان حاكم «كرمانشاه» الميرزا محمد على يتحرك في الحدود العراقية وكان معتمد الدولة الفارسي قد ارسل كتابا الى داود باشا يتضمن ان ولاة بغداد السابقين ، كانوا يبعثون برسائل تهنئة وتبريك الى الشاه ، او وكلائه ، بمناسبة حلول الاعياد ، او عند وصول الفتوحات ، مع القيام بمراسم الصداقة والمودة ، في حين امتنع داود باشا عن اتخاذ هذه الاجراءات منذ توليه مقاليد الامور ، مما اثار استياء حكومة الشاه . وبمناسبة نية الشاه زيارة «السلطانية» القريبة من حدود «شهر زود» . ولتلافي ما سبق ، حبذ معتمد الدولة ، ان يقوم حاكم بغداد باجراء المراسم المعتادة ! وهدده باوخم العواقب في حالة الامتناع عن ذلك .

فأسرع داود باشا وافاد الباب العالي بمضمون هذه الرسالة ، فأدرك الاخير ، ان الفرس ينوون الهجوم على العراق ، لذا صدرت الاوامر الى والي الموصل ووالي حلب بالاستعداد ، والى ولاة ادرنه ومرعش وسيواس بالتهيؤ ورفع حالة الطوارىء ، تحسبا لما يسفر عنه الغد بالنسبة للعراق .

ويبدو ان داود باشا ارتاب في هذه الاستعدادات الواسعة وخشى ان تؤدي الى زوال حكمه ، ولذلك فضل اعطاء تنازلات للفرس ، وقدم لهم ما

طلبوه من ضمانات ، ثم اسرع باعلام الباب العالي ، بانتهاء الازمة وزوال الاسباب الموجبة للاجراءات الاستثنائية ، مشيرا بصورة غير مباشرة الى عدم حاجته للنجدات العسكرية من الايالات العثمانية المجاورة[٤٧] .

وعلى ذلك بعد ان خلص من تلك الازمة ، تطلبت منه مصلحته ان يبعد الوجود المصري من شرق الجزيرة العربية ، الذي تم في اواخر يوليو ١٨١٩ . والواقع انه رغم اهمية رأى هؤلاء المؤرخين ، الا اننا نرى ان مسألة الانسحاب تحتاج الى وقفه ، لما لها من اهمية في سياسة محمد علي الخارجية ، ولانها تدخل في نطاق المرحلة الاولى من مراحل تطلعاته في «الخليج العربي» .

فقد ذكرنا ، ان الدور الاول من سياسة محمد علي الخارجية ، التي اتسمت بالولاء الكامل والخضوع الكلي للسلطان العثماني ، امتدت حتى عام ١٨٢٧ وقد واجهته في هذه الفترة بالذات ، مشاكل ، تعد اخطر من قضية الموحدين ، بالنسبة لمركزه الشخصي ، ونعتقد انه لولا ضغوط الدولة العثمانية عليه للذهاب الى شبه جزيرة العرب ، لكان قد حصر كل نشاطه واهتمامه بتلك المشاكل التي كانت موجهة اليه اساسا ، وليتفرغ لاعادة بناء مصر على اسس واساليب حديثه .

فبجانب اعدائه من الداخل - رجال الدين والزعامات الشعبية - كان بعض الامراء من المماليك قد لجأوا الى السودان[٤٨] ، وكونوا لهم ما يشبه الامارة في «دنقلة» ورحل جماعة منهم الى كردفان وسنار ، وصاروا يكونون الجنود من السود ، ويقطعون طرق القوافل مع مصر ، ومن ثم اصبحوا والحالة هذه ، مصدر قلق وتهديد ضد محمد علي نفسه[٤٩] .

ومن ناحية اخرى كان محمد علي يرقب تحركات هؤلاء المماليك في السودان ، وتطلعهم الى الامير «سعود بن عبدالعزيز» ، ولعلهم كانوا يريدون عقد محالفة معه ضد محمد علي ، كما لا نستبعد ان يكون محمد علي ، أخذ احتياطاته من ان يتعاون المماليك مع الحبشة ، وقيام دولة مملوكية تسيطر على حوض النيل الاوسط ، وتطل على ساحل البحر الاحمر ، وتؤسس في هذه المناطق زعامات تخضع بصورة او اخرى لسيادة المماليك ، اذا اخذنا في الاعتبار ان الانجليز الذين كانوا يحقدون على محمد علي ، كانوا يرتبطون بصداقة مع المماليك وعلى علاقات طيبة في تلك الفترة مع الاحباش[٥٠] .

ومن ناحية ثالثة ، كما تشير الوثائق الرسمية ، فإن محمد علي ، كان في هذه الفترة المبكرة من حكمه ،

يخطط لتكوين دولة حديثة قوية ذات منعه[٥١] وأن ينهض بالبلاد في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية واقامة نظام شبيه بنظام الحكومات الاوروبية الحديثة[٥٢] . مما جعل البعض يردد منذ البداية ، ان محمد على كانت تسول له نفسه توسيع رقعة مصر بالاستيلاء على املاك الدولة العثمانية نفسها[٥٣] .

وكانت حروب محمد علي في جزيرة العرب ، تجربة ، أوضحت له ما يلي :

١ ـ ضرورة تطبيق النظم الحديثة على جيشه ، فرغم ان قواته كانت حتى ذلك الوقت ، تتكون من خليط من الباشبوزق «المرتزقة» وحققت انتصارات في كثير من المعارك[٥٤] الا انه لم يسلم من رفعها راية التمرد والعصيان ضد القادة من حين لآخر ، فأخذ يقارن وهو نفسه من الجنود الالبان ، بين جيشه غير النظامي ، وبين قوات الحملة الفرنسية على مصر ، وقوات حملة فريزر الانجليزية على الاسكندرية في عام ١٨٠٧ ، وهنا لاحظ التفاوت الكبير بين جيشه ، والجيوش النظامية الاوروبية .

فبعد عودته من شبه جزيرة العرب في يونيو ١٨١٥[٥٥] بدأ مباشرة في محاولة تنظيم الجيش في اغسطس من ذات العام ، وتدريب الجند على الاساليب الاوروبية ، وكان هؤلاء الجنود لا يرغبون في النظام الاوروبي ، ربما لاسباب دينية ، فعارضوا ذلك ، اشد المعارضة ، وقامت ثورة في القاهرة ، وتآمر الجند على الفتك بمحمد علي نفسه ، لانه لم يكن في نظرهم سوى جندي الباني ، ولم يتميز عنهم الا برتبته العسكرية ، فكانوا يرون ان الجميع في خدمة خليفة المسلمين ، السلطان العثماني ، فنهبوا الاسواق واضطروه الى الاعتصام منهم بالقلعة ، وقد قتل في تلك الفتنة كل منظمي الجيش ، الا ان محمد على بذكائه ودهائه ، تمكن من اخضاع الجند الثائرين ، وأظهر لهم توقفه عن المشروع ومن ثم زال الخطر[٥٦] .

ولكن لما كانت خطته ـ محمد على ـ تكوين دولة حديثة ، ورسم لها برنامجا يتكون من نهضة داخلية شاملة ، وقوة عسكرية في البر والبحر للدفاع عن البلاد وتنفيذ سياسته الخارجية[٥٧] كان عليه والحالة هذه ان يكون جيشا نظاميا ، مهما كانت الظروف[٥٨] .

فدبر خطة لتنفيذ المشروع ، وذلك بابعاد الجند الالبانيين من القاهرة تدريجيا الى بلاد العرب والى جنوب مصر والى المعسكرات الاخرى في الاقاليم المصرية ، وكان قد حصل على خدمات عدد من الضباط الاوروبيين لتدريب القوات العسكرية الجديدة ،

وقام احد ضباط جيش نابليون بونابرت المدعو «سيف» والذي اشهر اسلامه فيما بعد، وتسمى باسم «سليمان الفرنساوى» بادارة مدرسة المشاة العسكرية التي تأسست في عام ١٨٢٠ في اسوان، لتكون على مقربة من بلاد النوبة وبعيدة عن القاهرة[٥٩].

٢ ـ كانت المشكلة لتكوين الجيش النظامي، تتمثل في توفير الرجال الصالحين للجنديه، فرأى محمد على، انه اذا اقبل على تجنيد الفلاحين المصريين، فان ذلك يؤثر على فلاحة الارض وزراعتها، وهو في اشد الحاجة الى استثمارها، ومضاعفة الانتاج لاشباع الاستهلاك المحلي، وامداد الدولة العثمانية، بما تحتاجه من غلال واموال، فهداه تفكيره الى ان ينظر الى السودان، حيث كثرة الرجال الذين يصلحون للجندية[٦٠]

وكانت ظروف السودان الداخلية وقتذاك، تختلف كلية عن ظروف شبه الجزيرة العربية، حيث لا توجد به حركة تعمل على توحيده، كما هو الحال في تلك الجزيرة[٦١].

لذلك بعد أن سقطت الدرعية، وانتشرت القوات المصرية في الاحساء والقطيف، فضلا عن كل الاعتبارات السابقة، كانت فكرة فتح السودان، قد اختمرت في ذهن محمد على، ووصلت الى مرحلة تستوجب سرعة التنفيذ.

وعلى ضوء ما سبق، نرى ان انسحاب القوات المصرية من شرق الجزيرة العربية، جاء في وقت مناسب جدا، لمشروع فتح السودان، وتجنيد السودانيين في الجيش النظامي، والابقاء على الفلاح المصري ليعمل في المشروعات التنموية والتعمير.

أما مسألة الانسحاب في حد ذاته، فلا نستبعد ـ كما ذكرنا ـ ان تكون حكومة السلطان العثماني وراءها، اذا أخذنا في الاعتبار، أن القوات المصرية أدت مهمتها في بلاد العرب، ومن ثم رأت تلك الحكومة، ان لا تترك الحبل على الغارب لحاكم مصر، حتى لا تسول له نفسه الجنوح للانفصال، مع ضرورة المحافظة على ولائه للسلطان، للاستفادة من قوة مصر الناهضة، فقد عين السلطان «محمود الثاني» في يوليو ١٨١٩، ابراهيم باشا بن محمد على، على «جده» مكافأة له على الخدمات التي اداها للدولة العثمانية في بلاد العرب[٦٢].

ومن ناحية اخرى، لم يكن في مقدور محمد على في تلك الفترة بالذات، ان تستمر قواته في البقاء بشرق الجزيرة العربية لأسباب لعل منها:

١ ـ عدم وجود الاحتياطي الكافي من الجنود للاقامة في مناطق شاسعة مثل

شبه جزيرة العرب ، خاصة في اجزائها الشرقية المطلة على الخليج ، لبعدها عن مركز قوته وادارته في مصر ، لذلك نراه لم يترك حامية تذكر في تلك الجهات ، حين انسحب ابراهيم باشا منها .

٢ ـ ادراكه للوجود البريطاني في الخليج ، الذي صار يتزايد ، ويتحول من علاقات تجارية الى علاقات سياسية ، وعلاقة هذا الوجود ، ببعض القوى المحلية ، التي كانت في قرارة نفسها ، لا ترتاح للوجود المصري بان يظل قائما في شرق الجزيرة .

٣ ـ حتى ذلك الوقت ، لم تكن قد نضجت في ذهن محمد على ، فكرة توسيع الدولة الحديثة ، على حساب الدولة العثمانية في الجناح الاسيوي ، والدليل على ذلك انه رفض العرض الذي تقدم به سلطان مسقط ، لاقامة تحالف بين الطرفين ، حين علم هذا السلطان بتقدم القوات المصرية الى نجد ، واكتفى ـ اي محمد على ـ باستئجار ٢٠ سفينة من مسقط لمساعدة قوات طوسون باشا في نقل المؤن والامدادات[٦٣] .

٤ ـ فضل محمد على ان يركز نشاطه في البحر الاحمر والجناح الافريقي ، لتحقيق هدفين هما :

ا ـ التوسع في السودان والعمل على توحيده وادماجه في دولته الجديدة ، وادخال النظم الحديثة اليه ، والاستفادة من موارده البشرية والاقتصادية ، وليكون نقطة انطلاق لنشر الثقافة الاسلامية الى الجنوب .

ب ـ ان تكون قواته على مقربة من السويس[٦٤] خشية ان تتطلع انجلترا وترسل حملة للاستيلاء عليها ، كما حدث وارسلت حملة في عام ١٨٠٧ للاستيلاء على الاسكندرية[٦٥] .

هذا ويبدو ان محمد على ، لم تفته اهمية البحر الاحمر للانجليز ، شأنه في ذلك ، شأن الخليج ، فقد لاحظ ، على اثر منح ابراهيم باشا ، تولية حكم جده وتوابعها «إياله الحبش على البحر الاحمر» ، من قبل السلطان العثماني ، استياء وتبرما من جانب انجلترا ، لانها كانت تخطط منذ الحملة الفرنسية على مصر ، للتحكم بمفردها في طريقي البحر الاحمر والخليج ، لكونهما الطريقان البحريان الرئيسيان المؤديان الى شبه القارة الهندية ، فاستولت في عام ١٧٩٩ على جزيرة «بريم» عند بوغاز باب المندب ، كما عقدت في عام ١٨٠٢ وما بعده سلسلة من معاهدات الصداقة مع سلطان لحج وعدن وبعض زعماء المنطقة لضمان مصالحها التجارية ، ولتأمين طريقها البحري الى الشرق[٦٦] .

كما عقدت معاهدة سياسية دفاعية مع امام مسقط في عام ١٧٩٨ واخرى

في عام ١٨٠٠ بهدف ابعاد الفرنسيين من الخليج وبالتالي تضمن تفوقها وسيطرتها عليه . ولما لاحظت قوة محمد على الناهضة في جزيرة العرب وفي السودان والبحر الاحمر ، سارعت ـ اي انجلترا ـ وعقدت معاهدة مع امام اليمن في ١٨٢١ ، تسمح لها بتصريف متاجرها في اسواق البلاد في احوال ملائمة لصالحها[٦٧] .

لم تكن هذه التطورات خافية على حاكم مصر ، وكانت رؤيته بالنسبة للبحر الاحمر ، هي ذات الرؤية بالنسبة للخليج ، وامام ظروفه وامكانياته فضل ان يركز اهتمامه في مشروع فتح السودان في تلك الفترة ، وظلت حكومته ترقب وترصد تطور العمليات العسكرية البريطانية في الخليج ضد عرب القواسم ، خاصة حول ما احدثته الحملة الانجليزية الثالثة ضدهم في عام ١٨١٩[٦٨] .

هذا ويلاحظ انه اذا كان محمد على قد انتهى تماما في ١٨٢٠ من وضع سياسة جديدة في البحر الاحمر ، وذلك بالاشراف عليه واعادة الحركة التجارية وتنشيطها بين موانيه ، حتي يحصل على عوائد ، تساعده في مشروعاته العديدة ، فانه بسبب انسحابه المفاجيء من شرق الجزيرة العربية في اواخر يوليو ١٨١٩ ، لم يكن قد وضع سياسة معينة تجاه الخليج العربي ، اللهم الا تخوف حكومة القاهرة من تزايد الوجود البريطاني في المنطقة ، وكانت شديدة القلق بصفة خاصة على البحرين لاهميتها الاستراتيجية في الخليج[٦٩] .

الاثار التي ترتبت على الانسحاب :

ترتب على انسحاب قوات محمد على وانكماش الادارة المصرية في شرق الجزيرة العربية ، عدة اثار لعل اهمها واخطرها ما يلي :

١ . استفحال النفوذ البريطاني في الخليج العربي الذي تمثل في :

(أ) توجيه ضربة بحرية ضد مشيخات الخليج العربية ، وقد ساعد بريطانيا على ذلك ان سلطاتها في الهند في عام ١٨١٩ ، كانت تدعو اكثر من اي وقت مضى لتدخل عسكري واسع النطاق في الخليج العربي ، فقد انتهت الحرب العامة في اوروبا ، وانكسرت فرنسا ـ عدوتها التقليدية ـ التي كانت تحاول على عهد نابليون بونابرت ان يكون لها وجود في الخليج ، بل زيادة على ذلك فإن بونابرت كان يقوم بمساع لدى ايران والدولة العثمانية من اجل قيام تحالف ثلاثي ضد روسيا[٧٠] .

ولكن بعد هزيمة نابليون بونابرت في موقعة «واترلو» وانعقاد مؤتمر فيينا في عام ١٨١٥ ، سيطرت بريطانيا على

معظم الاملاك الفرنسية في الشرق ، وبالتالي اصبحت اكثر اهتماما بتأكيد سيطرتها البحرية على الطرق المؤدية الى المحيط الهندي ، وكانت السلطات البريطانية في الهند قد تغلبت على مقاومة «المهارتا» العتيدة ، التي كانت تؤثر بشكل واضح على حكومة بومباي(٧١) .

ولما تمكن محمد على من ان يقضي على الدولة السعودية الاولى ، التي كانت تناصر بطريقة او بأخرى ، القوى العربية البحرية في الخليج ، ضد السفن الاجنبية ، تطلبت الضرورة من الانجليز ، أن يقضوا على تلك القوة ، التي باتت تؤرق الوجود البريطاني في المنطقة ، فكان ان سيرت انجلترا حملتها المشهورة في نوفمبر ١٨١٩ بقيادة الجنرال «وليام جرانت كير» الذي نجح في الفتك بالقوة العربية ، ودمر اسطول القواسم وضرب قلاعهم(٧٢) .

ويبدو ان هزيمة القواسم ، وما ترتب عليها من اثار في الخليج ، كانت درسا للدولة العثمانية ، فصارت تحلل محاولات الانجليز للتقارب مع محمد على ، حين ارسلت السلطات في الهند «الكابتن سادلير» لمقابلة ابراهيم باشا ، والتنسيق معه لضرب القواسم (٧٣) فخشيت ان ينجح الانجليز في جهات اليمن فبعد أن اطلع الباب العالي ، على التقارير الواردة اليه من قبل والى العراق والسفير الفرنسي في الآستانة ، حول عملية الخليج ، وتحرك القوات الانجليزية تجاه القطيف ، سارع الصدر الاعظم ، ونبه محمد على ، بان لا ينخدع بأقوال الانجليز ، ونصحه بان يكون على حرص في التعامل معهم «لمقاصدهم الفاسدة»(٧٤)

وان دل ذلك على شيء ، فانما يدل على ان حكومة السلطان العثماني كانت على يقين من اطماع الانجليز ، وانها كانت تسخر والى مصر في تلك الفترة، للدفاع والمحافظة على أملاك الدولة ، سواء كانت تلك الاملاك عربية او حتى اوروبية .

(ب) ربط مشيخات الخليج العربية ، بمعاهدة السلام العامة ، التي ابرمت في عام ١٨٢٠ م والتي كانت في الحقيقة ، بداية السيطرة السياسية لبريطانيا العظمى على تلك المشيخات(٧٥) .

ويلاحظ ان محمد على ، كان غير مرتاح لهذه المعاهدة ، لما تنطوى عليه من اضرار مستقبليه بالخليج ، ولانه صار على دراية تامة بأهداف الانجليز بالنسبة للعالم الاسلامي ، وتخوفهم من روسيا ، التي كانت تتطلع الى ايران والخليج ، للوصول الى الهند ، فاستغل ـ محمد على ـ العلاقات التي كانت بينه وبين السيد سعيد سلطان مسقط ، وارسل اليه ، ينصحه بعدم

الاتفاق مع الانجليز[٧٦] .

٢ - عودة الخوالد المدعومين من قبل الدولة العثمانية لحكم الاحساء ، على ان يتبع هذا الاقليم من النواحي الادارية والى العراق[٧٧] .

٣ - اصبحت السلطات البريطانية في الهند ، بعد ان هيمنت عسكريا وسياسيا على الخليج ، ترى عدم تشجيع الدولة العثمانية على بسط نفوذها في هذه الجهات[٧٨] ، خاصة وان محمد على قام بالمهمة التي كان لابد ان تقوم بها هي - اي السلطات البريطانية - ضد الموحدين ، لمساندتهم عرب القواسم ، الذين دأبوا على اهانة وتضييق الخناق ضد المصالح الانجليزية في الخليج .

٤ - احباط ارحمه بن جابر الجلاهمة ، الذي كان يعلق امالا كبيرة على مساعدة القوات المصرية له ، في توطيد مركزه على ساحل الاحساء[٧٩] وكان ارحمه قد اتخذ من قلعة الدمام ، قاعدة لتحركاته ضد سفن البحرين التجارية ، مما جعل بريطانيا ، لا ترى بأسا ، من الاعتراف بسيادته على منطقة القطيف ، رغم تأكدها من العداوة التي بينه وبين حكام البحرين ، مع ضرورة مراقبته ، حتى لا يستفحل خطره ، ويكون قوة بحرية قوية على غرار قوة القواسم[٨٠] .

ونظرا للتطورات التي كانت تتلاحق بعضها اثر بعض في الخليج ، والتي تأثر بها كل من حكام البحرين وارحمه بن جابر نفسه في الدمام ، تم توقيع معاهدة في فبراير ١٨٢٤ بين الطرفين ، بمساعدة المقيم البريطاني «ستانوس E.G.Stannus» ، الذي انتهز هذه الفرصة ليوطد النفوذ الانجليزي في المنطقة ، عن طريق القيام بدور الوسيط بين الاطراف المتنازعة ، وتضمنت المعاهدة ان يكف ارحمه بن جابر عن مهاجمته سفن البحرين ، بل والتعاون معا ضد اي عدوان يقع على شعب البحرين .

ولكن يبدو ان هذه المعاهدة ، أتت بنتائج غير طيبة بالنسبة لابن جابر الجلاهمه ، فصار يتخبط في سياسته ، فتارة يحاول الاتصال بسلطان مسقط ، وتارة اخرى يتناسى معاهدته مع حكام البحرين ، وتارة ثالثة يشدد الحصار على القطيف ، ويهدد جميع السفن التجارية الداخلة او الخارجة من الميناء ، فقام الكولونيل «ستانوس» بارسال طرادين حربيين الى الدمام ، لحماية السفن التجارية ، ووجه تحذيرا لابن جابر ، وحمله مسئولية اعماله ، التي كانت في نظر ستانوس ، نوعا من القرصنة ، غير ان ارحمه بن جابر ، تجاهل الانذار ، وكان يشجعه وقتذاك ، الموحدون ، الذين كانوا قد استعادوا مركزهم في نجد ، ويسعون لاعادة

نفوذهم السابق في الاحساء ، وعندما عرض الموضوع على «الفنستون» قرر انه مهما كانت اعمال ارحمه تهدد المنطقة ، فهي اعمال حربية مشروعة ، وانه طالما انحصرت تلك الاعمال في المنطقة القريبة من القطيف ، فليس هناك اسباب تبرر منعه ، ولذلك ارسلت الاوامر الى ستانوس ، لسحب الطرادين من ساحل القطيف[٨١] .

والواقع ان قرار «الفنستون» يحتاج الى تحليل ، فهو دليل اخر ، على ان الانجليز ، كانوا لا يمانعون في ان يتصارع العرب مع بعضهم البعض ، حتى تضعف قوتهم ، ويصفون زعاماتهم بأنفسهم ، ولا يتدخلون ـ الانجليز ـ الا في حالات اقتراب الخطر من مصالحهم ، او لاشعار القادة والزعماء بأنهم هم وحدهم القادرون على معالجة مشاكل العرب وايجاد الحلول المرضية لها .

على اية حال عندما ازدادت تصرفات ارحمه بن جابر العدائية ، وصارت لا تحتمل ، تحالف حكام البحرين مع الخوالد ، حكام الاحساء السابقين في عام ١٨٢٦ ضده ، فقامت قوات الخوالد بمحاصرته من ناحية البر ، بينما تصدت قوات البحرين له من ناحية البحر ، وانتهى الأمر بمصرعه[٨٢] .

٥ ـ تطلع السيد سعيد سلطان مسقط الى البصرة ، للحصول على الزكاة منها ، ولم تمانع السلطات الانجليزية في تلك الفترة ، في ان يتحرك السلطان ، ضد «داود باشا» حاكم العراق ، بعد ان فشل الكابتن «تايلور» في الوساطة بين الطرفين ، وينتزع منه البصرة[٨٣]

فقد كانت الامور غير طيبة بين هذا الحاكم والسلطات الانجليزية ، ورفضت انجلترا ان تمده بالضباط لتدريب جيشه على النظم الحديثة ، كما كان يفعل محمد علي في مصر ، مما جعله يستعين بضباطين من الفرنسيين ، لتنظيم قواته ، نكاية في الانجليز ، ويزيد من الرسوم الجمركية على الواردات الانجليزية ، لذلك ، رأت انجلترا ، ان اشتباك امام مسقط معه ، يضعف من قوته ، وبالتالي يسهل التعامل معه ، وفقا للمصالح البريطانية .

لكن عندما حدثت توترات بين الدولة العثمانية وروسيا ، وصارت الاخيرة تزيد من تطلعاتها الى الهند ، خشي الانجليز على الاوضاع في كل من ايران والعراق ، وصار «تايلور» نفسه ، يحذر حكومته من احتمال وقوع هجوم روسي على العراق ، ثم الزحف الى الهند عن طريق البصرة وبوشهر ، واخذ يؤيد موقف داود باشا ، الذي كان السلطان العثماني قد امر بخلعه من منصبه ، بل اشتط

في تأييده الى درجة انه كان يدعو الى اقامة دولة مستقلة في العراق ، تحت حكم داود ، تعمل كمنطقة عازلة Buffer State بين روسيا والخليج ، والموافقة على ارسال ضباط بريطانيين لتدريب القوات العراقية(٨٤) .

ويبدو ان هذه التطورات في الخليج ، شدت انتباه محمد على في مصر ، رغم حروبه ضد الثوار في المورة ، الذين رفعوا راية التمرد والعصيان على الدولة العثمانية(٨٥) ورغم انشغاله بتطبيق التنظيمات الحديثة في كل من مصر والسودان ، فتطلبت منه تلك المسألة المزعجة في الخليج ، ان يتدخل في الامر ، ليوقف تطور الازمة بين سلطان مسقط وحاكم العراق ، عند حد قد يمكن القوى الاسلامية من تفويت الفرصة على الانجليز ، فقد لاحظ ، كيف ان الاوروبيين ، يساعدون ثوار المورة ، بصورة او بأخرى ، ضد الحكم الاسلامي ، فبعث رسالة الى سلطان مسقط في عام ١٨٢٥ ، يطلب فيها ، ان يوقف تحركه ضد البصره ، وفعلا ، توقفت التحركات العمانية(٨٦)

ويبدو ان سلطان مسقط ، كان لا يتوقع مثل هذا التصرف من جانب محمد على ، نظرا للعلاقات الطيبة التي كانت تربط بين الطرفين ، وكان من مظاهرها انه حين توجه السلطان لاداء فريضة الحج على ظهر السفينة «ليفربول» في عام ١٨٢٤ ، استقبله والي جده ، استقبالا حافلا ، كما ارسل محمد على بعثة من كبار رجاله للترحيب بالعاهل العماني ، ويبدو ان السيد سعيد ، حرص من جانبه ، على توقيت حجه في ذلك العام ، لكي يعبر عن سروره وتأييده لمحمد على ، بعد ان نجحت قواته في نجد والحجاز(٨٧) ، وبصفة عامة لتوثيق الروابط وتعزيز العلاقات بين الطرفين .

ولكن يبدو ان سيد مسقط ، تصور ، ان تورط محمد على في حرب الموره ، يأخذ كل اهتمامه ، ومن ثم لن يجد الوقت للاهتمام بشئون الخليج ، فسارع وارسل قواته البحرية الى البصرة للاستيلاء عليها ، ولكنها لم تحقق الهدف المطلوب ، فقد تم التغلب على المشاكل بين الطرفين بالطرق السلمية ، وعاد الاسطول العماني الى مسقط في نوفمبر ١٨٢٦(٨٨) .

هذا وقد نتج عن تدخل محمد على لانهاء الازمة ان حسن داود باشا من علاقاته معه فنلاحظ ان حاكم بغداد ، خلال تصاعد الخطر الانجليزي الممتد من القطيف الى مخا باليمن ، يكتب الى حاكم مصر ، ليطلعه على عدد السفن الانجليزية التي كانت تخرج من القاعدة البريطانية في بومباي ، ويحدد خطوط سيرها ، ويكتب له بالتفصيل ما كان يحدث من تعاون بين قوات

سلطان مسقط والقوات الانجليزية في الخليج[٨٩] .

٦ـ ترتب على تركز الوجود المصرى فى الحجاز، ان اتاح الفرصة لال سعود، ان يعيدوا قوتهم، ويكونوا الدولة السعودية الثانية، فقد نجح الامير (تركى بن عبدالله) فى ان يستولى على نجد، وان يتغلب على الخوالد ويستعيد منهم الاحساء[٩٠] الامر الذى اقلق محافظ مكة، وجعله يطلب من حكومة القاهرة، الموافقة على توجيه حملة اليه لوضع حد لنفوذ ال سعود المتزايد فى الجبهة الشرقية من شبه الجزيرة، ولكن نظرا لان محمد على، كان وقتذاك فى نزاع مع السلطان العثمانى، بعد ان رفع ضده راية التمرد والعصيان، عقب معركة نوارين ـ السابق الاشارة اليها ـ فانه لم يستطع الاستجابة لمحافظ مكة، فقد كان مشغولا فى اعداد حملته العسكرية للاستيلاء على الشام بالقوة من الباب العالى[٩١] واكتفى بان ارسل الى محافظ مكة، بان يوجه النصح للامير السعودى، وان يركن الى الهدوء، ويحثه على اعلان ولائه لحكومة مصر، والا ارسل اليه ـ اى محمد على ـ جيشا لجبا يكتسحه اكتساح السيل، ويقهره ويدفع غائلته[٩٢] ونعتقد أنه اذا كان محمد على يهمه فى تلك الفترة الحرجة الحرص على وجوده فى الحجاز بصفة خاصة، حيث الاماكن الاسلامية المقدسة، حفاظا على سمعته، التى اصبحت (سحرا) ووصلت الى مسامع كل المسلمين، وكان فى اشد الحاجة الى تأييد الرأى العام العربى والاسلامى فى حروبه ضد السلطان الذى كان فى نظر معظم المسلمين، السلطان الخليفة، الذى يحمى ديار الاسلام من التسلطات والمطامع الاوروبية الاستعمارية، فان تطورات الخليج العربى، وزيادة التدخل الانجليزى فى شئونه، وسعت من دائرة رؤية محمد على السياسية تجاه هذه المنطقة العربية الاسلامية، الامر الذى سيتطور فيما بعد الى محاولة تكوين اقليم موحد منها، تستند عليه دولته من ناحية الشرق، كما سنشير اليه بعد قليل.

عودة قوات محمد على الى شرق الجزيرة واستئناف تطلعه الى الخليج العربى:

ونتساءل الان ما هى الدوافع التى ادت الى عودة تلك القوات، ونقول انه منذ معركة (نوارين) التى دمرت فيها الاساطيل المصرية الجزائرية التركية فى ٢٠ اكتوبر ١٨٢٧، امام الاساطيل المشتركة من روسيا وانجلترا وفرنسا وايطاليا، التى وصلت الى مياه اليونان لمساعدة الثوار ضد الاتراك[٩٣]، تأكد

خاضعة للنفوذ العثمانى، وقد ارسل (تايلور) من بغداد، تقريرا عن مهمة (سيد خالد) الى الكولونيل (كامبل) فى مصر، واتصل الاخير بمحمد على، للاستفسار عن هذا الموضوع، وعن رأيه عموما بالنسبة للوضع فى بغداد.

وكان محمد على قد خبر السياسة الانجليزية وعرف المغزى من وراء هذه المقابلة وغيرها، لذلك يبدو انه حاول ان يتنصل بطريقة دبلوماسية من الموضوع، وان يجيبه بذكاء الرجل الداهية، فقال له بان من المعروف ان سكان بغداد لا يرتاحون للحكم القائم عليهم، وعبروا عن ذلك بتذمرهم المستمر، لدرجة انهم طلبوا من واليه فى سوريا (شريف بك) التحرك، للاستيلاء على بغداد، نيابة عن الوالى، اى محمد على، ولكنه لم يفكر فى شىء من هذا القبيل، واضاف ان المبعوث (سيد خالد) هو من اتباع والى بغداد السابق (داود باشا) وطلب منه العمل لديه، ولكى يتخلص - محمد على - منه، قام بارساله الى سلطان مسقط، مزودا بخطاب توصية منه، غير ان الكولونيل (كامبل) لم يقتنع بتفسيرات محمد على، لان والى مصر، لم يتعود اعطاء خطابات توصية دون ان يكون وراء ذلك هدف محدد.

وبالاضافة الى ذلك، كان هناك فى ذات الوقت، مبعوث من السيد سعيد، سلطان مسقط، فى دار الوالى، والوالى نفسه، ذكر للكولونيل كامبل، ان السيد سعيد، قد عاتبه على شراء سفن لحملته على اليمن، فى الوقت الذى كان فيه السيد سعيد على استعداد لاعارته تلك السفن.

وعلى ضوء ذلك، كان كامبل على يقين من ان سيد خالد قد توجه الى بغداد لاسباب هامة، حتى ولو كان ذلك لجمع المعلومات عن البلاد، خصوصا، وان محمد على، كان على دراية بأحوال العراق، وطلب الاهالى هناك دعوته لانقاذ بغداد من فساد الحكم فيها(١٠٢)

والواقع ان الاستنتاج الذى خرج به مستر كامبل، يجب ان يؤخذ فى الاعتبار، لان محمد على، صار يشعر بالقوة، بعد حصوله على المكاسب الاقليمية، التى تضمنتها اتفاقية كوتاهيه، ومن ثم بات امر الدولة الحديثة، التى كان يحلم بها، على وشك ان يصبح حقيقة.

ويبدو انه كانت هناك عوامل اخرى تشجعه على ترجمة هذا الحلم الى واقع، وابراز الدولة تحت الشمس، لعل منها:

١- نظر محمد على الى اتفاقية السلام العامة فى الخليج (١٨٢٠) واتفاقية اليمن فى (١٨٢١)، نظرة شك وارتياب من الوجود الانجليزى فى تلك الجهات، وكان يرى ان الهدف منهما، هو تقوية النفوذ البريطانى واتساع

دائرته.

ونحن نرى ان اتفاقية اليمن، كانت ردا على التوسع المصرى فى البحر الاحمر، وان اتفاقية السلام العامة فى الخليج، كانت لا تخلو من اسباب مصرية لابرامها، فرغم ان الظاهر من ارسال حملة ١٨١٩ الانجليزية الى الخليج، هو لتحطيم القوة العربية البحرية المناهضة للوجود البريطانى، الا انها كانت فى الوقت ذاته اشعارا لمحمد على، حتى لا يفتح عينيه تجاه الخليج، وان مسألة ارسال الكابتن (سادلير) لمقابلة ابراهيم باشا فى شبه جزيرة العرب، بعد سقوط الدرعيه، للتعاون معا ضد حلفاء الموحدين، كانت تخفى وراءها حقيقة، وهى معرفة الانجليز بخطط هذا القائد، والوقوف على قوته، فكان الانجليز يدركون قوة مصر الناهضة، ويخشون من تصاعدها، خاصة وان اسم محمد على، صار يتردد فى العالم الاسلامي، على انه من الابطال، فكانت المعاهدة (١٨٢٠) حسب تصورنا الشخصى، بمثابة اشارة ليعمل محمد على حسابها، اذا فكر فى العودة الى شرق الجزيرة العربية.

٢ـ ترتب على اتفاقية كوتاهيه، ان صارت الدول الاوروبية، تعيد حساباتها ازاء القوة الجديدة فى مصر خاصة وقد جددت مصر اسطولها الحربي وكان محمد على، ينظر الى تلك الاتفاقية، بمنظار يختلف كلية عن منظار الدول الاوروبية لها، فقد كانت تلك الدول ـ خاصة انجلترا ـ تأمل ان يقتنع محمد على بشروط تلك الاتفاقية، وان لا تتعدى طموحاته اكثر من ذلك، حتى لا يثير ارتباكا للمصالح البريطانية فى الشرق من ناحية واستقرار الأوضاع على ما هى عليه فى الدولة العثمانية من ناحية اخرى ولابعاد تطلعات روسيا عنها من ناحية ثالثة.

٣ـ اعتماده على جيش حديث ومنظم، اصبح من اقوى جيوش الشرق [١٠٣]

٤ـ احتكاره لبعض الموارد الاقتصادية، عاد عليه بارباح، مكنته من تنفيذ برامجه التنمويه فى الزراعة والرى والصناعة وغيرها، بالاضافة الى مشروعاته التوسعية [١٠٤]

٥ـ السيطرة على اليمن تمكنه من التحكم فى البحر الاحمر من ناحية الجنوب

٦ـ اقتناعه التام، ان الدولة العثمانية، وصلت الى مرحلة من الضعف والانهاك تجعلها غير قادرة على الادارة وتطبيق الاساليب الحديثة فى املاكها الشاسعة.

٧ـ يقينه ان الدول الاوروبية، لابد ان تمزق الدولة العثمانية وهى على وضعها الراهن، وان مسألة المحافظة عليها القصد منها عدم احداث خلخلة فى توازن القوى الدولية بقدر الامكان،

ريثما يحين الوقت المناسب.

فقد سبق وسلخت فرنسا ولاية الجزائر من الدولة فى عام ١٨٣٠.

٨ـ وعلى ضوء كل تلك الاعتبارات، راى محمد على، بعد ان استقرت الاحوال فى السودان والشام والحجاز، ان الواجب الاسلامى، يتطلب منه، اعادة النظر الى شرق الجزيرة العربية والخليج! طالما ان القوة العثمانية او القوة الفارسية او القوة العربية المحلية، لم تتمكن من وقف تزايد النفوذ الانجليزى فى تلك الجهات.

موقف السعوديين

بعد ان انسحبت القوات المصرية من الاحساء ونجد فى عام ١٨١٩، تمكن الموحدون بزعامة الامير (تركى بن عبدالله بن سعود) من ان يعيدوا نفوذهم فى تلك الجهات، ولم يأت عام ١٨٣٠ حتى كان السعوديون قد اخذوا يهتمون من جديد بساحل شرق الجزيرة العربية من البحرين حتى مسقط [١٠٥] وقد ترتب على ذلك ان تنفس (القواسم) الصعداء، فعبروا عن ارتياحهم لصعود القوة السعودية، مما جعل الانجليز، يرون فى تلك التطورات، ثمة احتمال، ان يمارس القواسم نشاطهم السابق ضد السفن البريطانية فى الخليج[١٠٦]

واستمر الامير تركى فى تطلعاته من الاحساء، التى اتخذ منها نقطة انطلاق الى الخليج العربى، واضطرت بلاد ساحل شبه الجزيرة الشرقى من الكويت الى رأس الحد، ان تعترف بسيادة السعوديين، وان توافق كل من البحرين ومسقط على دفع الزكاة لهم[١٠٧]

لكن سرعان ما حدث خلاف بين أبناء البيت السعودى نفسه، فقد اغتيل الامير (تركى بن عبدالله) فى عام ١٨٣٤، على يد (مشارى بن عبدالرحمن ال سعود) وانتقم الامير (فيصل بن تركى) بقتل قاتل والده [١٠٨]

هذا وقد ترتب على تلك الاحداث، ان انتهز الخوالد، الفرصة وتحالفوا مع الشيخ (عبدالله بن احمد ال خليفة) شيخ البحرين، وابنه مبارك امير قلعة الدمام، لرفض سيطرة السعوديين على الاحساء، وقام آل خليفة بفرض الحصار على سواحل القطيف[١٠٩]

لكن من ناحية اخرى، كان سلطان مسقط، لا يزال يكرر محاولاته للاستيلاء على البحرين. رغم مشاكله مع بعض قبائل المنطقة [١١٠] فلم يستطع رغم اتساع دولته التى جمعت بين مسقط وزنجبار فى شرق افريقيا [١١١] ان يغض الطرف عن جوهرة الخليج (البحرين) فتارة نراه يعرض تحالفه مع محمد على لمساعدته فى

الحصـول عليها[١١٢]، وتـارة اخرى يحاول التقرب من السعـوديين لذات الهدف [١١٣]. ولكنه لم ينجح فى كلا الحالتين، لانه وكما يبدو فان محمـد على، لم يوافق على هذه الفكرة، كما ان الامير فيصل آل سعود رغم انه كان يريد ان يستفيد بقوة سلطان مسقط البحـرية، فى سبيـل تحقيق اهـداف سعـودية فى البحـرين، بعد تحـالف حاكمها مـع الخوالد، الا ان سلطان مـسـقـط، حـين ادرك ان الامـير السعودى، لم يسمح له بـان يسيطر عـلى البحـرين بمفـرده، عبـر له عن اعتذاره، بحجة انه مرتبط بالانجليـز ولا يستطيع القيام بهذه المهمـة دون استشارتهم [١١٤].

والواقـع ان الانجليـز، بعـد ان شعـروا بتطلعـات محمد عـلى نحـو الخليـج، تلك التى لم يستبعـدهـا الكولونيل كامبل فى القاهرة، عـلى اثر مقابلته مع محمد عـلى، للوقوف عـلى رحلة المبعـوث (سيد خـالد أفندى)، التى اشـرنا اليهـا سابقـا، صـاروا يحـاصرون سلطان مسقـط، لتقويـة العلاقات معه، وعقد معاهدة، حتى لا تقع مناطق الخليج تحت سيطرة محمد على، ففى بداية شهر نوفمبر ١٨٣٤، بعث الملك (وليم الرابع) ملك انجلترا، برسالة الى (شـارلس جرانت) رئيس مجلس الهند، يحثه على عقد معاهدة مع السيد سعيد، فقد خشيت انجلترا بعد ان سيطر محمد على، عـلى مصر وسوريا وسواحل البحـر الاحمر، ان يسيطر ايضا على مسقط، وهذا له من الخطورة بمكان، لان محمد على، اذا تمكن من ذلك، فـانـه يسيـطر عـلى الطريقين الملاحيين التجاريين (البحر الاحمر والخليج) الى الهند.

خـاصـة وان السلطات الهنـديـة نفسها اعترفت، بان محمد عـلى، قد اصبح القوة الفعالة الاولى، فى منطقة شبه الجزيرة العربية، وانه اخذ يوجه اهتمامه الى الساحل الممتد الى مسقط، ولعله يـطمع فى السيـطرة عـلى هـذا الجزء، كما ان هناك اعتقادا بان امام مسقـط ينظر الى والى مصر بـاحترام اكثر مما ينـظر به الى شـركة الهنـد الشرقية البريطانية[١١٥].

على اية حال، رأى الامير فيصـل آل سعود، ان الظروف تتطلب منه ان يـؤمن ظهـره من جـانب الخـوالد وآل خليفـة معا، حتى يتفـرغ لبقيـة انحاء دولته الشاية، فعقد العزم على ضـرورة التـخـلص مـن الوجـود البحرينى فى منطقة القطيف والدمام.

ويبـدو من سـير الاحـداث، ان البحرين، كان فى امكانها، ان تتصدى لتهديدات الموحدين، لكن سرعان مـا تعـرضت ـ اى البحـرين ـ فى عـام ١٨٣٦ لضغوط من فارس هذه المرة، فـاضطر شيـخ البحـرين ان يـرفـع حصـاره عن سـاحـل الاحـسـاء

والقطيف، ويفتح صدره للامير السعودى، بل وان يدفع له الزكاة سنويا، لمساعدته ضد تهديدات الفرس(١١٦)

وبعد ان قررت حكومة محمد على، تنفيذ مشروع فتح اليمن، وصار الساحل اليمنى تحت الحكم المصرى، ودخول القوات المصرية عدن فى ٢٧ اغسطس ١٨٣٧، رأى محمد على فى ذات الوقت، انه من الممكن توجيه جزء من الجيش تجاه الجزيرة العربية والخليج العربى(١١٧)

فتوجهت حملة الى الحجاز، بعد ان اخذ فى الاعتبار، ضرورة المحافظة على القوة التى كانت فى سوريا، تحسبا لاى هجوم مباغت من جانب الباب العالى.

وعندما وصلت تلك الاخبار الى مسامع الامير فيصل آل سعود داخله الخوف(١١٨)، خاصة وان الحملة كان على راسها الامير (خالد بن سعود(١١٩)، منافسه على الحكم، وكان يشارك الامير خالد، فى قيادة الجيش (اسماعيل آغا) وحاول الامير فيصل ان يتحاور مع محمد على بالحسنى، وأبدى الامير، كافة استعداده، للموافقة على كل طلباته ـ اى محمد على) ـ ليتخلى عن الامير خالد وعدم مهاجمة املاك السعوديين فى شرق الجزيرة العربية (١٢٠)

ولكن يبدو ان المسألة صارت فى نظر محمد على، اكبر من اعتراف الامير فيصل بالولاء لمصر، فقد تحولت سياسته الخارجية بعد اتفاقية كوتاهية (١٨٣٣) الى ضم شبه الجزيرة العربية والشام ومصر والسودان، وما يمكن ضمه من بلاد تنطق بالضاد فى وحدة سياسية واحدة، تتكون منها دولته الحديثة، فقد حان الوقت فى نظر محمد على ليترجم حلمه الى حقيقة.

وكان محمد على يطمئن الى الامير (خالد بن سعود) فى تحقيق ذلك المشروع الكبير، ولا يرتاح الى امراء الموحدين، ولعله كان على يقين من كرههم وعداوتهم له، فهم لن ينسوا اسقاط الدرعية، وما فعلته قواته ضدهم، وهذه غلطة، يتحمل مسئوليتها، محمد على باسم الدولة العثمانية بالدرجة الاولى، لان نتيجتها كانت ـ كما اثبتت الاحداث ـ لصالح انجلترا فى الخليج العربى.

فالمعروف ان الموحدين، كانوا يهدفون الى نشر الدعوة الوهابية التى تنادى بتنقية الاسلام من الشوائب التى علقت بمفاهيمه، والعودة الى بساطته الاولى ـ وكانوا يحاربون العرب وغير العرب من المسلمين، الذين يرون انهم ـ من وجهة نظر الموحدين ـ قد انحرفوا عن كتاب الله (١٢١)

وكانوا يحاربون الاتراك لا على

انهم اجانب يحتلون البلاد العربية، وانما باعتبارهم مسلمين، خرجوا على اصول الديانة الاسلامية الحقه، ومن ثم انهارت الحضارة الاسلامية فى عهدهم، وتفوقت عليها حضارة الغرب الاوروبى التى تخلو الى حد كبير من الجوانب الايمانية والاخلاقية، ومحاولاتها المتكررة فى غزو العالم الاسلامى بطريق او بأخر.

فاجتهد الموحدون لتصفية الادارة العثمانية من شبة الجزيرة العربية، ومحاولة تكوين وحدة سياسية منها، والتطلع الى العراق والشام وبلاد الخليج العربية(١٢٢) وبصفة عامة، كان الموحدون يسعون الى اعادة مجد الدولة الاسلامية من الناحية الدينية، معتمدين فى ذلك على اساس عربى فى المقام الاول(١٢٣)

وكان محمد على فى الدور الثانى من سياسته، يحارب الدولة العثمانية، ايضا، ولم تكن فى خطته ازالة الخلافة الاسلامية عن بنى عثمان، وانما حارب الدولة لاسباب تختلف عن الاسباب التى كانت لدى الموحدين.

فكان يرى ان الدولة العثمانية، قد شابها الهرم، واستنفدت كل مواردها المادية والمعنوية، وصارت عرضة للتفكك والتمزق من جانب الدول الاستعمارية(١٢٤) وان النجاة بالعالم الاسلامى ـ على الاقل ـ تعتمد على الاخذ باساليب الحضارة الاوروبية الحديثة، حتى يتمكن هذا العالم من مواجهة الدول الطامعة فيه بذات سلاحهم، اى بالحضارة الاوروبية الحديثة نفسها(١٢٥)

وبصفة عامة كان محمد على يحارب الدولة العثمانية، ولديه رغبة اكيدة فى اعادة مجد الدولة الاسلامية ايضا، لكن من الناحية السياسية، معتمدا فى ذلك على كل العناصر التى تخضع للدولة (١٢٦)

وكان يرى ان مصر فى ذلك الوقت هى المسئولة بحكم امكانياتها ومقدراتها، عن تكوين دولة حديثة، تضم البلاد العربية، لانسجامها من حيث اشتراكها فى اللغة فضلا عن عامل الدين الاسلامى.

لكن لا يجب ان ننسى اونتناسى، ان محمد على شخصيا كانت له مطامع سياسية من وراء ذلك، منها على الاقل ان يظل حكم دولته فى ذريته من بعده.

ومن هنا كان الاختلاف بين الموحدين ومحمد على، الذى كان ـ اى الاختلاف ـ من سوء حظ العالم العربى والاسلامى، لانه لو اتحد محمد على مع الموحدين، لكان من الممكن ان يعيدوا على الاقل ـ للعرب ـ مجدهم السابق، وان تتجدد الحضارة الاسلامية على اسس ايمانية واخلاقية، مع جوانب مادية حديثة ومتطورة، لاتتعارض مع جوهر العقيدة الاسلامية، خاصة اذا اخذنا

فى الاعتبار، ان الاسلام يحث على طلب العلم والاستزادة من المعرفة، حتى ولو كان اصحابها من غير ملة الاسلام(١٢٧)

على اية حال، بعد ان فشل الامير (فيصل آل سعود) فى اقناع محمد على، بالعدول عن محاربته، استنفر قومه، واعد كل ما يملك من عدد وعدة، لمواجهة عدوه، وفى الوقت نفسه، اخذ يتصل سرا، بوالى بغداد، (على باشا رضا) الذى كان يخشى هو الاخر، من تطلعات محمد على الى العراق والزحف عليه من الشام ثم الجزيرة العربية، فصار والى العراق يشجع الامير السعودى على مقاومة قوات محمد على، وافاده بانه على استعداد لمعاونته(١٢٨)

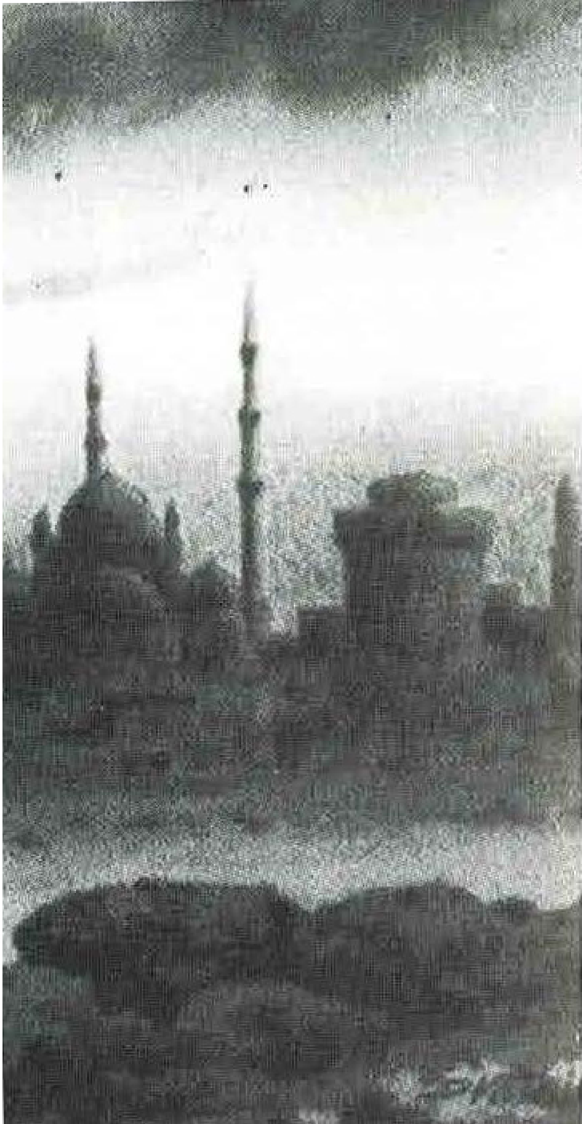
ويبدو ان الامير فيصل حقق بعض الانتصارات على اعدائه، ولكن سرعان ما تغيرت الظروف، حيث تولى قيادة الجيوش المصرية (محمد خورشيد باشا) فى مايو ١٨٣٨ بدلا من اسماعيل آغا (١٢٩)

وهنا ادرك الامير فيصل خطورة الموقف، نظرا لتولى خورشيد باشا القيادة الجديدة، فاستخدم مع هذا القائد الدبلوماسية، ريثما تصله المعونة من والى العراق، فارسل اليه اخاه (جلوى بن تركى) يرجوه عدم محاربته، وانه على اتم الاستعداد لتنفيذ كل طلباته(١٣٠)

ولكن يبدو ان محمد على، تبين ان موضوع نجد، ليس مجرد اسناد حكمه الى هذا او ذاك من ابناء سعود، وانما وجد ان الظروف وقتذاك، تتطلب من خورشيد، ان ينفذ مخطط القاهرة، لتكوين جبهة عربية قوية فى تلك المناطق، تعتمد عليها مصر للأسباب الاتية:

١ـ ان الدولة العثمانية صارت تتقرب اكثر الى الدول الاوروبية ـ خاصة انجلترا ـ للوقوف ضده ـ اى ضد محمد على ـ وعقدت مع الحكومة الانجليزية معاهدة تجارية فى ١٩ اغسطس ١٨٣٨ لابطال الاحتكارات التجارية فى ممتلكات الدولة، وكان من بينها، من الناحية الشرعية، على الاقل، حتى وقتذاك ، مصر وسوريا، وكان الهدف من وراء ذلك، مضايقة محمد على، وتضييق الخناق عليه اقتصاديا، لانه كان يحتكر تجارة الحرير فى سوريا ومعظم الحاصلات الزراعية فى مصر والسودان والبن فى اليمن.

٢ـ مواجهة تزايد التدخل البريطانى فى البحر الاحمر والخليج فقد تمكنت انجلترا من أن تعقد اتفاقا مع (محسن بن فضل) سلطان لحج فى ٢ فبراير ١٨٣٨، يقضى بان يتنازل السلطان عن (عدن) للانجليز فى مقابل بعض الاموال(١٣١)، وكان الهدف من وراء ذلك هو احكام السيطرة على



مداخل البحـر الاحمر من الجنـوب، حتى تقـطع الصلة بين هـذا البحر، الذى صار يخضع للسيادة المصرية وبين الخليج الذى اصبح محط انظار محمد على.

٣ـلم يفت محمد على، مغزى محاصرة الممثل الانجليزى له، للاستفسار عن مشاريعه المستقبلية، وكان يدرك جيدا ان ممثلى انجلترا فى مصر والخليج بل والعـراق، يـطلعـون رؤسـاءهم فى انجلترا والهند على اخبار التحـركات المصرية فى هذه الجهات.

موقف الانجليز:

كـانت انجلتـرا تـرحب فى قـرارة نفسها بسقوط الدرعيـة، وتفتيت قوة الموحدين، حتى لا يستفحـل امرهـا، وتصبح خطرا على وجودها فى الخليج ومصـالحها فى البحـر الأحمـر، ومن ناحية ثانية، حتى لا تتكون قوة عربية موحدة فى الخليج، مناهضـة للوجود والمصالح الانجليزية [١٣٢] خاصة اذا اخذنا فى الاعتبار، ان الموحدين، كانوا يعتبرون نشاط القوة العربية البحرية فى الخليج ضد السفن الاجنبية نوعا من الجهاد.

لذلك نرى ان انجلترا، لا تعترض على توسع محمد علي فى شبه جـزيرة العـرب على عهـد الدولة السعوديـة الأولى، بـل تحاول، سـواء كـان ذلك رغبـة، كما يقـول البعض، ام ستارا يخفى من ورائـه اهـدافـا معينـة، التعاون مع قوات ابراهيم باشا فى عام ١٨١٩، للقضاء على هذه القوة العربية البحرية فى الخليج [١٣٣]، طالما انه لم يظهر على سياسة محمد عـلي، حتى ذلك الوقت (١٨١٩) مـا يشـير الى

مضـايقتها فى طرق مـواصلاتهـا الى الهند (١٣٤)

لكن حـين لاحظت اقتـراب محمد علي من الخليج، وتطلعه الى البصرة، بصـورة او بأخـرى، جن جنـونهـا، خاصة وان البحر الأحمر تحول الى ما يشبه البحيرة المصرية (١٣٥) فنظرت الى المسألة بقلق بالغ، خاصة وان دولة محمد علي الحـديثة، صـارت تزداد توسعا وقـوة، يومـا بعد يـوم (مصر والسـودان وسـوريـا ومعـظم شبـه الجزيرة العربية) وبها من الامكانيات البشرية والاقتصادية والثقافية، مـا يجعلها تشكل قـوة لها وزنهـا دوليا، وكانت هناك فرنسا، المعروفة بعدائها التقليدى، لانجلترا، لاتـزال تتعاطف مع محمد علي وتشجعه فى مشـاريعه المختلفة (١٣٦)

ومن نـاحية اخـرى، لم تستبعـد انجلترا، ان يحدث تقـارب بين مصر وايران، فقد لاحظت ان العلاقـة بين محمد علي والشاه، كانت طيبة فى تلك الفتـرة (١٣٧) وقـد انعكست هـذه العـلاقة عـلى الحجاج القـادمين من ايـران والداغستان، لأداء فـريضـة الحـج، فى الحجـاز، فكـانت تصـدر الأوامـر من حين لأخـر، بمعـاملتهم معـاملة طيبة وكـريمة وتـوفير الأمن والطمأنينة وسبل الراحة لهم فى مكة او المدينة فى غدوهم ورواحهم (١٣٨)

ولا شك ان هؤلاء الحجاج، كانوا ينقلون صورة هذه المعاملة الى الأهالى فى بلادهم، الأمر الذى ترتب عليه ان ازدادت سمعة «محمد علي» فى الشرق الاسلامى.

لذلك رأت انجلتـرا، انـه اذا تم تعاون بين مصر وايران، فإنـه يزيـد المشكلة تعقيـدا، بـالنسبـة لأمـن المصالح البريطانية، ليس فى الخليـج فحسب، بل فى الشرق كله (١٣٩)

فصـارت تـرقب وتـرصـد وتحلل التحركات المصرية فى شرق الجزيرة العربية، من واقع التقارير، التى كان يرفعها، المسئولون البريـطانيون فى الخليج ومصر والعراق، فمثـلا ارسل المقيم البريطانى فى بغـداد كولونيـل «تايلور» الى مستر «بالمرستون» وزير الخارجية البريطانية، فى اواخر نوفمبر ١٩٣٧، يفيـده عن تحركـات القوات المصـريـة فى نجـد، وتقـدمهـا نحـو الاحسـاء والقطيف، للاستيـلاء على البحرين، وطارت اشاعـة ان القوات المصرية، تشمل عددا اكثر مما كـان معروفا فى البداية، فـأرسل «هينـل» المقيم البريطانى السياسى فى الخليج احد الطرادات الى البحرين، برسالة عاجلة الى الشيخ عبـدالله بن احمد، وبرسالة اخرى الى الوكيل البريطانى هنـاك، للافـادة عن صحـة هـذه الاشـاعة، وعن التحـركات المصـرية عموما، وتضمن رد حـاكم البحرين، بأن القوات المصـرية التى هـاجمت

الرياض تتألف من الف فارس والف من المشاه، وان هذه القوات وصلت الى ما وراء مدينة الرياض بمسيرة سبعة ايام او ثمانية، اما وكيل المقيم البريطانى فى البحرين، فقد حدد عدد القوات الراكبة بألف وخمسمائة، والمشاه بنحو خمسمائة، بقيادة اسماعيل أغا، وكان مع القوات اثنا عشر مدفعا من طراز مورتر، تحت اشراف «راشد باشا» وذكر ان قوات الاحتياط، كانت ترابط فى القطيف وتتألف من ٨٠٠٠ خيال بقيادة خورشيد باشا، وفى جميع المناطق الواقعة بين الرياض والمدينة، توجد حاميات عسكرية، مما يدل على ان هذا الجيش، يعتزم البقاء بصفة دائمة فى البلاد، واضاف الوكيل، ان الشيخ عبدالله بن احمد، كان قلقا من الهدف النهائى للحملة، وان اكثر ما يخشاه، ان يقوم تعاون بين محمد علي وسلطان مسقط، وذلك لاحتلال البحرين عن طريق الاسطول العمانى [١٤٠].

وفى اول ديسمبر ١٩٣٧، وصل الى «بالمرستون» تقرير آخر من الضابط «لينش» فى بغداد، يشير هو الآخر، الى مواصلة القوات المصرية زحفها صوب ساحل الجزيرة الشرقى، ويحلل «لينش» فى تقريره الموقف بقوله، ان من الصعب تحديد صورة الاوضاع الراهنة فى تلك المنطقة، ويمكن القول، انه لا توجد قوة، فيها، تستطيع التصدى لمحمد علي، او تضع حدا لمحاولته الرامية الى الاستعانة بالقبائل العربية فى العراق، لتحقيق اهدافها، ويرى ان التحركات المصرية، تتطلب اتخاذ قرار فورى، بشأن مصير الدولة العثمانية، ومدى تأثر المصالح الانجليزية المباشرة فى الهند، اذا استولى محمد علي، على مصبات انهار العراق وموانىء الخليج، فضلا عن سواحل البحر الأحمر، التى سمح له للأسف الشديد، كما يقول لينش باحتلالها، فقد كان من مصلحة محمد علي ان يستولى على هذه المناطق جميعها، لأن ذلك يعتبر امرا حيويا بالنسبة له فبجانب تدعيم موقفه، يمكنه ان يتحدى بريطانيا[١٤١].

فاضطر وزير الخارجية البريطانية، ان يرسل الى القنصل البريطانى العام فى مصر، المستر «كامبل» في ٨ ديسمبر ١٨٣٧، ليستفسر من محمد علي، عن وجهة الحملة المصرية، وهلى تنوى التقدم الى الخليج، والتدخل فى شئون بلاده، خاصة البحرين، وكان رد محمد علي، انه لا يفكر فى مد نفوذه على بلاد الخليج العربية، لأن محمد علي، كان يدرك مغزى هذه الاستفسارات وان القصد منها، هو معرفة خططه، وربما الضغط عليه للاقلاع عنها.

ويبدو انه كان على وعى جيد، فرأى ان انجلترا لن تكون متساهلة معه، وتسمح له، بالاستيلاء على الخليج،

كما حدث بالنسبة للبحر الأحمر، الذى خرج من قبضتها، بعد ان نشطت شركة الهند البريطانية فى تعاملها التجارى مع اهالى البلاد التى تشرف عليه (١٤٢).

ومن ناحية اخرى، لما كانت قوات خورشيد، تضيق الخناق على الموحدين، وتحاصرهم فى «دلم» (وهي من مدن اقليم الخرج بمنطقة امارة الرياض) ووجود ضغوط مصرية اخرى على العراق من جهات الشام، فقد ارسل السفير البريطانى «بونسنبى» فى ٣٠ اكتوبر ١٨٣٧ الى وزير الخارجية البريطانية «بالمرستون» يشير الى ان تقدم قوات محمد علي فى الشام، يحقق حلمه فى نهرى دجلة والفرات، والخليج، مما يؤثر على المصالح الانجليزية فى الهند بشكل مباشر (١٤٣).

والمعروف ان انجلترا كانت تولى اهتماما خاصا للأنهار التى تقع فى مستعمراتها، او التى توصل اليها، وذلك لانسياب الحركة التجارية وانعاشها، والتحكم فى مسار تلك الانهار بمفردها، حتى تستطيع ان يظل نفوذها فعالا عليها، فمثلا ارسلت بعثة استطلاعية برئاسة الكولونيل «شيزنى» (١٨٣٤ - ١٨٣٦) لدراسة مدى صلاحية انهار دجلة والفرات والدجيل «الكارون» للملاحة البخارية، وأجرت اتصالا مع الشيخ «جابر» امير المحمرة، للحصول على موافقته باستخدام نهر الدجيل «الكارون» للملاحة البخارية الانجليزية (١٤٤).

فحين اشارت تقارير ممثليها، بأن قوات محمد علي، سواء فى شرق الجزيرة العربية او فى الشام، تشكل خطورة، على طرق مواصلاتها الى الهند، زاد قلق الحكومة الانجليزية من نوايا محمد علي، ومشروعاته التوسعية، وباتت تعمل حساب ذلك، وصار تطلعه الى الخليج يشكل عبئا جديدا لسياستها الخارجية، بجانب عبء المقاومة، ضد روسيا، التى كانت تتطلع هى الأخرى اليه، للوصول الى الهند، وضرب الوجود الانجليزى فى الشرق.

فتحرك بالمرستون، وطلب من المستر كامبل فى القاهرة، ان يبلغ محمد علي بأسلوب مغلف بالضغط، ان الحكومة البريطانية، لا يمكنها ان تقف مكتوفة الأيدى، ازاء تطلعات محمد علي في الخليج والعراق (١٤٥).

وعندما دار الحديث بين محمد علي وكامبل، حاول محمد علي ان ينفى عن نفسه بأن له اطماعا فى العراق، وأما بالنسبة للخليج فقد اجاب محمد علي بأنه ليس من حق كامبل، التدخل فى هذا الموضوع، وان البلد الوحيد الذى يحق له التحدث فى ذلك، هو حكومة مسقط، وانه - اى محمد علي - يكن كل الاحترام والمودة لحاكمها السيد

سعيد، خاصة وانه اعلن عن رغبته فى ادخال الاصلاحات الحديثة الى بلده، وبالتالى فإن احتلاله - محمد علي - لسقط، حتى لو تسنى له ذلك، فإنه لن يعود عليه بفائدة، لأن هذه البلاد تتمتع بحكم مستنير (١٤٦).

والواقع ان هذا الرد من جانب محمد علي، يحتاج الى مزيد من التحليل، فكان محمد علي يرى:

١ - ليس من حق الانجليز، ان يتكلموا ويتدخلوا فى شئون الخليج، باعتبار ان هذه القضية مسألة داخلية، وفى الامكان معالجتها - ان وجدت - دون تدخل من الخارج.

٢ - كان هذا الرد منطقيا الى ابعد الحدود، ويحمل فى طياته اتهاما مباشرا للانجليز الذين يقحمون انفسهم فى المنطقة لحاجة فى نفوسهم.

٣ - ليس الهدف من تطلعات محمد علي للخليج السيطرة او الاستعمار، وانما الهدف هو ادخال التنظيمات الحديثة، على بلاده العربية، كما صار يطبقها فى مصر والشام والحجاز والسودان.

٤ - وجود محمد علي فى الخليج، لن يفيده اقتصاديا، بقدر ما يفيد هو الخليج من ادخال المدنية الحديثة اليه.

٥ - تطلبت الضرورة من محمد علي، ان يضم بلاد الخليج العربية، بصورة او بأخرى فى وحدة واحدة، وربطها مع دولته، لابعاد الخطر الانجليزى عنها، وحتى لا تتحول الى هند اخرى.

لذلك عندما اخذت قوات خورشيد، تحرز الانتصارات على قوات الموحدين، واستسلم الأمير فيصل آل سعود الذى خذله والى العراق، حيث لم يرسل له الامدادات العسكرية والمعونة، التى سبق ان وعد بها (١٤٧) وبدلا من ذلك، ارسل اليه قبطان البصرة الحاج محمد قبودان (تركجة بيلمز) رسالة لا تتضمن اكثر من كلمات الاستنكار والشجب والتأييد المعنوى (١٤٨). لم يتردد محمد علي، فى ابلاغ الممثل الانجليزى فى القاهرة، بما وصلت اليه الأمور فى شبه الجزيرة العربية، فأخبره فى نهاية الأسبوع الثالث من مايو ١٨٣٨، ان قواته، صارت تسيطر على نجد، واخضعت شبه الجزيرة العربية، من مكة والمدينة الى الخليج، وان الأمير «فيصل بن تركى» اعترف بالولاء لحكومة القاهرة، واشترك فى مقاومة هؤلاء الذين لم يطيعوه، وتعهد بتقديم مساعداته ازاء القبائل فى عسير، بل وبإخضاع البصرة لحكمه اذا كان - اى محمد علي - راغبا فى ذلك (١٤٩).

وان دل هذا الأمر على شيء، فإنما يدل على ان محمد علي، بات يتكلم من موقع القوة، وان انتصاره فى شرق الجزيرة، اضاف اليه كسبا جديدا وزيادة فى انتشار سمعته، ليس فى

الخليـج فحسب وانـمـا فى العـالم الاسلامى، وكان على انجلترا ان تعمل حسابها بدقة لتلك القوة الجديدة.

الموقف بعد سقوط دلم:

الواقع ان فترة حصار «دلم» كانت فترة عصيبة بالنسبة لخورشيد، فقد نفدت منه المواد التموينية او اوشكت على الانتهاء، وتقلصت كميات الذخيرة الى حد كبير، وصـارت الأموال التى لديه قاصرة عن تغطية نفقات الجنود، فتطلبت منه الضـرورة ان يستعجل النظر الى الاحساء والبحرين والكويت والبصرة والساحل العمانى ومسقط، اى الى بلاد الخليج العربية ـ ككل ـ للاعتبارات الآتية:

١ ـ الحصول على المواد الغذائية من تلك البلاد للقوات المسلحة.

٢ ـ كانت قوة محمد علي قد وصلت فى تلك الفترة الى درجة تمكنـه من ربط هـذه البـلاد او ضمهـا الى الدولة الحديثة.

٣ ـ ربما تحدث ردود فعـل مضادة، خاصة من قبل انجلترا، التى صارت تضيق ذرعا من تصاعد اسهم محمد علي فى العالم الاسلامى، فأراد محمد علي، ان يستعجل ويرتبط، وهو على تلك القوة التى كان عليها، مع بلاد الخليج العـربية، بصـورة او بأخـرى، حتى يجعـل كـلا مـن انجلتـرا والدولة العثمانية امام الأمر الواقع.

فبعد هزيمة «عمرو بن عفيصان» عامل السعوديين فى الاحساء، وقبوله كلاجىء سياسى لدى الشيخ عبدالله بن احمـد آل خليفة حـاكم البحرين (١٥٠) صار هذا الاقليم مفتوحا امام خورشيد للسيطرة عليه ولينطلق منه الى الخليج.

فـأستأذن هـذا القائـد حكـومـة القاهرة، بأنه يستعـد لضم الاحساء وذلك بإعداد بعض الجنود وارسالهم قبل فوات موسم الشتاء، لان الطريق خلو من المـاء، واضـاف ان ميناء القطيف على مقربة من هذه الجهات، ومن ثم فهـو فى حاجـة الى سفينتين صغيـرتين من السفن المـوجـودة فى جدة، وذلك لتسهيل جلب الذخيرة من جهتى البصرة والكويت، لشدة حاجة الجيش المصرى اليها (١٥١).

كما اوضح خـورشيد لحكـومته، خـطورة الانـجـليـز فى الخـليـج ومحاولاتهم الاستقرار فيـه، ليصدوا التـطلع الروسى الى فارس والخليـج، حتى لا يتمكن الروس من الوصول الى الهند، عن طريقهما، وركز خورشيـد حـديثـه حـول البحـرين، فبجـانب مـواردها الاقتصـادية المتعـددة من مصايد اللؤلؤ ومعادنها مثل سبائـك الذهب الى بسـاتـينـهـا ونخـيلهـا واشجـارهـا وتمـورهـا ومـزارعهـا، بالاضافة الى مياه ينابيعها وعيـونها العذبة (١٥٢) فقـد وصـفها خـورشيد

بأنها بمثابة مفتاح الخليج، واذا استولت انجلترا عليها، فإن الجزيرة ستصير مثل جزيرة مالطة في غضون خمس عشرة سنة (١٥٣).

وفي الوقت نفسه، كان خورشيد قد ارسل مندوبا الى زعماء اهل الاحساء يدعوهم الى الدخول في دائرة نفوذ محمد علي، فأسرعوا بالاستجابة، معبرين عن ولائهم لحكومة القاهرة، وبهذا صارت الاحساء، كنجد تحت اشراف خورشيد (١٥٤).

وكان محمد علي في هذه الفترة يقوم بزيارة للسودان، ليشاهد على الطبيعة مدى ما وصلت اليه البلاد من تقدم اثر تطبيق النظم الحديثة فيها واناب عنه في القاهرة «عباس باشا»، الذى اجاب خورشيد على مكاتبته السابقة (٢٠ ديسمبر ١٨٣٨) بأنه يفضل منح الاحساء الأمان والتقدم اليها سلما، والموافقة على ارسال سفينتين الى القطيف، طالما كان من المتعذر ارسال المؤن عن طريق المدينة المنورة (١٥٥)

وكان خورشيد من جانبه قد بدأ في تنفيذ سياسة محمد علي الرامية الى الاصلاح وتطبيق الأساليب الحديثة المتطورة، للنهوض بالبلاد، التى ارتبطت بحكومة القاهرة، فعين «محمد افندى رفعت» حاكما على الاحساء، ليقوم بهذه المهمة. ويدبر اموره حتى وصول السفن الصغيرة التى وافق عليها عباس باشا (١٥٦)

لكن سرعان ما حدثت تطورات دولية، اجبرت عباس باشا، على عدم ارسال السفن الشراعية الى ميناء القطيف ، الأمر الذى جعل خورشيد يستشيط غضبا، نظرا لحاجته الشديدة الى الذخيرة، فكتب بلهجة شديدة الى عباس باشا، يستفسر عن عدوله عن ارسال السفن، حتى يكيف نفسه مع الظروف التى يعيشها في شرق الجزيرة (١٥٧)

والحقيقة ان خورشيد كان معذورا في كتابته الى عباس باشا، بتلك الطريقة، ولعله لم يكن يدرى ان الأمور في الشام، كانت تزداد خطورة يوما بعد يوم، خاصة بعد ان عقد الباب العالى مجلسا حربيا، قرر فيه تجهيز جيش بقيادة «حافظ باشا» لمنازلة محمد علي، وتدخل فرنسا وانجلترا والنمسا، لمنع السلطان العثمانى من تنفيذ ذلك، خوفا من تدخل روسيا، استنادا الى معاهدة «هنكار اسكلسى» المبرمة بينها وبين الدولة العثمانية في ٨ يوليو ١٨٣٣.

وحين شعر «عباس باشا» بمغبة الأمور، ارسل الى محمد علي في السودان يخبره بتلك التطورات، فعاد الأخير مسرعا الى القاهرة في مارس ١٨٣٩، ليقف بنفسه على مجريات الأمور (١٥٨)

ويبدو ان خطورة الموقف في الشام، تطلبت من محمد علي، ان يركز نشاطه

السياسي والحربى هناك، فحاول الرجل ان ينال ضمان الدول الأوروبية لمعاهدة كوتاهية، ثم معاونتها له للمفاوضة مع الباب العالى، وكان فى الوقت نفسه يعزز من قواته التى احرزت نصرا ساحقا على قوات السلطان بقيادة حافظ باشا فى «نصيبين» غرب نهر الفرات، رغم تحصينها الذى اشرف عليه الالمان الذين كانوا يعملون فى خدمة الجيش العثمانى (١٥٩)

ومن ناحية اخرى، كتبت القاهرة الى خورشيد فى الميدان الشرقى، توضح له تلك التطورات، وعدم قدرتها على ارسال السفن الشراعية الى ميناء القطيف بسبب موقف الانجليز المتشدد ضد السياسة المصرية (١٦٠)

ونرى ان مسألة اقتراب الوجود المصرى من الخليج والعراق، كان السبب الرئيسى فى تحرك انجلترا المتزايد، فاحتلت بالقوة العسكرية عدن فى ١٨ يناير ١٨٣٩، لتتحكم فى مداخل البحر الأحمر من الجنوب، ولتحول دون اى اتصال مصرى بحرى منه الى الخليج، وبدأت تفكر فى ارسال سفن مسلحة الى البصرة لابعاد اى نفوذ مصرى عنها (١٦١).

موقف الدولة العثمانية :

يتطلب الانسجام التاريخي ، ان نطرح اولا سؤالا هو هل كانت توسعات محمد علي ، نوعا من الاستعمار ، الذي كانت تمارسه الدول الاوربية منذ بداية العصر الحديث ، ومن ثم صارت مصر ، في موضع الدول المتنافسة ، شأنها في ذلك شأن فرنسا مثلا ، ام ان المسألة كانت لها ابعاد اخرى .

الملاحظ من سير الاحداث ، ان سياسة محمد علي ، لم تتجه الى تكوين مستعمرات في الخارج ، وانما اتجهت الى تحقيق مشروع وحدوي كبير وهذا فرق واضح بينها وبين سياسة الدول الاوربية التي كانت تتجه الى تمزيق وتفتيت الكيانات الكبيرة .

فقد انحصرت معظم توسعات محمد علي في حدود الدولة العثمانية ، التي لم ينكر - هو سيادتها الشرعية عليه - وادخال المدنية الحديثة اليها لتقاوم المطامع الاجنبية بذات سلاح تلك المدنية وفي الوقت نفسه الاستفادة من التقدم الاوربي ، مع المحافظة على جوهر الدين والتراث الاسلامي ، وكان - أي محمد علي - قد وافق على ان تستفيد مصر من خدمات جماعة «سان سيمون» في مشروعاتها المختلفة ، حتى يتمكن من ان ينهض بها على اسس حديثة .

أي ان المسألة كانت داخلية بحته ، والهدف منها ، بغض النظر عن مطامعه هو الذاتية ، العمل على تحديث ولايات تلك الدولة، وتطلبت الظروف ان تتسع نظرة مصر ، وقد وصلت الى درجة من القوة الى تلك البلاد التي تشاركها في اعتناق الاسلام واللغة ، لتحميها من

الدول الاستعمارية المتربصة بها .

هذا في الوقت الذي نظر فيه الخليفة السلطان ، الى توسعات محمد علي ، على انها حركة انفصالية ، وكان في امكانه التفاهم معه ، بصورة او بأخرى ، ومن ثم يستفيد من مصر في تقوية دولة الخلافة نفسها ، ولكنه أي السلطان ركب راسه وعزت عليه نفسه ، ان يرفع احد ولاته راية التمرد ضد الدولة العلية ، فأتاح الفرصة للتدخل الاجنبي في نزاع داخلي .

ومع ذلك نرى ان القضية كانت لها ابعاد اخطر من التدخل الاجنبي ذاته ، فنعتقد ان الهدف منه هو تفتيت أية وحدة عربية اسلامية ، خاصة اذا كانت قائمة من مصر ، فإذا كان القرن التاسع عشر قد شهد صحوة اسلامية هنا او هناك فان الغرب الاستعماري بأساليبه المختلفة لم يقف امامها مكتوف الايدي او يسمح بأن يتكرر تاريخ صلاح الدين الايوبي بطريقة او بأخرى ، فموقف انجلترا المتشدد من مصر الاسلامية الصاعدة والحالة هذه لا يدعو للدهشة ، وانما الدهشة تأتي من موقف الدولة العثمانية نفسها .

فالواقع ان تلك الدولة ، ارتكبت سلسلة من الاخطاء الفادحة منها :

اولا: مع الموحدين الذين نجحوا الى حد كبير في حركة توحيد شبه الجزيرة العربية وفرضوا عليها اسلوبا جديدا في الحياة والحكم ، ترتب عليه ان اخذ الناس يغيرون من سلوكياتهم القديمة ، وقد عبر عن ذلك الامير «عبدالله بن سعود» حيث كتب الى محمد علي يقول .. «اننا جاهدنا الاعراب حتى أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، والزمناهم صيام رمضان وحج بيت الله الحرام ومنعناهم من ظلم العباد والسعي في الارض بالفساد ومن قطع سبل المسلمين»(١٦٢) وارسلت اليهم - أي الدولة العثمانية - محمد علي ، ليكسر قوتهم ، التي كان من الممكن ان تحد من نشاط الوجود الانجليزي في الخليج .

وثانيا : لعدم تفاوضها مع محمد علي ، والوقوف معا ضد مطامع الدول الاستعمارية ولم تأخذ من مسألة الجزائر مؤشرا لبداية سقوط املاكهابالتدريج في قبضة اعداء الاسلام .

فكان تمسك السلطان العثماني بكرسي العرش ، قد اعماه عن رؤية الحقيقة ، وهي ان اعداء الاسلام والمسلمين ، لن يرتاحوا لقيام قوة اسلامية ، ويعتبرونها في اي مكان خطرا عليهم ومن ثم يجب القضاء عليها .

والغريب حقا ، ان زعماء العالم الاسلامي ، وقتذاك لم يدركوا كنه سياسة الدول الاوربية - ككل - فرغم وجود عداوات بينها في بعض الاحيان الا انها سرعان ما كانت تضرب بعداواتها عرض الحائط وتنسى خلافاتها ، وتلتقي سياساتها في خط واحد ، لمناصرة احد شعوبها ، ضد الحكم الاسلامي ، فمثلا

تضامنت بعض الدول الاوروبية ، بغض النظر عن مذاهبها الدينية المختلفة ، ضد الحكم العثماني في اليونان عام ١٨٢٧ ، وعقدت في لندن بروتوكولا في ٣ فبراير ١٨٣٠ ، تقرر بمقتضاه ان تصير اليونان دولة مستقلة رغم انف الدولة العثمانية .

فكانت البلاد الاسلامية او على الاقل البلاد العربية في حاجة ماسة الى وجود مثل هذا التضامن ، للتصدي للاخطار المحدقة بها من جانب الدول الاوربية .

ولما كانت الدولة العثمانية قد وصلت الى هذه المرحلة من الضعف سواء فى جهازها الادارى او قواتها العسكرية، وكانت مصر الاسلامية، فى امكانها، ان تكون وحدة قوية - على الاقل - من البلاد العربية، لانسجامها من حيث اللغة والعادات والتقاليد والتاريخ، وكانت لا ترى بأسا من ان تظل فى اطار دولة الخلافة العثمانية، فهل من المنطق، ان ننساق وراء اعداء العرب والمسلمين، ونردد ان محمد على، كان هدفه من توسعاته، الاستعمار، ام ان الرجل بذكائه وبعد نظره، رغم انه غير عربى، كان هدفه التعمير[١٦٣] والتصدى لمطامع الاستعماريين الاوربيين.

ولعل ما جاء في تقرير (جون بورنج) الذى حضر الى مصر عام ١٨٣٧، وكتب عن احوال البلاد ما يؤيد رأى الباحث، فقد جاء فى ذلك التقرير، (.. كل من ينعم النظر فى محاسن مصر من دخل وفير ومحصولات جديدة، وقيام سياسة التسامح وانتشار التعليم وادخال فنون الحرب البرية والبحرية وتحسن المواصلات والعمل على تأمين السائحين، واحترام السلطات ومسلك الباشا نفسه، يستطيع ان يطنب فى مزايا هذا الجانب المضىء .. ولو حكمنا على احوال الشعب بمقياس حضارتنا وطبقا لنوازع الخير الذى يدعو اليها الدين المسيحى، لوجدناها جديرة بالأسى، غير اننا اذا وازنا بين ما تم فى مصر بعد كفاح فى سبيل الاصلاح وما تم فى اى بلد اسلامى اخر، انتهينا الى نتائج على اكبر جانب من الفائدة والاهمية[١٦٤]...

محاولة خورشيد لتكوين وحدة من بلاد الخليج العربية:

تطلبت الامور من خورشيد، ان يبرهن لمحمد على، وهو فى تلك الظروف، انه جدير بتكليفه بمهمة فتح تلك الجهات، وتكوين وحدة منها، وربطها او ضمها الى حوزة الدولة الحديثة بشكل او باخر، وذلك بان يسرع فى اجراء عمليات التنسيق والحوار مع الزعماء العرب، على الساحل الغربى للخليج.

والواقع ان مسألة تطلع خورشيد الى بلاد الخليج العربية، اثارت عدة اراء لدى المؤرخين، فهل كانت بناء على خطة مرسومة فى القاهرة ام ان الظروف هى التى دعت خورشيد، ان يقوم بتحركاته

صوب الخليج العربى،

فيرى البعض ويرجح، ان المسألة كانت وليدة الظروف التى واجهت الحملة المصرية فى نجد، ويستندون الى اصرار خورشيد على الوصول الى بلاد الخليج العربية شمالا وجنوبا من البحرين، وفى الوقت نفسه لا ينفون فكرة ضرورة التواجد المصرى فى تلك الجهات منذ سقوط الدرعية(١٦٥).

والواقع ان مسألة الظروف لا تتعارض على الاطلاع مع وجود الفكرة اساسا فى سياسة القاهرة، فالمعروف تاريخيا، ان محمد على، كان يرسل قواته الى الجهة المراد فتحها، دون وضع خط جغرافى محدد او نقطة معينة، للوقوف عندها، فى بداية الامر، وانما كانت تحكم القادة، اعتبارات اخرى غير ذلك، فمثلا، حين تقدم الجيش المصرى لفتح السودان، لم تكن هناك نقطة محددة، للتوقف عندها، وكذلك الحال فى شبه جزيرة العرب، طالما لم تكن هناك عقبات، تدعو للتوقف، واذا كانت القوات المصرية قد انسحبت من الاحساء فى عام ١٨١٩(١٦٦)، ولم تكمل جولتها صوب الخليج، فقد حدث ذلك بناء على ظروف واعتبارات سبق واشرنا اليها.

اما فى هذه الجولة الثانية، فان الظروف تختلف كلية عن ظروف الجولة السابقة، فكان الهدف فى هذه المرة، هو تكوين جبهة قوية، تكون قادرة على صد المطامع الاستعمارية، وذلك بضم بلاد الخليج العربية، التى يمكن ان يفتحها قادة جيوش محمد على، سواء سلما او عن طريق القوة العسكرية، فكانت المسألة اذن، تتوقف على تقدير هؤلاء القادة، وان مهمة القاهرة فى كل الاحوال، هى ابداء المشورة، من منطلق ظروفها، والامداد بالتموين والسلاح.

لذلك نعتقد ان خورشيد باشا، جاء الى نجد وفى ذهنه فكرة الوصول الى بلاد الخليج العربية، لاكمال الدولة التى رسمها محمد على فى خطته السياسية ولوضع حد للتدخل الانجليزى المتزايد فى شئون تلك البلاد، وتدخل المسئولين الانجليز انفسهم فى ايجاد الحلول حول نزاعات المشايخ، وكانوا فى الحقيقة يرمون الى تمزيق المنطقة الى كيانات صغيرة وضعيفة(١٦٧)

وكان زمن الوصول الى تلك الجهات، يتوقف على ظروفه هو ـ اى خورشيد ـ من حيث وفرة مواد التموين والذخيرة، مع افادته القاهرة عن خطواته اولا بأول

ومن ناحية اخرى فان محمد على نفسه، لم يهمل مسألة الخليج، لاهميته فى تكوين دولته، رغم كل الظروف القاسية التى مر بها، وانما كانت هناك اولويات فى تنفيذ خططه السياسية، اجبرته الظروف والفائدة على اتباعها، والدليل على ذلك، انه رغم انشغاله فى حروب المورة، تدخل على الفور لمعالجة المشاكل بين سلطان مسقط ووالى العراق كما سبق واشرنا اليه.

اصلاح البلاد وراحة العباد[١٦٩]، من ناحية، ويعمل على فتح قنوات الاتصال مع بلاد الخليج العربية للارتباط مع حكومة محمد علي . من ناحية أخرى، فكان ان توصل الى عقد (اتفاقية تعاون) مع حاكم البحرين في اواخر مارس ١٨٣٩[١٧٠] ومن البحرين التي كانت تشكل في نظرة ـ اي خورشيد ـ اهمية خاصة، نظرا لموقعها الاستراتيجي في قلب الخليج، ومواردها الاقتصادية المتنوعة، بجانب امتلاكها اسطولا بحريا ممتازا، وفوق كل هذا وذاك تربص الانجليز وبعض القوى المحلية بها، امتدت تطلعاته منها الى الجنوب (الساحل العماني ومسقط) والى الشمال (الكويت والبصرة)، وقد تمكن من ان يربط بعض هذه البلاد، بشكل او باخر مع دولة محمد علي، وكان في طريقه الى ان يكون منها ـ اي بلاد الخليج العربية. وحدة سياسية، تشكل الاقليم الشرقي لتلك الدولة، وبالتالي كان من الممكن ان يصير الخليج العربي كالبحر الاحمر في قبضتها، خاصة وان العلاقات كانت ودية بين محمد علي وشاه ايران في ذلك الوقت.

ولعل ايران كانت ترحب بوجود محمد علي في الخليج، نكاية في انجلترا التي كانت تتدخل في امورها الداخلية من حين الى حين، من جانب، ولاشعار روسيا، التي كانت تتطلع اليها، بوجود قوة اسلامية قوية في الخليج من جانب اخر.



على اية حال في الوقت الذي اشتدت فيه الازمة بين محمد علي والسلطان (عبدالمجيد) ووضح للعيان، ان محمد علي، صارت له الكلمة العليا في الدولة العثمانية، خاصة بعد ان سلم الاسطول العثماني بقيادة (احمد باشا فوزى) نفسه لمحمد علي في مياه الاسكندرية بحجة ان استانبول اصبحت خاضعة لروسيا[١٦٨]، كان خورشيد في شرق الجزيرة ينفذ سياسة القاهرة الرامية الى

ولكن سرعان ما تصادمت هذه الخطوات الوحدوية مع السياسة البريطانية، التى كانت تخشى على مشروعاتها فى الخليج ومصالحها فى الهند، فكان ان ازدادت - انجلترا - تقاربا مع الدولة العثمانية، ومع بعض الدول الاوروبية، خاصة النمسا، التى كانت تتشدد فى الحفاظ على النظم القديمة، وتمكنت انجلترا من تحطيم محمد على وابادة دولته عن طريق معاهدة لندن (١٨٤٠) وكانت القوات المصرية تنسحب للمرة الثانية والاخيرة من الجزيرة العربية، تاركة ساحة الخليج العربى للنفوذ الانجليزى.

وهكذا فشلت تطلعات محمد على للخليج العربى، بسبب موقف السياسة البريطانية اولا، وبسبب قصر نظر الدولة العثمانية وضعفها ثانيا.

ولكن رغم فشل التجربة، الا انها كانت على اى حال، بادرة لا بأس بها، احدثت شيئا من اليقظة الفكرية والوعى السياسى، كانت البلاد فى حاجة اليهما، وصارت بلاد الخليج العربية، رغم سقوطها فى قبضة الحماية البريطانية، تتلمس الطريق الى ايجاد نوع من الوحدة او الاتحاد يضم شملها.

الهوامش

١ - يشكل البحر الأحمر الذراع اليسرى للمحيط الهندى .
٢ - د. محمد متولى ود. محمود أبو العلا : جغرافية الخليج - الخليج العربى وخليج عمان ودول شرق الجزيرة العربية - ص١١ وما بعدها . « الكويت ١٩٨٢ »
٣ - د. محمد رشيد الفيل : الأهمية الاستراتيجية للخليج العربى ص٣٦ ، الخليج العربى فى مواجهة التحديات . «محاضرات الموسمين الثقافيين السابع والثامن ١٩٧٤ - ١٩٧٥ » مطبوعات رابطة الاجتماعيين بالكويت .
٤ - د. محمد متولى ود. محمود أبو العلا : مرجع سابق . ص ١٥ - ١٦ .
٥ - للمزيد عن العلاقات التجارية خاصة فى العصور الوسطى أنظر :
د. أحمد عبدالحميد الشامى : العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى واثر ذلك فى بعض الجوانب الحضارية فى العصور الوسطى « القاهرة ١٩٧٨ » .
٦ - جذب موقع الخليج الاسكندر الأكبر فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ليقوم بحملة عسكرية ، لغزو جنوب العراق وايران والسند ، وكذلك جذب موقعه بالاضافة الى نشاطه التجارى ، دولة البرتغال فى بداية القرن السادس عشر ، لتسيطر عليه وتحرمه هذا النشاط ، وذلك بتحويل تجارة الشرق الى أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح والمحيط الاطلسى ، الأمر الذى ترتب عليه ان تفتحت عيون الدول الأوربية على الخليج العربى ، خاصة انجلترا ، لكونه احد الطرق المؤدية الى الهند .
٧ - تأسست شركة الهند الشرقية «الانجليزية» بقرار صدر من الملكة اليزابيث ملكة بريطانيا فى ٣١ ديسمبر ١٦٠٠ ، تضمن منح تلك الشركة امتياز التجارة فى الهند والشرق ، وتعود علاقتها بالخليج منذ أيامها الأولى فى الهند ، فصارت لها وكالات فى ايران (١٦١٦) والعراق والخليج العربى ، تحولت فى القرن الثامن عشر الى معتمديات ترعى الشئون السياسية ، الى جانب النشاط التجارى للشركة ، وصار ممثلوها فى البلاد يحملون صلاحيات القناصل

ومراكزهم ، وكانت الشركات البريطانية وغيرها من الشركات الأوربية ، مقدمة للاستعمار ، فقد ورثت الحكومات الأوربية هذه الشركات ، ومن ثم فرضت الاحتلال رسميا على مستعمراتها ، ونرى هذه الصورة واضحة في آسيا وافريقيا ، أنظر :

د. صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي « القاهرة ١٩٧٤ » .

د. شوقي الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها « القاهرة ١٩٧١ » .

— Cambridge History of India vol. I—V- edited by Dodwell- H.H- Combridge 1929.

— Panikar- K.M : Asia and Western. Calcutta 1953

٨ ـ للمزيد أنظر :

د. صلاح العقاد : معالم التغير في دول الخليج العربي ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية .

٩ ـ للمزيد انظر :

د. عبدالكريم غرايبه : قيام الدولة السعودية العربية ، «القاهرة ١٩٧٤» .

١٠ ـ د. حسين مؤنس : الشرق الاسلامي في العصر الحديث . ص١٩٢ وما بعدها .

١١ ـ للمزيد أنظر :

د. عبدالرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار حـ ٤ ص٩٧ وما بعدها «القاهرة ١٣٢٢هـ»

١٢ ـ دفتر رقم (١) معيه تركي ، وثيقة رقم (٥) بتاريخ ٨ شوال ١٢٢٢ هـ (الموافق ٩ سبتمبر ١٨٠٧) م دار الوثائق القومية بالقلعة ـ القاهرة

١٣ ـ دفتر رقم (١) معيه تركي ، وثيقة رقم (٧) بتاريخ ١١ محرم١٢٢٣ هـ (الموافق ٩ مارس ١٨٠٨) م

١٤ ـ وصف الجبرتي ، موكب الاسرى البريطانيين في القاهرة ، بعد هزيمتهم في معركة رشيد في ٣١ مارس ١٨٠٧ ، وصفا رائعا ، أنظر ، حـ٤ ص٤٧ وما بعدها ، مرجع سابق .

١٥ ـ دفتر رقم (١) معيه تركي ، وثيقة رقم (٧٠) بتاريخ ٩ شعبان ١٢٢٦ هـ (الموافق ٢٩ اغسطس ١٨١١) م

١٦ ـ د. السيد رجب حراز : المدخل الى تاريخ مصر الحديث . ص٢٤٩ وما بعدها «القاهرة ١٩٧٠» م

١٧ ـ حتى يكسر محمد علي تلك الزعامات ، نفى عمر مكرم نقيب الأشراف الى دمياط في ١٢ أغسطس ١٨٠٩ ، ودبر مذبحة القلعة في اول مارس ١٨١١ للتخلص من زعماء المماليك ، انظر :

الجبرتي : مرجع سابق . حـ ٤ . ص٩٧ وما بعدها .

١٨ ـ يلاحظ ان المغرب الاقصى «مراكش» لم تخضع للدولة العثمانية ، وظلت مستقلة الى ان سقطت في قبضة الاحتلال الاسباني والفرنسي في عام ١٩١٢ .

١٩ ـ دفتر رقم (١) معيه تركي ، وثيقة رقم (٥٤) بتاريخ ٢٧ شوال ١٢٢٥ هـ

(الموافق ٢٥ نوفمبر ١٨١٠) م
٢٠ ـ د. أحمد عزت عبدالكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث . ص٢٣١ وما بعدها . «بيروت ١٩٧٠» .
٢١ ـ د. أحمد عزت عبدالكريم : سياسة مصر واستراتيجيتها في البحر الأحمر على عهد الحملة الفرنسية ومحمد علي : مقال في كتاب البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ص٣٤٢ . «جامعة عين شمس القاهرة ١٩٨٠»
٢٢ ـ للمزيد انظر :

Mohammed Sabry : L- Empire Egyptian
Sous Mohammed Ali et la Question d'orient, 1811 — 1848, Paris 1930

٢٣ ـ للمزيد انظر :
د. عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم : الدولة السعودية الأولى . ص٢٩٧ وما بعدها «القاهرة ١٩٧٥» .
٢٤ ـ عبدالرحمن الرافعي : عصر محمد علي . ص١٠٩ وما بعدها «القاهرة ١٩٥١»
٢٥ ـ محفظة رقم (١) ذوات ، وثيقة رقم (٢) بتاريخ ١٢٢٦ هـ (الموافق ١٨١١) م
٢٦ ـ محفظة رقم (٤) بحر برا ، وثيقة رقم (١٤٨) بتاريخ ٢١ رجب ١٢٣٠ هـ (الموافق ٢٩ يونيو ١٨١٥) م
٢٧ ـ دفتر رقم (١) معية تركي ، وثيقة رقم (٥٤) بتاريخ ٢٧ شوال ١٢٢٥ هـ (الموافق ٢٥ نوفمبر ١٨١٠) م
٢٨ ـ محفظة رقم (٣) بحر برا ، وثيقة رقم (٨٢) بتاريخ محرم ١٢٢٧ هـ
٢٩ ـ الجبرتي : مرجع سابق . حـ ٤ . ص١٧٩ وما بعدها .
٣٠ ـ د. يونان لبيب رزق وآخرون : أوربا في عصر الراسمالية . ص٢٧٥ «القاهرة ١٩٨٣»
وكذلك د. جلال يحيى : العالم العربى الحديث . ص٨٤ «الأسكندرية ١٩٧٤»
٣١ ـ الجبرتي : مرجع سابق . حـ ٤ . ص ١٨١ وما بعدها : هذا وقد قتل لطيف باشا ومن معه بعد ان حاول الهرب والاختفاء .
٣٢ ـ محفظة رقم (٤) بحر برا ، وثيقة رقم (٣٥) بتاريخ ٦ شوال ١٢٣٠ هـ (الموافق ١١ سبتمبر ١٨١٥) م
٣٣ ـ د. عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم : مرجع سابق . ص٣٢٢ وما بعدها
٣٤ ـ محفظة رقم (٤) بحر برا ، وثيقة رقم (٦٤) بتاريخ ٢٥ شعبان ١٢٣١ هـ (الموافق ٢١ يوليو ١٨١٦) م
٣٥ ـ أشعل ابراهيم باشا النيران في الدرعية ولعل هذا كان بأوامر من الباب العالى ، وكان من بين شروط الاستسلام ، سفر الأمير عبدالله بن سعود الى القاهرة (١٦ نوفمبر ١٨١٨) ومنها الى الاستانة ، حيث لقى حتفه هناك . انظر :
د. صلاح العقاد : الحملة المصرية في شبه جزيرة العرب ١٨١١ ـ ١٨١٨ . ص١٠٧ وما بعدها ، مجلة الخليج والجزيرة العربية ، العدد السادس

السنة الثانية ـ ابريل ١٩٧٦
٣٦ ـ محفظة رقم (٦) بحر برا ، وثيقة رقم (١١٧) بتاريخ ٢١ ذي القعدة ١٢٣٤ هـ (الموافق ١٣ سبتمبر ١٨١٩) م
٣٧ ـ للمزيد أنظر : عبدالرحمن الرافعي : مرجع سابق
٣٨ ـ محمد عبدالقادر الانصاري : تاريخ الاحساء . ص١٤٤ وما بعدها « الرياض ١٩٦٠ »
٣٩ ـ محفظة رقم (١) ذوات ، وثيقة رقم (٩٤) بتاريخ ٩ رمضان ١٢٣٣ هـ (الموافق ١٣ يوليو ١٨١٨) م
٤٠ ـ ذات الوثيقة السابقة
٤١ ـ الانصاري : مرجع سابق . ص١٤٤ وما بعدها
٤٢ ـ كان ارحمة بن جابر الجلاهمة ، يمثل القوة العربية البحرية في الخليج المساعدة لابراهيم باشا ولقواته وقتذاك ، انظر :
د. جمال زكريا : ارحمة بن جابر الجلاهمة . حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، المجلد التاسع ١٩٦٤ .
٤٣ ـ د. عبدالعزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ص١٨٨ وما بعدها «القاهرة ١٩٦٨»
٤٤ ـ د. عبدالعزيز نوار : داود باشا . ص٢٣٠ وما بعدها «القاهرة ١٩٦٨»
٤٥ ـ د. جمال زكريا : الخليج العربي ـ دراسة لتاريخ الامارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول . ص٤٥٨ . القاهرة ١٩٨٥
٤٦ ـ الانصاري : مرجع سابق . ص١٤٤ وما بعدها
٤٧ ـ د. مهدي جواد حبيب : الصراع العثماني الفارسي وأثره على العراق حتى اواخر القرن التاسع عشر ـ ص٩٣ وما بعدها ـ الحدود الشرقية للوطن العربي ، دراسة تاريخية ، مجموعة ابحاث أصدرتها جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق « بغداد ١٩٨١ »
٤٨ ـ محفظة رقم (١) بحر برا ، وثيقة رقم (٤٩) بتاريخ ١٩ شعبان ١٢٢٥ هـ (الموافق ١٩ سبتمبر ١٨١٠) م
٤٩ ـ د. تمام همام تمام : الرقيق والجندية في نظر محمد علي . ص١٢٨ ـ المجلة التاريخية المصرية «القاهرة ١٩٨٣»
٥٠ ـ ذات المرجع السابق . ص٣٠
٥١ ـ د. مكي شبيكه : السودان في قرن (١٨١٨ ـ ١٩١٩) ص١٢ وما بعدها «القاهرة ١٩٤٧»
٥٢ ـ د. راشد البراوي : مجموعة الوثائق السياسية ـ المركز الدولي لمصر والسودان وقناة السويس . ص٩ وما بعدها « القاهرة ١٩٥٢ »
٥٣ ـ Dodwell- H. : The Founder of Modern Egypt- Study of Mohamed Ali. p. 50. Camb. 1931
٥٤ ـ د. السيد رجب حراز : المدخل الى تاريخ مصر الحديث . ص٢٣٦ وما بعدها « القاهرة ١٩٧٠ »
٥٥ ـ د. عبدالعزيز الشناوي ود. جلال يحيى : وثائق ونصوص التاريخ الحديث

والمعاصر . ص٥٥١ « القاهرة ١٩٦٩ »
٥٦ ـ عبدالرحمن الرافعي : مرجع سابق
٥٧ ـ د. أحمد عزت عبدالكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، ص٢٣٠
٥٨ ـ د. جلال يحيى : مصر الافريقية والأطماع الاستعمارية في القرن التاسع عشر ص٤٨ « القاهرة ١٩٦٧ »
٥٩ ـ د. عبدالرحمن زكي : أعلام الجيش والبحرية في مصر في القرن التاسع عشر حـ ١ ص ٣٥ وما بعدها «القاهرة ١٩٤٧»
٦٠ ـ د. تمام همام تمام : جهود محمد علي للحد من انتشار تجارة الرقيق في السودان . ص٢٦ وما بعدها ، مجلة الدراسات الافريقية ـ العدد السابع ، جامعة القاهرة ١٩٧٨ .
٦١ ـ كان السودان مقسما الى عدة ممالك وسلطنات مثل سلطنة الفونج الزرقاء في سنار ، وسلطنة الفور في دار فور ، ومملكة تقلي في منطقة جبال النوبا غرب النيل ، وكانت المنطقة من اسوان حتى وادى حلفا «النوبة» ، تخضع لحكومة الكشاف الأتراك ، وخضعت سواكن ومصوع على البحر الأحمر للدولة العثمانية ، وكانت هناك في جنوب السودان ممالك وثنية تتمثل في الشلك والدنكا والبارى والنوير ، انظر للباحث :
الرقيق والجندية في نظر محمد علي ، مرجع سابق . ص١٢٢ وما بعدها
٦٢ ـ د. شوقي الجمل : تاريخ سودان وادى النيل حـ ٢ ص٢٣ «القاهرة ١٩٦٩»
٦٣ ـ Burchardt- L. : Nots On the Bedouins and Wahabys- PP.251 — 252. London 1930
٦٤ ـ دفتر رقم (٤) معيه تركي : وثيقة رقم (٦٣) بتاريخ ١٣ رمضان ١٢٣٦ هـ
٦٥ ـ Fortscue- J.W. : Ahistoy of the British Army- Vol.VP 17
٦٦ ـ Ghorbal, Shafik: The beginnings of the Egyptian question and the rise of Mehemet Ali. P. 156. "1928"
٦٧ ـ د. عبدالحميد البطريق : من تاريخ اليمن الحديث (١٥١٧ ـ ١٨٤٠)
٦٨ ـ د. بدرالدين عباس الخصوصي : دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر حـ ١ ص١٩٥ وما بعدها «الكويت ـ ١٩٨٤»
٦٩ ـ دفتر رقم (٧) معيه تركي . مسلسل ٢٨٢ بتاريخ ٢٧ شوال ١٢٣٦
٧٠ ـ د. مهدى جواد حبيب : مرجع سابق . ص٨٥
٧١ ـ د. صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي . ص٩٩ وما بعدها «القاهرة ١٩٧٤»
٧٢ ـ Miles- S. B. : The Countries and Tribe of the Persian Gulf. P. 324. London 1919
٧٣ ـ محفظة رقم (٦) بحر برا ، وثيقة رقم (١١٥) بتاريخ ٢١ ذى القعدة ١٢٣٤ هـ (الموافق ١٣ سبتمبر ١٨١٩) م
٧٤ ـ محفظة رقم (٧) عابدين ، وثيقة رقم (٢٠٩) بتاريخ ١٦ جمادى الآخرة ١٢٣٥ هـ/ ٣١ مارس ١٨٢٠ ، نقلا عن د. عبدالرحيم عبدالرحمن ، من وثائق

شبه الجزيرة العربية في عصر محمد علي المجلد الأول ص٤٧٦ وما بعدها ، الدوحة ١٩٨٢

٧٥ ـ د. جاكلين اسماعيل : سياسة بريطانيا في الخليج والكويت في القرن التاسع عشر . ص١١ وما بعدها ـ مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ـ العدد السادس عشر ـ السنة الرابعة ـ جامعة الكويت

٧٦ ـ محفظة رقم (٧) عابدين ، ذات الوثيقة السابقة

٧٧ ـ د. عبدالعزيز نوار : داود باشا . ص٢٣٠ وما بعدها » القاهرة ـ ١٩٦٨ «

٧٨ ـ د. صلاح العقاد : مرجع سابق . ص١٠٣

٧٩ ـ كان ارحمة بن جابر ، على عداء مع حكام البحرين ، ومن ثم رفض ان يوقع على معاهدة السلام العامة (١٨٢٠) حتى لا تحد من تصرفاته العدائية في المنطقة .

٨٠ ـ للمزيد عن القواسم انظر : صالح محمد العابد : دور القواسم في الخليج العربي «بغداد ـ ١٩٧٦»

٨١ ـ جون. ب. كيلي : بريطانيا والخليج ١٧٩٥ ـ ١٨٧٠ ـ الجزء الاول ترجمة محمد امين عبدالله . ص٨١ وما بعدها . سلطنة عمان ١٩٧٩

٨٢ ـ للمزيد عن ارحمة بن جابر انظر :
د. جمال زكريا : حوليات كلية الآداب ـ جامعة عين شمس ، المجلد التاسع ـ القاهرة ١٩٦٤

٨٣ ـ Arabian Gulf Intelligence, Selections from the Records of the Bombay Government, New Series, No. XXIV, 1856, Historical Sketch of the Rise and Progress of the Government of Muskat, PP. 191-192

٨٤ ـ كيلي : بريطانيا والخليج .. مرجع سابق حـ ١ ص٤٦٢ وما بعدها

٨٥ ـ قامت في هذه الولاية العثمانية ثورة ضد الحكم التركي في عام ١٨٢١ وأعلن اليونانيون استقلالهم في ١٨٢٢ ، فطلب السلطان العثماني الى محمد علي حاكم مصر ، القضاء على هذه الثورة . واستجاب محمد علي لطلب السلطان ، ودخل هذه الحرب البعيدة عن الميدان العربي ، واستمرت الحرب في كريت والمورة حوالى سبع سنوات (١٨٢٢ ـ ١٨٢٨) خسرت مصر خلالها اسطولها الحربي وحوالى ثلاثين الفا من الجنود وما يقرب من مليون جنيه ، تكاليف ومصروفات الحملة ، وانتهت بنزاع مرير مع السلطان العثماني ، استهل به محمد علي الدور الثاني من سياسته الخارجية .

٨٦ ـ Historical Sketeh ... OP. Cit- Muskat- P.192

٨٧ ـ د. جمال زكريا : الخليج العربي .. مرجع سابق ص٤٥٩ ـ ٤٦٠

٨٨ ـ Historical Sketck ... OP. Cit- Muskat- P.195

٨٩ ـ د. عبدالعزيز نوار : التأثير الاستراتيجي والسياسي المتبادل بين منطقتي البحر الاحمر والخليج العربي في النصف الأول من القرن التاسع عشر . ص٢٥٠ ـ البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ـ جامعة عين شمس ـ القاهرة ١٩٨٠ .

٩٠ ـ أمين الريحاني: نجد وملحقاته ص ٩١ وما بعدها «بيروت ١٩٧٢» وللمزيد عن تاريخ الاحساء انظر:
د. محمد عرابى نخلة: تاريخ الاحساء السياسى ١٨١٨ ـ ١٩١٣ «الكويت ١٩٨٠».
٩١ ـ عبدالرحمن الرافعي: مرجع سابق
٩٢ ـ دفتر رقم (٤٠) معية تركي، وثيقة رقم (٤١٢) ووثيقة رقم (٤١٣) بتاريخ ٢٧ صفر ١٢٤٦هـ (الموافق ١٨ اغسطس ١٨٣٠)
٩٣ ـ د. زاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث ص ٣٤٢ وما بعدها «بيروت ١٩٧٥».
٩٤ ـ عبدالرحمن الرافعي: مرجع سابق.
٩٥ ـ ترتب على علاقة فرنسا بمحمد علي، دعوتها اليه ليرسل حملة عسكرية لفتح الجزائر لحسابها، ونظرا لفشل المشروع، ارسلت حملتها منفردة واستولت على الجزائر في عام ١٨٣٠.
٩٦ ـ يقال ان غرض ابراهيم باشا كان الدخول الى القسطنطينية، لانزال السلطان محمود الثاني عن العرش، والتوصل الى شروط للصلح في مصلحة محمد علي.
٩٧ ـ India office, Factory Records, From Farren to Secret Committee, 2 — 5 — 1832, Persia and the Persian Gulf, Vol. 47. PP. 247 — 266
٩٨ ـ دفتر رقم (٤٠) معية تركي، وثيقة رقم (٨٢٣) بتاريخ ٩ صفر ١٢٤٨ هـ (الموافق ٨ يوليو ١٨٣٢م).
٩٩ ـ كيلي: مرجع سابق. حـ ١ ص٤٦٦
١٠٠ ـ جورج يانج: تاريخ مصر من عهد المماليك الى نهاية حكم اسماعيل، تعريب علي احمد شكرى «القاهرة ١٩٣٧».
١٠١ ـ اقنعت روسيا السلطان العثماني، ان كيان دولته يتوقف على مساعدة روسيا له، ومحالفتها اياه، وتمكنت في ٨ يونيو ١٨٣٣ من ابرام معاهدة (هنكار اسكلسى) مع الباب العالى، وهى معاهدة هجومية دفاعية لمدة ثماني سنوات، وكانت سرية وبدون علم الدول الاخرى، وقد ترتب على هذه المعاهدة، ان بدأت روسيا عهدا جديدا في سياستها ازاء تركيا والمسألة الشرقية بصفة عامة، فتحولت سياستها الرامية الى تقسيم تركة الرجل المريض صراحة الى بسط الحماية الروسية عليها، وقد ترتب على ذلك متاعب جديدة في افق السياسة الدولية، احدثت أثارا هامة في السياسة المصرية. هذا وقد حقد بالمرستون على حاكم مصر الذى كان السبب في اعطاء الروس هذه الفرصة.
١٠٢ ـ كيلي: مرجع سابق. حـ ١ ص ٤٧٥ ـ ٤٧٧.
١٠٣ ـ يلاحظ ان تجربة تجنيد السودانيين في الجيش الحديث لم تنجح، ومن ثم لجأ محمد علي الى تجنيد ابناء الفلاحين المصريين، فصاروا يؤلفون الجيش النظامي، الذى انتظمت به وحدات من السودانيين.
١٠٤ ـ للمزيد انظر د. محمد فؤاد شكرى واخرين: بناء دولة مصر محمد علي (السياسة الداخلية) «القاهرة ١٩٦٧».
١٠٥ ـ كيلي ج. ب: الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية، تعريب خيرى حماد

ص٩٧ وما بعدها «بيروت ١٩٧١» وكذلك بريطانيا والخليج حـ ١ ص٣٨٢ ـ ٣٨٣ وكذلك د. صلاح العقاد: التيارات السياسية.. مرجع سابق ص ١٢١ وما بعدها.

١٠٦ ـ Arabian Gulf Intelligence. Selections From the Records of the Bombay Goverment. New Series. NO.X X IV. 1856. Histoical Sketch of the Wahabee of Arabs. p p. 437 — 438.

١٠٧ ـ Ibid. pp. 438 — 439

١٠٨ ـ للمزيد انظر: عثمان بن بشر: عنوان المجد في تاريخ نجد حـ ٢ . ص٥٠ وما بعدها «الرياض»

١٠٩ ـ محمد بن خليفة النبهاني: التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية ص١٥٥ وما بعدها «مصر ١٣٤٢ هـ»

١١٠ ـ Historical Sketch.. op. Cit Muskat pp 207 — 208

١١١ ـ د. صلاح العقاد ود. جمال زكريا: زنجبار «القاهرة ١٩٥٩».

١١٢ ـ Kelly. j. b. Britain and the Persian Gulf. p. 289 London 1968

١١٣ ـ Historical Sketch ... op. Cit. Wahabees pp. 439 — 440.

١١٤ ـ Histoical Sketch... op. Cit. Wahabees. pp. 443 — 444.

١١٥ ـ كيلي: مرجع سابق، حـ ١ . ص٤٠٦ ـ ٤٠٧.

١١٦ ـ لوريمر: دليل الخليج: حـ ٣ . ص ١٤٣٦ ـ القسم التاريخي «طبعة جديدة معدلة ومنقحة . أعدها قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو امير دولة قطر».

١١٧ ـ د. جمال زكريا: الخليج العربي «دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٨٤٠ ـ ١٩١٤» ص ٦٥ وما بعدها «القاهرة ١٩٦٦»

١١٨ ـ Arabian Gulf Intelligence. Selections From the Records of the Bombay Vernment. New Series. No. X X I V. 1856. Historical Sketch of Uttoobee Tribe of Arabs; Bahrain p. 386

١١٩ ـ كان الأمير خالد بن سعود من اكبر الذكور الأحياء من اخوة الأمير عبدالله ابن سعود آخر امراء الدولة السعودية الأولى، وكان ابراهيم باشا اصطحبه معه بعد سقوط الدرعية، فعاش في مصر حوالي ثمانية عشر عاما

١٢٠ ـ Histocal Sketch.. op. Cit. Wahabees pp. 443 — 444

١٢١ ـ للمزيد انظر عرض المملكة العربية السعودية، حـ ١ «القاهرة ١٩٥٥»

١٢٢ ـ انظر على سبيل المثال.
السالمي «ابي محمد عبدالله بن حميد بن سلوم» تحفة الأعيان بسيرة اهل عمان حـ ٢ ص١٥٧ وما بعدها «القلعة بمصر بدون تاريخ

١٢٣ ـ د. جلال يحيى: العالم العربي «المدخل» ص٨٤ الاسكندرية ١٩٧٤

١٢٤ ـ Saab, H : Arab Federalists of the Ottoman Empire. p. 165 «1958»

١٢٥ ـ Ibid: pp. 140 — 150

١٢٦ ـ د. جلال يحيى: مرجع سابق ص ٨٤

١٢٧ ـ انظر للباحث: الاستعمار والثقافة الاسلامية، سلسلة مقالات منشورة في مجلة الهداية الاسلامية في عامي ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦ ـ وزارة العدل والشئون

الاسلامية ـ دولة البحرين.
١٢٨ ـ محفظة رقم (٢٦٤) ترجمة الوثيقة رقم (٢٦١) حمراء، بتاريخ ٢٢ شعبان ١٢٥٣هـ.
١٢٩ ـ عثمان بن بشر: مرجع سابق. جـ ٢ . ص١١ وما بعدها.
١٣٠ ـ محفظة رقم (٢٦٤) صورة الوثيقة العربية المؤرخة في ٢٩ محرم ١٢٥٤ هـ.
١٣١ ـ نظرا لمعارضة ابن السلطان للاتفاقية وتاثيره على والده، انتهى الأمر بان احتلت القوات البريطانية بالقوة عدن في ١٨ يناير ١٨٣٩ قبل وصول القوات المصرية اليها. للمزيد انظر: د. فاروق اباظة: عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر (١٨٣٩ ـ ١٩١٨) «القاهرة ١٩٧٦»
١٣٢ ـ د. صلاح العقاد: معالم التغير في دول الخليج العربي ـ الفصل الأول.
١٣٣ ـ B.J. Kelly: Britain and the persian gulf. PP. 134 — 149 — london 1968.
١٣٤ ـ تغاضت انجلترا في البداية عن توسع محمد علي في الشام، طالما ان ذلك لا يمس امن مواصلاتها الى الشرق، ولأن مسألة الحفاظ على املاك الدولة العثمانية، كان الهدف منه اساسا ان تضمن طرق تلك المواصلات تحت اشراف دولة ضعيفة مثل تركيا وقتذاك، وفي الوقت نفسه ابعاد روسيا من الاقتراب من هذه الطرق، والا لماذا تغاضت انجلترا عن احتلال فرنسا للجزائر في عام ١٨٣٠ ، وكانت هذه ولاية عثمانية، ولعل الاجابة ايضا هي بعد الجزائر عن طرق مواصلاتها الى الهند.
١٣٥ ـ د. حسين مؤنس: الشرق الاسلامي في العصر الحديث ص ١٦٦
١٣٦ ـ جورج يانج: مرجع سابق ص ٥٨
١٣٧ ـ F. O .78 — 233 — Ellis: Memmorandum on Moh. Ali: Pasha of Egypt. 9 —1 , 1833
١٣٨ ـ محفظة رقم (٤) بحر برا، وثيقة رقم (١٣١) بتاريخ ٣ شوال ١٢٣٢ (الموافق ١٦ اغسطس ١٨١٧)
١٣٩ ـ F. O. 78 — 25B Copy of a translation of a persian letter from his Magesty theKing of persia to his E. MHO. ALI Pasha of Egypt July 1833
١٤٠ ـ كيلي: بريطانيا والخليج.. مرجع سابق جـ ١. ص٥٠٣ ـ ٥٠٤ .
١٤١ ـ ذات المرجع ص٥٠٥
١٤٢ ـ Hill. R: Egypt in the Sudan 1820 — 1881 p. 8 London 1959
١٤٣ ـ د. عبدالحميد البطريق: مرجع سابق. ص ٥٧ وما بعدها
١٤٤ ـ د. مهدي جواد حبيب: مرجع سابق. ص١٠٢ ـ ١٠٥ هذا وقد استبدلت اسم المحمرة الى خورمشهر، بعد احتلال الفرس لعربستان ، ذات المرجع ص ١١٢
١٤٥ ـ د. بدر الدين الخصوصي : مرجع سابق جـ ١ . ص٥٠٦
١٤٦ ـ كيلي : بريطانيا والخليج .. مرجع سابق جـ ١ ص ٥٠٦

١٤٧ ـ محفظة رقم (٢٦٤) عابدين، رقم الوثيقة (٢٦١) حمراء، المرفق العربي (هـ) بتاريخ ٢٣ شعبان ١٢٥٣ (٢٢ نوفمبر ١٨٣٧) نقلا عن د. عبدالرحيم عبدالرحمن ، من وثائق شبه الجزيرة العربية .. المجلد الأول ، مرجع سابق . ص٥٨٢

١٤٨ ـ محفظة رقم (٢٦٤) وثيقة رقم (٤٨) حمراء (٩) اصلية، بتاريخ رجب ١٢٥٤ (اكتوبر ١٨٣٨).

ويلاحظ انه بعد سقوط دلم، ارسل الأمير فيصل الى القاهرة تحت قوة السلاح في ديسمبر ١٨٣٨ انظر :

Historical Sketch... op. Cit. Wahabees pp. 445 — 447

١٤٩ ـ د. الخصوصي : مرجع سابق ص١٣٢

١٥٠ ـ Historical Sketah... op. Cit. — Wahabees. p. 445 وكذلك لوريمر: جـ ٣ .ص١٤٣٧ .

١٥١ ـ محفظة رقم (٢٦٤) وثيقة رقم (٥٨) أصلية ، (١١) حمراء بتاريخ ٤ شوال ١٢٥٤ هـ (الموافق ٢٠ ديسمبر ١٨٣٨م

١٥٢ ـ محمد بن خليفة النبهاني : التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية ص١٣ وما بعدها «ط٢ مصر ١٣٤٢ هـ

١٥٣ ـ محفظة رقم (٢٦٧) وثيقة رقم (٤٠) اصلية، (١٠) حمراء بتاريخ ٢٩ رمضان ١٢٥٥ هـ (الموافق ٢٧ فبراير ١٨٣٩).

١٥٤ ـ عثمان بن بشر : مرجع سابق جـ ٢ ص ٨٠ وما بعدها .

١٥٥ ـ محفظة رقم (٢٦٤) وثيقة رقم (١١) بتاريخ ١٢ ذي القعدة ١٢٥٤ (الموافق ٢٨ يناير ١٨٣٩) .

١٥٦ ـ محفظة رقم (٢٦٧) وثيقة رقم (١) اصلية، (٦) حمراء بتاريخ ١٧ محرم ١٢٥٥ (الموافق ٢ ابريل ١٨٣٩)

١٥٧ ـ محفظة رقم (٢٦٧) وثيقة رقم (٢) اصلية، (٣٧) حمراء بتاريخ ٢٩ محرم ١٢٥٥ هـ (الموافق ٤ ابريل ١٨٣٩).

١٥٨ ـ كان محمد علي قد بلغ سن السبعين عاما تقريبا وقتذاك، ويقول الاخوة السودانيون، ان محمد علي كان يريد ان يتعرس «يتزوج» من احدى السودانيات.

١٥٩ ـ قبل ان تصل اخبار هزيمة الجيش التركي الى القسطنطينية، كان السلطان محمود الثاني، العدو التقليدي لمحمد علي، قد توفاه الله في ٢١ يونيو ١٨٣٩، وخلفه على العرش إبنه عبدالمجيد الذي كان شابا لا يتجاوز عمره السادسة عشرة .

١٦٠ ـ محفظة رقم (٢٦٧) وثيقة رقم (٤) اصلية، (٣٨) حمراء بتاريخ ١٩ محرم ١٢٥٥هـ (الموافق ٤ ابريل ١٨٣٩ .

١٦١ ـ د. عبدالعزيز نوار: تاريخ العراق الحديث . ص ٢١٨ (القاهرة ١٩٦٨)

١٦٢ ـ د. عبدالكريم غرايبة: قيام الدولة السعودية العربية القاهرة ١٩٧٤

١٦٣ ـ Taynbee. A: A Study of Histoy vol 111 p. 247 «1951»

١٦٤ ـ انظر ترجمة التقرير في: د. محمد فؤاد شكرى واخـرون : بناء دولة مصر محمد علي ص ٣٣٧ وما بعدها «القاهرة ١٩٤٨».

١٦٥ ـ د. عبدالعزيز نوار: تاريخ العراق الحديث ص ٢١٥، وكذلك د. الخصوصى : مرجع سابق . ص١٣٤ وما بعدها

١٦٦ ـ للمزيد عن تاريخ الاحساء انظر: د. محمد عرابى نخلة: مرجع سابق ص ٣٥ وما بعدها

١٦٧ ـ كالفن هـ آلن: اسلوب المصالحة البريطانية واثره في تجزئة امارات الخليج «دراسة لوضع دبي بين ١٨٣٣ ـ ١٨٥٣» ص٦٩ وما بعدها مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد الحادى عشر السنة الثالثة يوليو ١٩٧٧.

١٦٨ ـ د. ياسين عبدالكريم : اتفاقيات الحدود الشرقية الى نهاية القرن التاسع عشر ـ الحدود الشرقية للوطن العربى.. مرجع سابق ص ٢٠٧ وما بعدها.

١٦٩ ـ د. عبدالحميد البطريق: مرجع سابق: ص ٥٧ وما بعدها. وينطبق معنى هذه العبارة بصورة واضحة وادق في السودان، انظر للباحث: جهود محمد علي للحد من انتشار تجارة الرقيق مرجع سابق.

١٧٠ ـ نظرا لاهمية هذه الاتفاقية، سيفرد الباحث لها دراسة خاصة بمشيئة الله .

تطوّر علاقة القرامطة بالسّلطة العبّاسيّة

بقلم :
الدكتور
عبدالله
أبوعزة
المجمع الثقافي
- أبوظبي

جنوب العراق



القرمطية تبدأ بالعنف والضراوة

فرقة من القرامطة في جيش الخليفة

عندما ظهر القرامطة في جنوب العراق بعد سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م كانت الخلافة العباسية قد استعادت بعض قوتها بعد تدهورها اثر مقتل الخليفة المتوكل. ولقد استمرت هذه المرحلة خمس عشرة سنة فقط اذ سرعان ما ذهبت بقايا قوة الخلافة الى غير رجعة بعد تولي جعفربن احمد الخلافة سنة ٢٩٥هـ، وهو الذي لقب بالمقتدر. واستمر عهد المقتدر خمسا وعشرين سنة كانت السلطة اثناءها ممزقة بفعل التنازع بين القوى المتصارعة على الغلبة والنفوذ. ولم تنته حالة التمزق بعد قتل المقتدر وتولية القاهر، بل استمرت وازداد تفاقمها الى ان جاء البويهيون وسيطروا على العراق سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م. وأثناء الاربعين سنة التي سبقت مجيء البويهيين كانت القوى العسكرية هي التي تتنازع السلطة، فكان هناك قادة القوات المرتزقة التي تشكل منها الجيش العباسي مثل ياقوت وبجكم ومحمدبن رائق ومؤنس، كما كان هناك امراء بني حمدان، وابرزهم ناصر الدولة الحسن بن حمدان. أما الخليفة نفسه، أي بشخصه، فلم يكن سوى رمز اجوف يتركز في وظيفته وحولها شيء من بقايا النفوذ الروحي وبقايا التعلق بمعنى الخلافة الديني[١].

لهذا فإننا عندما نتحدث عن «تطور علاقة القرامطة بالسلطة العباسية» انما نعني علاقة القرامطة بهذه القوى مجتمعة ومنفردة، قبل سنة ٣٣٤هـ، وعلاقتهم بالملوك البويهيين وبقبول الخلافة العباسية من حيث المبدأ. ولا مراء في ان وصفنا للسلطة بأنها عباسية ـ في هذه الفترة ـ والحاق صفة «العباسية» بها يفتقر الى الدقة، اذ اننا اضطررنا الى استعمال هذه الصفة لأنها الشيء الوحيد الذي يمكن ان يجمع تلك القوى المتعددة تحت عنوان واحد. ولسنا نعني بالسلطة، سلطة شاغلي منصب الخلافة بأي

وتتحول إلى المساومة وتبادل المنافع

العباسي لمحاربة الحمدانيين

حال. ولقد واجه المؤرخون المعاصرون ـ كالطبري ـ هذه المشكلة التعبيرية فلجأوا الى استعمال اصطلاح «السلطان» وذلك عند الحديث عن الأعمال التي كانت تقوم بها القوى المتحكمة في بغداد. فقد ادركوا ان نسبة العمل الى الخليفة غير صحيحة ولذلك لجأوا الى تعبير «السلطان» للدلالة على ما نعنيه في ايامنا باستعمال كلمة «السلطات». ولم تكن لفظة السلطان قد صارت لقبا لمنصب محدد يحمله شاغل ذلك المنصب، كما حدث في عهد السلاجقة ومن بعدهم. ولولا خشيتنا من ان يختلط المعنيان لفضلنا استعمال كلمة «السلطان» على لفظ السلطات.

كانت هذه مقدمة لابد منها حتى لا يقع القارىء في أي لبس او ابهام.

القرامطة والخلافة العباسية :

كانت الخلافة العباسية هي المركز الذي تنصب عليه النقمة والعداء طوال مرحلة تكوين الحركة القرمطية الاسماعيلية. ولقد صورتها الحركة وتصورها انصار الحركة باعتبارها منبع الظلم ورمز الطغيان ومصدر كل شر وفساد. ولذا كان العمل على اسقاطها وتدميرها وتحطيم كل ما قام بها وارتبط بأوضاعها وتفرع منها ودعمها وساندها، كل ذلك، كان العمل على اسقاطه وتدميره يمثل الهم الأول لقادة القرامطة وانصارهم. وهذا الموقف العقلي والنفسي هو الذي يفسر لنا موجة العنف العارمة التي بدأ بها القرامطة مسيرة الثورة ضد السلطة العباسية التي كانت تحتفظ ببقايا من قوتها في عهد الخليفة المعتضد وابنه المكتفي (٢٧٠هـ ـ ٢٩٥هـ). وعندما اتضح وشاع امر تمزق السلطة وتعدد مراكزها في أواخر خلافة المقتدر تبين ان المقولة التي تنسب الشر والطغيان كله الى الخليفة لا تمثل الحقيقة، وادرك قادة القرامطة ان هناك قوى متعددة تتصارع لتحقيق المكاسب السياسية والمالية ولا تحفل بأمر الدين اوبالمعنى الديني لمركز الخلافة. كما تبين ان هذه القوى على استعداد لتبادل المنافع والأخذ والعطاء مع اي

قوة اخرى بما في ذلك القرامطة انفسهم. وهكذا اخذ موقف القرامطة يتغير، فسارت العلاقة في اطار جديد مختلف عن اطارها في الحقبة السابقة. لقد ادرك القرامطة بشكل يقيني ان القاهر والراضي والمتقي والمطيع والطائع لا يملكون اي سلطة وان ياقوت وبجكم وابن رائق وناصر الدولة يهتم كل منهم بمصلحته الخاصة وكسبه الشخصي، فهدأت حدة الخصومات وحلت محلها المساومات من اجل تقاسم المغانم وتبادلها. وهذا التغير لم يحدث بين عشية وضحاها، وانما احتاج الأمر الى عدد من السنين بدأت بمحاولات من جانب القرامطة لتحقيق اكبر قدر من الكسب عن طريق المساومة المصحوبة بالضغط العسكري، بينما حاولت السلطة تألف القرامطة وتأنيسهم للواقع القائم بأقل ثمن ممكن.

ولقد بدأت محاولات السلطات لتأنيس القرامطة في مطلع القرن الرابع، اذ يحدثنا ابن الاثير عن رسالة بعثها المقتدر الى ابي سعيد الجنابي حاثا اياه على «اطلاق من عنده من أسرى المسلمين». كما تضمنت الرسالة مناقشة لاقناع الزعيم القرمطي بخطأ الطريق الذي اختاره. لكن الوفد الذي حمل الرسالة علم وهو في البصرة ـ في طريقه الى البحرين ـ ان أبا سعيد مات، فتوقفوا عن المضي في مهمتهم ريثما تصلهم توجيهات من بغداد. وعندما وصلوا الى البحرين ـ بعد ان جاءتهم التعليمات بذلك ـ استقبلهم خليفة ابي سعيد استقبالا حسنا، واكرمهم، ثم اطلق الاسرى وبعث جواب خطاب الخليفة[٢].

لكن هذه المحاولة المبكرة من جانب الخلافة، لم تقابل بالتجاوب الكافي. وفي سنة ٣١١هـ بعث سليمان بن الحسن بن بهرام، ابوطاهر، رسالة الى بغداد يطلب فيها اعطاءه البصرة والاهواز وبعض الاماكن الاخرى، لكن طلبه رفض[٣]. وشهدت السنوات التالية هجمات بالغة العنف قادها ابوطاهر حيث وجه ضرباته للأهداف البالغة الحساسية بالنسبة لسلطات بغداد. واستمر العنف حتى سنة ٣٢٢هـ عندما اوفد حاجب الخليفة برسالة الى ابي طاهر تدعوه لاعلان ولائه للخليفة مقابل اقراره على ما بيده من البلاد، أي اعطائه الصفة الشرعية، بالاضافة الى الاستعداد لتقليده امارة اي بلد يختاره. وطلب منه ـ في نفس الرسالة ـ ان يكف عن مهاجمة قوافل الحجيج، وان يعيد الحجر الاسود الى مكانه من الكعبة. ورد ابوطاهر مبينا عدم نيته التعرض للحجيج، ووعد ان لا يصيبهم بأي مكروه، كما طلب ان يسمح له

قرامطة البحرين يجمون قوافل

الحجّاج مقابل رسوم للمرور

بالحصول على التموين والامدادات الاخرى من البصرة موضحا انه سيعلن ولاءه للخليفة ويخطب له في انحاء البحرين، ان استجابت بغداد الى طلبه. وقد سارت قوافل الحجيج الى مكة وعادت سالمة دون ان يتعرض لها أحد، وبذلك يكون أبوطاهر قد بر بوعده(٤) .

والتطور الهام الملفت للنظر هو ان يعرض ابوطاهر اعلان الولاء لخلافة بغداد والاستعداد لاقامة الخطبة للعباسيين في البلدان التي يحكمها الزعيم القرمطي. ولكي ندرك عظم هذا التطور ينبغي ان نتذكر ان الهدف الأول للحركة القرمطية هو اسقاط الخلافة العباسية ليس لأنها منبع الظلم والشرور فحسب ـ في نظر القرامطة ـ بل ولأنها نقيض الامامة العلوية الاسماعيلية، وحيث ان الامامة الاسماعيلية تمثل أهم ركن عقيدي فان الوجود الواقعي للخلافة العباسية ينفي الوجود الواقعي للامامة الاسماعيلية. وقد سكت أبوطاهر عن موضوع اعادة الحجر الاسود.

ويبدو ان المساومات لم تحقق الاهداف التي كان كل من الفريقين يطمح الى الحصول عليها لأننا نجد اباطاهر يهاجم الحجيج في السنة التالية، غير انه لم يسرف في القتل هذه المرة كما كانت عادته في السنوات السابقة، بل اكتفى بأخذ ما وجد من مال ومتاع. ولعله اراد ان يبقي الباب مفتوحا للاتصالات السلمية، على ان تتحقق اهدافه بالمساومة المصحوبة بالضغط العسكري(٥).

وتذهب احدى الروايات الى ان اباطاهر تلقى نصيحة من احد اتباعه تزين له ان يفرض على الحجاج رسوم مرور مقابل توفير السلامة لهم وبذلك يصبح له دخل ثابت وعلاقات حسنة مع جميع ملوك وامراء البلاد الاسلامية. وقد استصوب أبوطاهر هذا الرأي ـ حسب ما تقول الرواية ـ

«ونادى من وقته في الناس بالأمان[٦]..» والذي نرجحه ان هذه الرواية من نسج الخيال، ولكنها نسجت لتفسير واقع قائم. ومصدر شكنا في الرواية هو الادعاء بأن النصيحة المزعومة بلغت اباطاهر بعد مهاجمته للحجيج سنة ٣٢٣هـ، بينما نعرف انه كان يساوم السلطات العباسية قبل ذلك بسنوات طويلة للحصول على المال والامتيازات الاخرى مقابل ضمان سلامة قوافل الحج. ومهما يكن من أمر فان مضمون الرواية يمثل ميل ابي طاهر للحصول على الرسوم مقابل تأمين سلامة الحج واقامة علاقات سلمية مع سلطات بغداد. وقد حدث ذلك.

وعاد أبوطاهر الى المساومة بعد ذلك بسنتين، فقد قدم الى الكوفة وقبض على اميرها شفيع اللؤلؤي «بأمان، فبعثه الى السلطان يعرفه انهم صعاليك لابد لهم من أموال، فان اعطاهم مالا لم يفسدوا عليه، وخدموه فيما يلتمسه، والا فلا يجدون بدا من ان يأكلوا بأسيافهم[٧]». والمقصود بالسلطان هنا سلطات بغداد ـ بطبيعة الحال ـ والرسالة واضحة، فمادامت بلاد القرامطة فقيرة فانهم يحتاجون الى اعانة مالية، فان تلقوها، سالموا والا حصلوا على ما يريدون، او بعض ما يريدون، بالسيف. وعلى اثر ذلك كاتب محمدبن رائق، امير الامراء ببغداد، اباطاهر، وجرى الاتفاق على ان تدفع سلطات بغداد للقرامطة مائة وعشرين الف دينار سنويا وكميات من المواد الغذائية مقابل ان يدخلوا في طاعة الخليفة، وان يكفوا عن غاراتهم المعتادة بطبيعة الحال. وعاد ابوطاهر الى البحرين[٨].

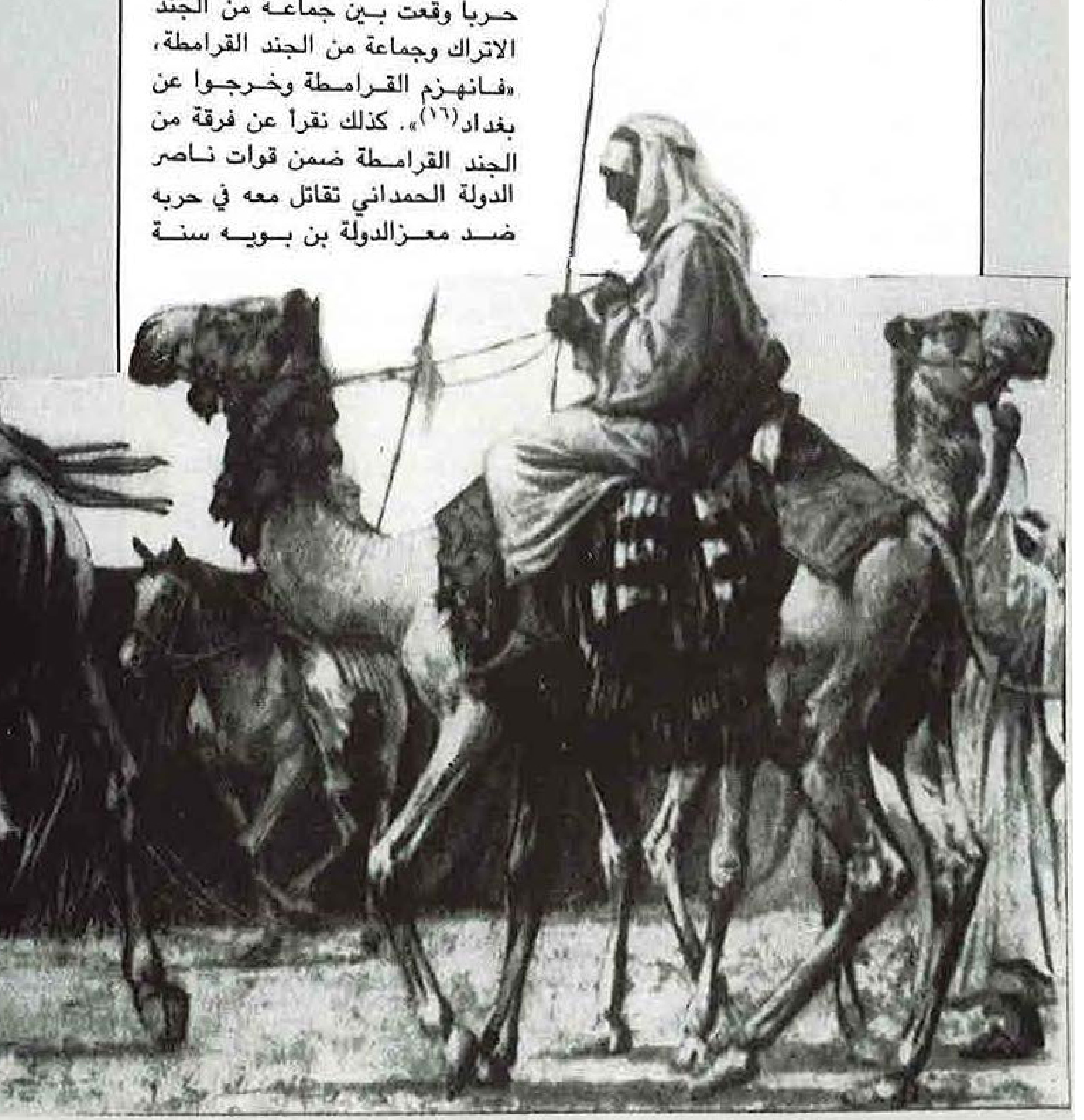
ونقرأ في أخبار سنة ٣٢٦هـ عن وجود فرقة من المقاتلين القرامطة ضمن الجيش العباسي الذي سار من بغداد متوجها الى الموصل وعلى رأسه الخليفة الراضي بالله وأمير الامراء بجكم. وقد ذهب ذلك الجيش لتأديب ناصر الدولة بن حمدان بسبب تأخيره دفع الأموال المستحقة لبغداد عن ولايته. وقد انسحب القرامطة عندما وصلوا الى تكريت «بسبب مضايقة في ارزاقهم، فانصرفوا مغضبين الى بغداد[٩]». أي ان القرامطة اصبحوا يقاتلون تحت راية سلطات بغداد. وفي أخبار السنة التالية، اي سنة ٣٢٧هـ، نقرأ ان ممثل أمير القرامطة قبض رسوم المرور من الحجاج عند موضع زبالة، وكان مقدار الرسوم ثلاثة دنانير عن العمارية، وديناري عن الجمل، ودينارا عن الزمالة. ولم يتعرض الحجاج لأي سوء[١٠]. وصار جند القرامطة يتولون حراسة قوافل الحجيج ليحموها من غارات قبائل

الاعـراب في الطرق الصحـراويـة ويـأخذون مقـابل ذلك مبـالغ ماليـة تؤمنها سلطات بغـداد[١١]. وبلغ من اعتماد قوافل الحج في حمايتها عـلى جنـد القرامـطة انـه عنـدمـا تـوفي سليمـان بـن الحسـن بن بـهـرام الجنابي، أبوطاهر أمير البحرين سنة ٣٣٢هـ لم يذهب احد الى الحج لأن زعماء القرامـطة انشغلوا بموت أبي طاهر وبترتيب اوضاعهم بعد موته فلم يـرسلوا جنـدهم لحـراسـة قـوافـل الحجاج، ولذلك انقطع الحـج في تلك السنة[١٢].

وربمـا يستغـرب تكـرار عقـد الاتفـاقات مـع القـرامـطة لاحـلال العـلاقـات السلميـة محـل الحـرب والغارات، مع تـذبذب العـلاقة بـين السلم والحـرب فيمـا ذكـرنـاه في الصفحات السابقة، وقد يحمـل ذلك عـلى الظن بأن القـرامطة لم يكـونوا راغبين في مسالمة الخلافة العباسية، وان ظروفا عارضـة وطارئة هي التي حملتهم عـلى قبـول السـلام وتلقي الأموال في صورة اعانة اورسوم مرور او اتاوة. ولكن ذلك الاستغراب وهذا الظن سوف يزولان عندما نتـذكر ان الفتـرة بين سنتي ٣٠٠هـ و٣٣٤هـ (٩١٢ ـ ٩٤٥م) كانت من اشد فترات الاضـطراب السياسي والاقتصـادي التي عانى منها العـراق. صحيح ان الخليفة المقتدر شغـل سدة الخـلافة فترة ربع قرن (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ) ولكنه كان مجرد رمز اجوف لا حول له ولا قوة. فلقد تولى الخلافة وعمره ثـلاث عشرة سنة عن طريق مؤامرة نفـذها القادة العسكريون والوزراء ليتجنبوا مجيء خليفة قوي يكف ايـديهم عن اختلاس الأموال العامة ونهب أموال الناس. وقد عزل المقتدر من منصبـه خلال تلك الفترة ثلاث مرات واعيد الى منصبه بعد عزلين لكنه قتل بعد العزل الثالث. وحتى بعد ان كبر وبلغ سن الرجـولة ظل بعيـدا عن أيـة سلطة حقيقية، اذ كانت السلطة موضع نزاع بين مختلف قادة الجماعات العسكرية التي كـانت لا تفتأ تتـآمر وتتقـاتـل وتتصارع بحيث لا يكاد يثبت قائد في موقعه سوى فترة قصيرة مما لا يتسع المجال لسرد تفاصيله[١٣].

وقد اقام القرامطة علاقات سلمية مـع كـل واحـدة من الجمـاعـات والتكتـلات العسكريـة التي تنازعت السيطرة على دار الخلافة وفي نواحي العراق. ويمكننا الاستـدلال على ذلك بسهولة مما تورده المصادر عن وجود فرق من المقاتلين القرامطة بين صفوف جنـود هذا القـائـد أو ذاك من بـين المتصـارعين في بغـداد. فمنـذ سنـة ٣٢٤هـ عنـدمـا استـدعى الخليفـة الراضي ابابكر محمدبن رائق ليوليـه

امرة الامراء نجد القوات التابعة لابن رائق تتكون من جماعات من «الاتراك والديلم والقرامطة[١٤]. ونجد فرقة من القرامطة كذلك في جيش ابي عبدالله البريدي المتغلب على منطقة البصرة[١٥]. بل لقد صرنا نقرأ عن جماعات الجند القرامطة وكأنهم اصبحوا مثل جماعات الجند الاخرى التي كانت دائمة التنازع والتقاتل في شوارع العاصمة العباسية. ومن أمثلة ذلك ما ذكره الامام ابن الجوزي ضمن اخبار سنة ٣٢٠هـ اذ روي ان حربا وقعت بين جماعة من الجند الاتراك وجماعة من الجند القرامطة، «فانهزم القرامطة وخرجوا عن بغداد[١٦]». كذلك نقرأ عن فرقة من الجند القرامطة ضمن قوات ناصر الدولة الحمداني تقاتل معه في حربه ضد معزالدولة بن بويه سنة



٣٣٤هـ/٩٤٥[١٧]. وهنـاك أمثلة اخرى من هذا القبيل لا مبرر لاطالة السرد الممل بذكرها. ومن هذه التفاصيل يتضح ان تكرار عقد الاتفاقات بين القرامطة والسلطة في بغداد انما يعود الى التغير الذي كان يطرأ على السلطة من حيث تغير الاشخاص والجماعات الذين يسيطرون على مراكز الحكم.

العهد البويهي :

وقد شهد عام ٣٣٤هـ تغييرا اساسيا في اوضاع العراق والخلافة العباسية حيث جاءت القوات البويهية واستولت على بغداد وقضت على شراذم الجند وقادتهم المتنازعين على السلطة والمغانم، وانزلت الخلفاء الى اشد درجات الاذلال وتمكنت من توحيد السلطة في العراق، لكنها ابقت على منصب الخلافة مجرد رمز دون ان تترك لشاغله اي قدر من السلطة او حتى من الاحترام المعنوي. وعلى الرغم من ان البويهيين كانوا يعتنقون المذهب الشيعي الا انهم لم يفرضوه على العراق وابقوا الخلافة السنية. وكان طبيعيا ان تنقطع الترتيبات التي قامت بين القرامطة وسلطات بغداد قبل مجيء البويهيين لكنها لا تلبث ان تعود بصورة اكثر ثباتا وانتظاما.

لقد شهدت السنوات الأولى من الحكم البويهي شيئا من الاحتكاك والتوتر بين القرامطة والبويهيين. وقد حدث اول احتكاك عندما قاد الامير البويهي معز الدولة قواته لاحتلال البصرة وسار في الطريق الصحراوي غربي الفرات، فبعث اليه القرامطة برسالة احتجاج ينبهونه فيها الى انه كان عليه ان يستأذنهم، باعتبار ان المنطقة تخصهم. ورفض الامير البويهي الاعتراف بحقوق القرامطة الدعاة في تلك الناحية، وهددهم بأنه سيزحف عليهم بعد ان ينتهي من أمر البصرة[١٨]، غير ان ذلك الزحف لم يحدث. والظاهر ان معز الدولة ادرك خطورة فتح معركة مع القرامطة نظرا



الحسن الأعصم يقود الحرب ضد

الفاطميين تحت الأعلام العباسية

لصعوبة السيطرة على الصحراء، ولأنه لم يشأ ان يبدد قواته في صراع لا طائل من ورائه، ولذلك اقام بينه وبينهم نوعا من التفاهم الذي ارتكز على قاعدة وطيدة. وظهرت بوادر هذا التفاهم عندما انضمت فرقة من القرامطة الى الجيش البويهي الذي خرج من بغداد سنة ٣٣٧هـ بقيادة الحاجب سبكتكين متجها الى الري. وكان معز الدولة قد ارسل ذلك الجيش مددا لاخيه ركن الدولة لمعاونته في حربه ضد عساكر خراسان(١٩). ويبدو ان القرامطة حصلوا على امتيازات مالية لقاء هذا التعاون حيث اصبح لهم مركز جمركي على باب البصرة بجانب مركز جمركي بويهي في نفس الموضع. وهذا يدل على حدوث اتفاق على اقتسام عائدات الجمارك بين الجانبين بصورة او اخرى. وقد اشار الرحالة المعاصر المقدسي الى ان الضرائب كانت ثقيلة سواء على وسائط النقل النهري او البحري. وذكر ان الرسوم على الغنمة الواحدة بلغت اربعة دراهم. وكانت الرسوم تجمع من الحجاج على ما يحملونه من بضائع، كما كانت الرسوم تجبى على جمال الاعراب(٢٠). والحقيقة اننا لا نستطيع التأكيد على كون هذه الامتيازات التي حصل عليها القرامطة بالنسبة لجمارك البصرة مرتبطة بتعاونهم العسكري مع معز الدولة في الحملة المشار اليها وذلك لأن التاريخ الذي بدأ فيه المركز الجمركي القرمطي في البصرة لم يحدد. ومن الجائز أن يكون هذا الترتيب قد تم في وقت لاحق. ومهما يكن من أمر فان تقاسم المغانم على هذا النحو يدل دلالة واضحة على مدى خوف البويهيين من القرامطة وتقديرهم لأهمية التعاون معهم. ولم يقتصر هذا التعاون على الامور المالية والعسكرية بل انه شمل الأمور السياسية كذلك. ففي سنة

٣٦٦هـ قدم الى الكوفة احد زعماء القرامطة، وهو ابوبكر محمدبن علي بن شاهوية ومعه قوة من الف رجل. وقد أمر ان تقام «الدعوة بها وبسوراء والنيل للطائع لله ولعضد الدولة[٢١]». والمقصود بالعبارة هو الدعاء للخليفة العباسي والملك البويهي على منابر المساجد اعلانا للولاء لهما ولما يمثلان. والظاهر ان سلطة القرامطة كانت وطيدة في الكوفة والطريق الصحراوي الموازي لحافة الفرات اليمني. فعندما توفى يوسف بن الحسن الجنابي سنة ٣٦٧هـ «اغلقت اسواق الكوفة ثلاثة ايام[٢٢]». ثم تحدثنا اخبار السنوات التالية عن وجود ممثل قرمطي مقيم في بغداد، او سفير ـ حسب اصطلاحنا المعاصر ـ هو ابوبكر بن شاهويه الذي اشرنا اليه قبل قليل. وكان له نفوذ وهيبة حتى قيل انه «كان يتحكم تحكم الوزراء[٢٣]».

ونستنتج من بعض ما ورد في المصادر ان سوء تفاهم حدث بين القرامطة والبويهيين ادى الى قدوم قوة قرمطية كبيرة اعادت فرض سلطة القرامطة على الكوفة «على وجه التغلب» كما يقول ابن الجوزي. وكانت هذه القوة قد جاءت ردا على قيام السلطة البويهية باعتقال ابي بكر بن شاهوية الممثل القرمطي في بغداد وبالرغم من استيلاء القرامطة على الكوفة مجددا وشروعهم في جمع الضرائب ونهب المحصولات فقد حاولوا ابقاء باب التفاهم مع البويهيين مفتوحا، فقد اقاموا الخطبة لشرف الدولة البويهي «واعتزوا الى ملك الناحية[٢٤]». لكن التفاهم تعذر بين الفريقين، فجاءت قوات قرمطية اخرى من البحرين فارسل صمصام الدولة جيشا لمواجهتهم، وتعاونت جماعات من الاعراب مع البويهيين في القتال فحلت الهزيمة بالقرامطة وانكسرت شوكتهم، واسر عدد من قادتهم، وذلك سنة ٣٧٥هـ[٢٥].

واخيرا بلغ التحول في موقف القرامطة من الخلافة العباسية ذروته عندما قاد الحسن الاعصم قوات القرامطة والمتحالفين معها تحت الوية وشعارات عباسية، حيث كانت القوات ترفع الاعلام السوداء ـ شعار العباسيين ـ وتقيم الخطبة للعباسيين في كل بلد سيطرت عليه، وسار ليحارب الفاطميين، فاستولى على بلاد الشام واخضعت قواته كثيرا من نواحي الدلتا المصرية ومناطق في الصعيد[٢٦].

مع الحمدانيين :

ومن القوى المتنافسة التي دخلت حلبة الصراع وحاولت فرض هيمنتها

في العراق تحت لواء الخلافة العباسية الواهنة بنوحمدان. وقد خدم بنوحمدان الخلفاء العباسيين وحاربوا في سبيل توطيد السلطة العباسية سنوات طويلة. والذي يهمنا هنا هو ابراز العلاقة الخاصة التي قامت بين القرامطة من ناحية والامراء الحمدانيين من ناحية اخرى.

لقد شارك الامراء الحمدانيون في حروب العباسيين ضد القرامطة وابلوا في ذلك بلاء حسنا منذ سنة ٢٩١هـ/ ٩٠٤م، على الأخص الحسين بن حمدان[٢٧]. كما ان عبدالله بن حمدان، الملقب بابي الهيجاء، حارب القرامطة عندما كان قائدا لقطاع طريق الكوفة ـ الحجاز وحراسة قوافل الحجيج، بل انه وقع اسيرا في ايديهم سنة ٣١٢هـ[٢٨]. وبعد ان تحسنت علاقة القرامطة بسلطات بغداد تعاونوا مع ناصر الدولة بن حمدان وأصبحت فرقة منهم تشكل جزءا من جيشه[٢٩]. وظلت هذه العلاقة وطيدة مع الحمدانيين على ما يبدو، اذ نقرأ انهم طلبوا من سيف الدولة الحمداني الذي كان اميرا على حلب ان يزودهم بكمية من الحديد، وذلك سنة ٣٥٣هـ، فاستجاب في الحال. وبلغ من حرصه على توفير طلبهم انه «قلع ابواب الرقة، وهي من حديد، وسد مكانها، واخذ حديدا بديار مضر حتى اخذ سنجات الباعة والبقالين..» ثم امر بنقل ما تم جمعه الى بلدة هيت بالسفن النهرية، ومن هيت ارسله اليهم بطريق البر[٣٠]. ولا ينبغي ان يكون هناك مكان للوهم بأن العلاقة بين الجانبين انطلقت من اساس مذهبي ووشائج دينية استنادا الى ما يقال من ان الحمدانيين كانوا شيعة. لقد قامت العلاقة من اجل مصالح اقتصادية تجارية وسياسية. اما شيعية الحمدانيين فلم تكن الا من قبيل الشعارات والبيانات التي يطلقها السياسيون في عصرنا حسب الظروف السياسية، وهي شعارات تنتقل بأصحابها من النقيض الى النقيض في كثير من الأحوال.

علاقة القرامطة بالبريديين

شغل البريديون المسرح السياسي في العراق طوال عشرين عاما (٣١٦هـ ـ ٣٣٦هـ). لقد كانو ثلاثة اخوة ظهروا من خلال عملهم في الادارة الاقليمية في الاهواز ومنطقة البصرة. وكانت للأخوة اطماع وتطلعات كبيرة حاولوا تحقيقها من خلال موجات الفوضى والاضطراب التي شهدها العراق في تلك الحقبة من تاريخه. ولم يستنكف البريديون من اتباع اية وسيلة ـ مهما كانت دنيئة او

مستهجنة - الامر الذي اساء الى سمعتهم وجعل كل المؤرخين يتفقون على ذمهم وتجريحهم.

والذي يهمنا من امر البريديين هنا انهم كانوا على علاقة وثيقة بالقرامطة، وتبين لنا احداث سنة ٣٣٠هـ ان فرقة من المقاتلين القرامطة كانت في جيش ابي عبدالله البريدي عندما جرت المواجهة بينه وبين امير الامراء محمدبن رائق[٣١]. وأثناء الصراع بين البريديين وهرب ابي الحسين البريدي الى الاحساء مستجيرا بالقرامطة استقبلوه واكرموه. ثم انهم ارسلوا معه قوة عسكرية يقودها اثنان من اخوة اميرهم ابي طاهر لتسوية الخلاف في صالحه. وعند وصول القوة الى المدينة تبين ان عبدالله ابوالقاسم، البريدي قد احكم حراسة المدينة وتمكنت قواته من ردهم عنها. وحاصروها فطال الحصار، واصابهم الضجر، فلجأوا الى مصالحة ابي القاسم البريدي مع عمه ابي الحسين وقد سمح ابوالقاسم لعمه بدخول المدينة استجابة للوساطة والضغط القرمطي[٣٢]. واضطر ابوالقاسم البريدي الى الهرب من البصرة بعد ذلك بأربع سنوات عندما استولى عليها معز الدولة البويهي وانهى حكم البريديين سنة ٣٣٦هـ. وقد اتجه ابوالقاسم الى الاحساء حيث اقام عند القرامطة حوالي سنة. وفي العام التالي بعث كتابا الى معز الدولة يطلب منه الامان والسماح له بالمثول بين يديه. فغادر الاحساء الى بغداد حيث اكرمه معز الدولة وظل بها حتى وفاته[٣٣].

دلالة هذه العلاقة :

يتبين من خلال تتبعنا لسلوك القرامطة السياسي والعسكري وتشابك علاقتهم مع مختلف القوى السياسية والعسكرية التي استظلت بالخيمة العباسية المهلهلة ان القرامطة اصبحوا واحدة من القوى المحلية، وسعوا الى ان يكون لهم وجود مستقر، ومعترف به من قبل القوى الاخرى في المنطقة. وعلى هذا الاساس أمكن ان يقوم بينهم وبين جيرانهم سلام. فاذا كان الامر كذلك فان هذا يقودنا الى التساؤل عن مدى نوع علاقة القرامطة بالخلافة الفاطمية، سواء في شمال افريقيا او في مصر.

والحقيقة ان حديث الباحثين والمؤرخين في موضوع هذه العلاقة بين القرامطة والفاطميين ملفوف بقدر كبير من الخلط والتضارب. سواء عند المؤرخين القدامى او المحدثين. بل كذلك في اقوال المؤرخ الواحد. ولا مراء في ان الانتقال الى بحث هذه النقطة يخرج بنا عن موضوعنا، ومع ذلك أرى من المناسب التأكيد على ان

دلالة علاقات القرامطة بالسلطة العباسية ابتداء من اوائل القرن الرابع الهجري لابد وان تحملنا على الشك في وجود علاقة ارتباط جدي او ولاء يتصف بأي درجة من الاستقرار بين القرامطة والفاطميين. ولعلنا نجد الفرصة لدراسة هذا الموضوع في بحث مستقل بإذن الله.

المراجع

(١) خير مصدر يصف تفاصيل احداث هذه الفترة من تاريخ الخلافة العباسية هو : ابوعلي، احمدبن محمد، المعروف بمسكويه، كتاب تجارب الامم، مجلدا ـ ٢، تحقيق هـ.ف. آمدروز، القاهرة : مطبعة التمدن، ١٩١٤ ـ ١٩١٥م.

(٢) عزالدين ابوالحسن علي بن ابي الكرم محمد المعروف بابن الاثير. كتاب الكامل في التاريخ : بيروت : دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦، مجلد ٨، ص٨٤.

(٣) مؤلف مجهول، العيون والحدائق في اخبار الحقائق، تحقيق نبيلة عبدالمنعم داود، القسم الأول والقسم الثاني من المجلد الرابع، مطبعة النعمان بالنجف، ومطبعة الارشاد ببغداد، ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣، القسم الأول، ص٣١٥.

(٤) ابن الاثير، مجلد ٨، ص٢٩٤ ـ ٥.

(٥) تقي الدين احمد بن علي المقريزي. اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا. جزآن، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال. القاهرة : المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، ١٩٦٧ ـ ١٩٧١، مجلد ١، ص١٨٣.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه، ص١٨٤.

(٨) محمدبن عبدالملك الهمداني، تكملة تاريخ الطبري، الجزء الاول، تحقيق البرت يوسف كنعان، بيروت : المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦١، ص١٠٢.

(٩) مسكويه، مجلد ١، ص ٤٠٥.

(١٠) ابوالفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والامم، حيدر أباد، الدكن : مطبعة دائرة المعارف العثمانية، مجلد ٦، ص٢٩٦، وانظر كذلك : العيون والحدائق، مجلد ٤، قسم ٢، ص ٨٠ ـ ١.

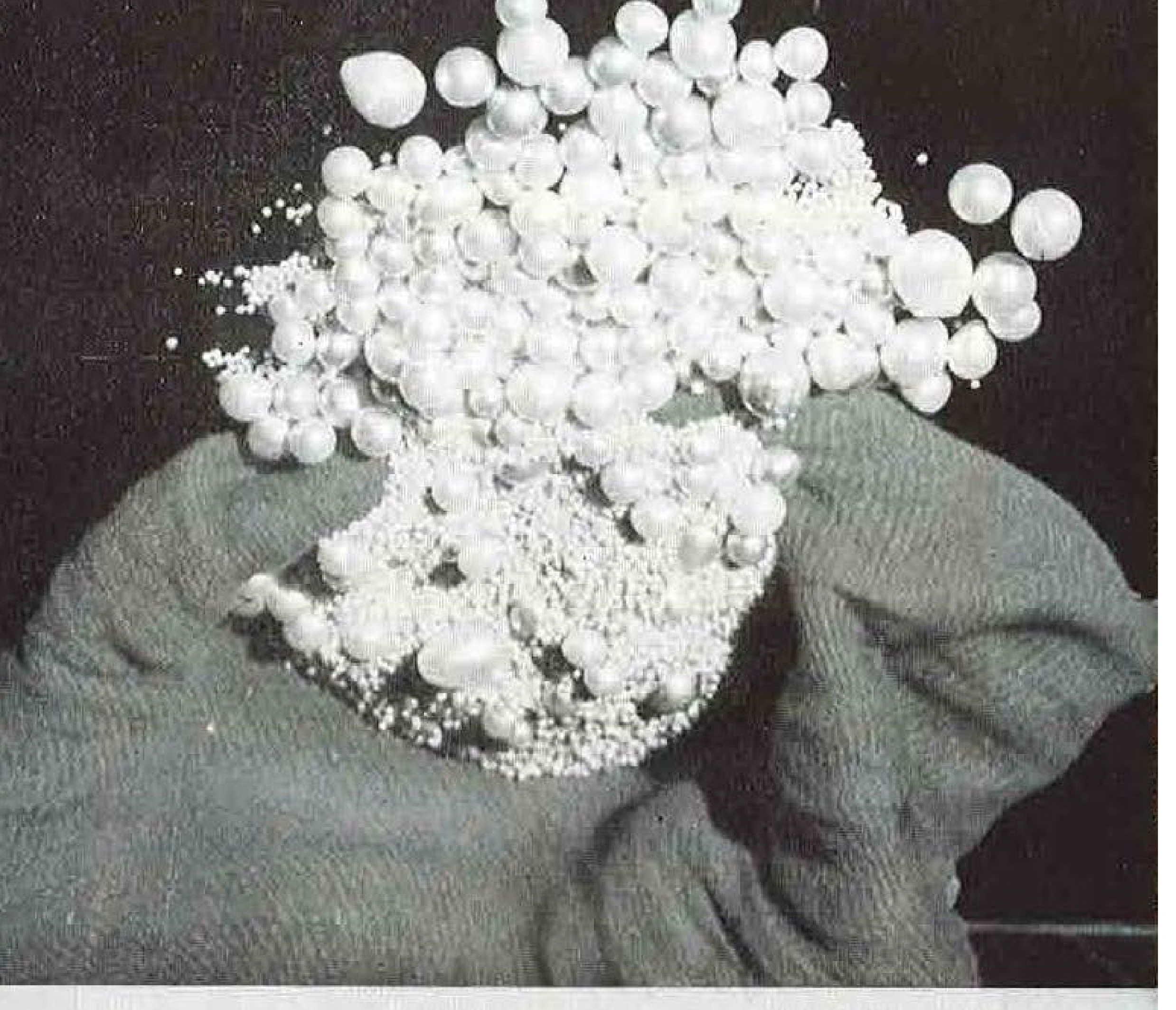
(١١) ابن الجوزي، مجلد ٦، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.
(١٢) المصدر نفسه، ص ٣٣٦.
(١٣) انظر حاشية رقم (١).
(١٤) الهمداني، تكملة تاريخ الطبري، ص٩٩، وانظر مسكويه، مجلد ١ ص٤٠٨.
(١٥) العيون والحدائق مجلد ٤، قسم ٢، ص ١٠٨ ـ ١١١.
(١٦) ابن الجوزي، مجلد ٢، ص ٩٠ ـ١.
(١٧) مسكويه. مجلد ٢ ص ٩٠ ـ ١.
(١٨) المصدر نفسه، ص١١٢، العيون والحدائق، مجلد ٤، قسم ٢، ص١٨٥، ابن الاثير، مجلد ٨، ص٤٦٩.
(١٩) مسكويه، مجلد ٢، ص١١٧ و١٢٩.
(٢٠) ابوعبدالله، محمدبن احمد المقدسي، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم. بيروت : مكتبة خياط، تصويرا بالاوفست عن طبعة E.J.Brill لسنة ١٩٠٦م، ص ١٣٣ ـ ٤.
(٢١) ابن الجوزي، مجلد ٧، ص ٨٣.
(٢٢) المصدر نفسه، ص ٨٦.
(٢٣) ابن الاثير، مجلد ٩، ص ٤٢.
(٢٤) ابن الجوزي، مجلد ٧، ص ١٢٦ ـ ٧، ابن الاثير، مجلد ٩، ص ٤٢.
(٢٥) ابن الجوزي، مجلد ٧، ص ١٢٦ ـ ٧، ابن الاثير، مجلد ٩، ص٤٢ ـ ٣.
(٢٦) المقريزي، مجلد ١، ص ١٢٩ ـ ١٣١.
(٢٧) ابن الاثير، مجلد ٧، ص ٥٣١ و٥٤٢ و٥٤٩.
(٢٨) المصدر نفسه، مجلد ٨، ص١٤٧ و١٥٥ و١٧٢.
(٢٩) مسكويه، مجلد ٢، ص ٩٠ ـ ١.
(٣٠) المصدر نفسه، ص ٢٠٣.
(٣١) العيون والحدائق، مجلد ٤، قسم ٢، ص١٠٨ ـ ١١١.
(٣٢) ابن الاثير، مجلد ٨، ص ٤١٠ ـ ٤٤١، مسكويه، مجلد ٢، ص ٦٠ ـ ١.
(٣٣) العيون والحدائق، مجلد ٤، قسم ٢، ص ١٨٥ ـ ٦، مسكويه، مجلد ٢، ص ١١٢، ابن الاثير، مجلد ٨، ص ٤٦٩.



عن صيد اللؤلؤ في البحرين

الدكتور على ابا حسين وب. ك. ناراين

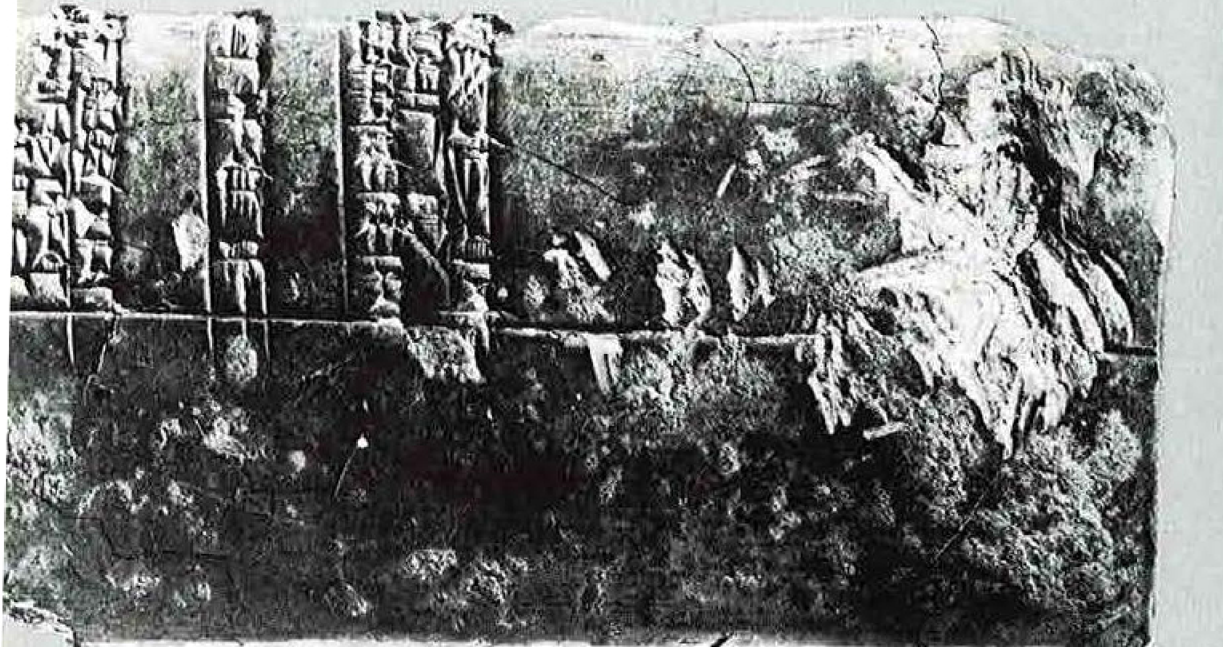
لقد حفظت سجلات التاريخ القديم عن سكان البحرين ارتباطهم بصيد اللؤلؤ في المناطق المجاورة لجزر البحرين ، وظل هذا الارتباط دون توقف حتى العصر الحديث ، ونستدل على ذلك من لوحة حجرية وجدت في آثار مدينة (اور) السومرية في بلاد الرافدين والتي تعود الى الفي عام ونيف قبل الميلاد ، هذه اللوحة من أقدم الوثائق التاريخية التي تم العثور عليها ان لم تكن أقدمها وهي محفوظة في المتحف البريطاني ، وفي مركز الوثائق التاريخية في البحرين صورتها وبالبحث صورة لها وفيها ان (اور) استوردت بعض السلع كالنحاس والأخشاب واللؤلؤ عن طريق



دلمون وهذا يدل على التبادل التجاري بين دلمون (البحرين الحالية) ومدينة (اور) السومرية وشهرة دلمون بتصدير اللؤلؤ اليها . كما عثر على ثمانية ألواح حجرية من معبد نينكال من عصر سلالة أور الثالثة تخص تجارة دلمون ومن تلك السلع اللؤلؤ . وفي الاسطورة السومرية (ان اوتونابشتم) بطل الطوفان السومري أراد الخلود مما جعله يسكن (دلمون) الارض التي يصطفيها الجميع . وربما تكون نبتة الخلود التي أخبر اوتونابشتم (جلجامش) عنها عندما قابله في مقره هي (اللؤلؤ)[1] . وورد ذكر صيد اللؤلؤ على طول الشاطىء العربي للخليج في أيام

المقدونيين ، وتؤكد المصادر اليونانية ان أكثر ما يقع من مصائد اللؤلؤ قرب السواحل الرملية المحيطة بجزر البحرين وكان للاغريق والرومان علاقات تجارية مع البحرين وخاصة في عهد الاسكندر المقدوني فقد خصص بطلميوس فصلا عن مصائد اللؤلؤ في (تايلوس) وتايلوس هو الاسم الذي أطلقه الرومان على جزيرة البحرين الأم . وعند (بليني) الذى عاش في ٣٢٥ق.م ان جزيرة تايلوس الواقعة مقابل الجرها (العقير) تشتهر بلآلئها وان في تايلوس مدينة تحمل نفس اسمها(٢) .

ورغم ندرة ما كتبه الغربيون القدامى عن صيد اللؤلؤ في الخليج العربي الا ان الرحالة والجغرافيين والذين كتبوا عن الاحجار والجواهر من العرب وما أورده الشعراء في العصر الجاهلي والأموي في شعرهم يلقى الضوء على هذه الصناعة وتعتبر كتبهم وثائق تاريخية من شهود عيان فهم يصفون ما يرونه ويتحدثون عن صلات البحرين بالممالك المعاصرة وتفاصيل أرخبيل البحرين جغرافيا واقتصاديا بالاضافة الى صيد اللؤلؤ حول جزر البحرين ، وقلما تجد كتابا لديهم يتحدث عن اللؤلؤ في الخليج العربي دون ذكر البحرين خاصة وان اسم البحرين في عهدهم كان يطلق على الرصيف الساحلي الشرقي من جزيرة العرب بما فيه جزيرة أوال والجزر المحيطة بها وكانوا يذكرون اسم البحرين مقرونا بذكر اللؤلؤ ، وان الذي يقرأ في كتب هؤلاء الرحالة يجد ان من يحكم البحرين كانت له السيطرة على مناطق صيد اللؤلؤ حول جزر البحرين ، فقد ذكر الخطيب البغدادي المتوفي (٤٦٣هـ) ان هارون الرشيد ولي أحد كبار قادته وهو (المعلى) ولاه على اقليم واسع في الخليج العربي ومنه البحرين والغوص ثم جمعت هذه الاعمال لمحمد بن سليمان بن على بن عبدالله العباس بن عبدالمطلب ثم لغيره . وقد يكون مسئولا عن دفع اتاوة أو ضريبة الى حاكم آخر كما فعل والى البحرين في سنة ٦٢٨هـ وهو الفضل بن على العيوني الذي دفع ضريبة الى الاتابك ابي بكر سعد بن زنكي السلغري بعد ان دفعها سلفه الى حاكم (قيس) قبله(٣).



اللوحة الحجرية التي عثر عليها في «اور»

وأشار المقدسي (ت : ٣٨٠هـ) الى البحرين وشواطئها وصيد اللؤلؤ فيها .

أما ناصر خسرو الذى حج عام ٤٤٣هـ فوصف البحرين اثر عودته من الحج وصف نخيلها واستخراج اللؤلؤ من بحرها وذلك ايام العيونيين الذين كانوا يأخذون نصف ما يستخرجه الغواصون منه[٤] .

وحين وصف الشريف الادريسى (ت : ٥٦٠هـ) جزيرة أوال قال : ان اوال حاضرة البحرين وهي مدينة عامرة وان جزيرة أوال وساير ما بين بلاد البحرين وعمان تسكنها العرب

وفي جزيرة أوال أمير قائم بنفسه وقد رضيه أهل الساحلين لعدله ومتانة دينه وفيها رؤساء الغواصين ساكنون بهذه المدينة والتجار يقصدون اليها من جميع الاقطار بالأموال الكثيرة ويقيمون بها الاشهر الكثيرة حتى يكون وقت الغوص في شهر اغسطس وسبتنبر (سبتمبر) وكانوا يخرجون من المدينة في ازيد من مايتي دونج والدونج أكبر من الزورق . فاذا خرج الغواصون عن اوال تقدمهم الدليل والغواصون خلفه في مراكبهم صفوفا لا تتعدى جريه ولا تخرج عن طريقه حتى اذا فرغوا من الغوص انصرفوا

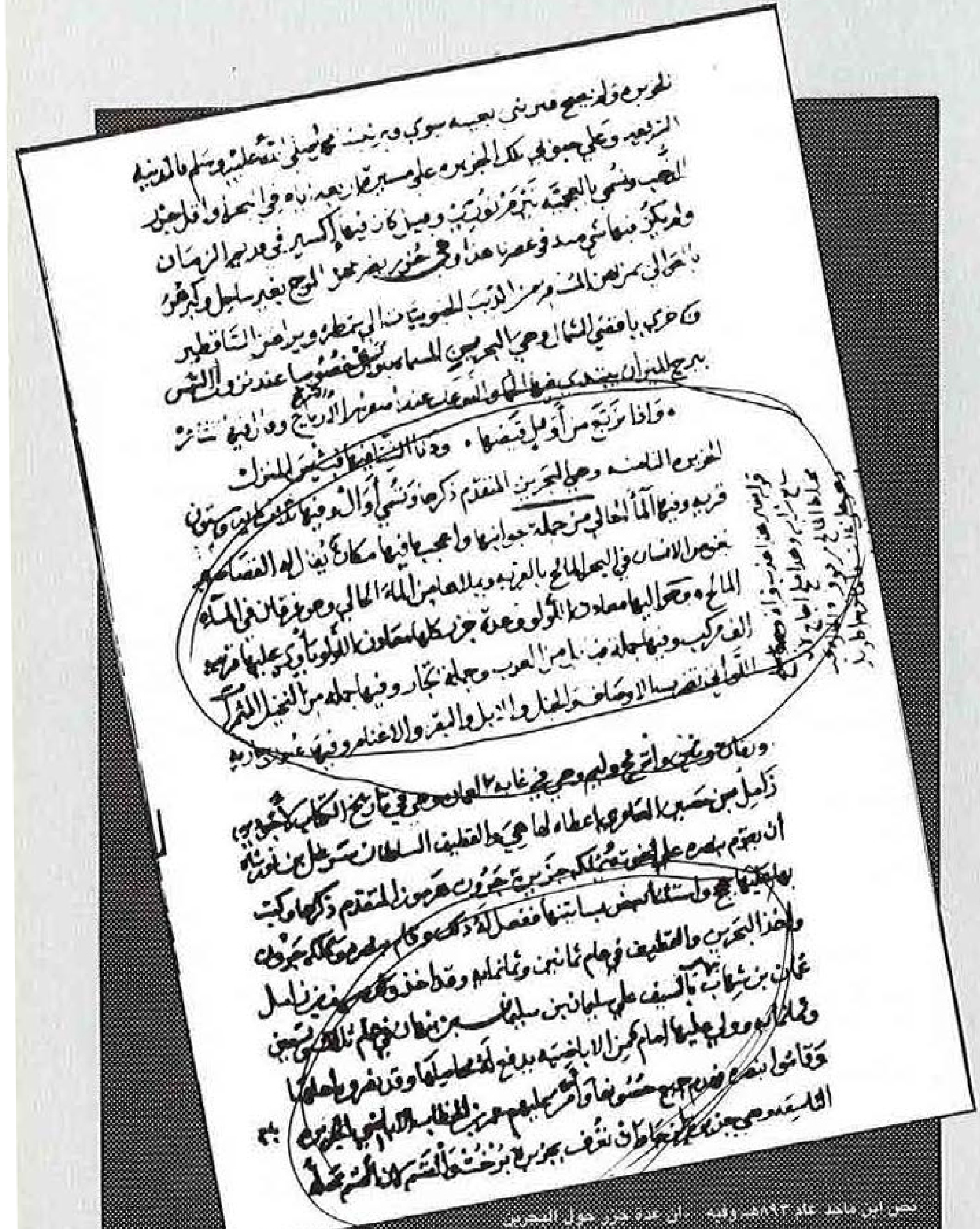
الى جزيرة أوال في ما جمعوا من اللؤلؤ وقد وضعوها في صرر مكتوب على كل صرة اسم صاحبها فاذا نزلوا أوال اخذت تلك الصرر من التجار وصارت في قبض والي البحرين وفي ذمته لبيعها في موضع البيع أمام التجار فيقبض كل تاجر ماله وينصرف الناس ليعودوا الى هناك في العام القابل وهكذا ابدا ويرسل الوالي النفيس من اللؤلؤ الى أمير المؤمنين الخليفة العباسي(٥) .

كما ذكر الرحالة ابن بطوطة (ت : ٧٧٩هـ) والذي زار البحرين فوصف عملية الغوص وقال : ان ضريبة يدفعها الغواصون الى والي البحرين تقدر بالخمس .

ووصف الملاح (أحمد بن ماجد) في كتابه (الفوائد) عام ٨٩٣هـ جزيرة البحرين فقال : وتسمى أوال وحواليها معادن اللؤلؤ وعدة جزر (حولها) كلها معادن اللؤلؤ ويأوى عليها قريب الف مركب وفيها جملة قبائل من العرب وجملة تجار وهي في تاريخ هذا الكتاب لاجود بن زامل بن حسين العامري الجبرى (ملك البحرين)(٦) .

وقد تعرضت البحرين الى عدوان أجنبي في مستهل القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي وهو الاحتلال البرتغالي واهم سبب لهذا الاحتلال كان غنى البحرين الاقتصادي وخاصة في اللؤلؤ بدليل ما أوردته الرسائل المتبادلة بين القائد البرتغالي افونسو دالبوكيرك مع ملك البرتغال فقد كتب اليه رسالة مؤرخة في ٢٠ اكتوبر ١٥١٤م/ ٩٢٠هـ يعرض عليه انه يريد احتلال البحرين لانها منطقة غنية حيث يكثر فيها اللؤلؤ ويستطرد القائد البوكيرك بقوله : ان في مياه (باريم) ـ كما يطلق عليها البرتغاليون ـ بذور اللآلىء واللآلىء نفسها وانها ترسل الى اقاليمنا ويعني بذلك الى هرمز وجوا في الهند وهي احسن جودة ومتانة من التي توجد في أماكن اخرى من هذه المنطقة . وان لؤلؤة البحرين من النوع الممتاز ويتولى تجار من البحرين ادارة عمليات الغوص على اللؤلؤ ويبيعونه مما يكسبهم أرباحا طائلة وختم البوكيرك قوله : ان البحرين جوهرة لا يمكن تركها في أيدي المسلمين(٧) .

لقد اقنع القائد البوكيرك ملك البرتغال فأرسل أربع سفن للاستطلاع بقيادة ابن عمه (بيرو) ثم تبعه افونسو دالبوكيرك نفسه وكان في البحرين مندوب برتغالي للملك البرتغالي يسكن في البحرين لغرض صيد اللؤلؤ . ثم أرسل افونسو

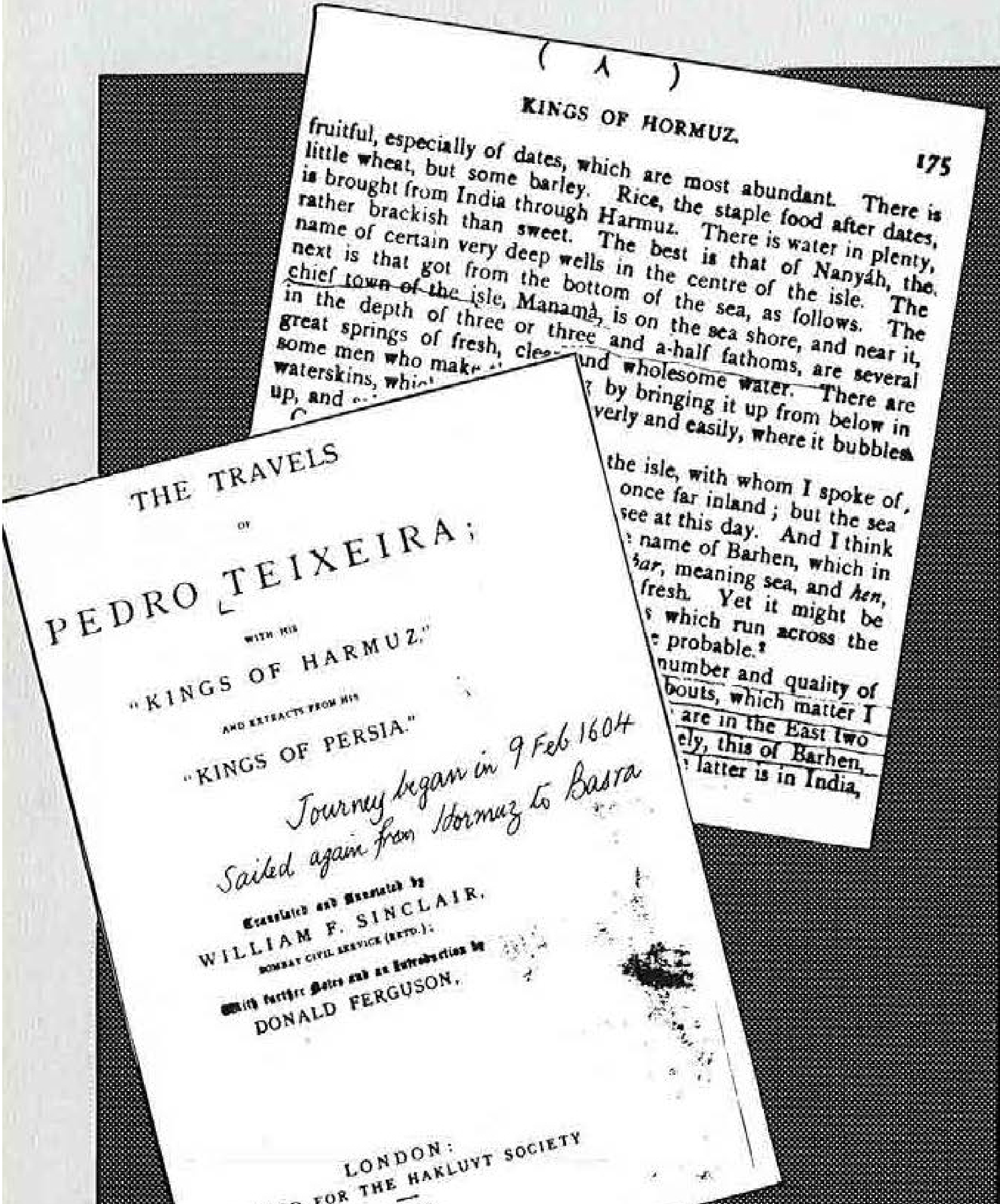


نص ابن ماجد عام ٨٩٣هـ وفيه .. أن عدة جزر حول البحرين
فيها معادن اللؤلؤ ويأوي اليها قريب من الف مركب.

دالبوكيرك القائد (انطونيو كوريا) (١٥٢١م/٩٢٨هـ) فاحتل البحرين وبقيت تحت النفوذ البرتغالي حتى ١٦٠٢م/١٠١١هـ وحاولوا استعادتها حتى ١٦٢٢م/ ١٠٣٢هـ الا ان مقاومة اهلها حالت دون ذلك ثم عقد معاهدة يائسة سنة ١٦٢٥م مع الشاه عباس تنازلت فيها البرتغال عن كافة الاقاليم الساحلية ما عدا شواطىء البحرين التي كانت غنية باللآلىء(٨) . وقد كتب الرحالة البرتغالي (بيدرو تكسيرا) في أسفاره التي بدأت في ٩ فبراير ١٦٠٤م من (جوا) الى هرمز ومنها الى البصرة مارا بالبحرين فقال : تشتهر جزيرة البحرين بلآلئها كماً وكيفاً وهذا موضوع أذكره باختصار لأنه معروف عامة . توجد في الشرق مغاصتان كبيرتان احداهما في البحرين في الخليج وثانيتهما في مانار بالقرب من سيلان .

ويبتدىء موسم صيد اللؤلؤ في البحرين في شهر يونيو أو في يوليو عادة ويستمر الى أغسطس ويتكون الاسطول من ٢٠٠ سفينة (من نوع طرادة) ١٠٠ منها للبحرين و٥٠ لجلفار و٥٠ من نخيلو ، وتمتاز (لآلىء البحرين) وتفوق جميع الأنواع الأخرى من حيث المواصفات والوزن . اذا قارنا لؤلؤتين احداهما بحرينية وثانيتهما أخرى من نفس الحجم فتتفوق لؤلؤة البحرين وزنا . ان قيمة تجارة اللؤلؤ سنويا في اللآلىء الصغيرة والعادية تبلغ ٥٠,٠٠٠ دوكات دون ان نأخذ في الاعتبار قيمة اللآلىء المهربة وهي حوالى ١٠٠,٠٠٠ دوكات لان التهريب يتم خوفا من اغتصاب المندوب البرتغالي في البحرين ، وتستخدم معدلات القيراط أو قيلات أو عبس (٣ عبسات تساوي قيراطا واحدا) ومثقال (ويساوي المثقال ٢٤ قيراطا أو ٧٣ جراما تقريبا) . ويتم تصنيف اللآلىء الصغيرة على أساس ٢٠ أو ٣٠ أو ٤٠ لكل مثقال . يغوص الغواصون البحرينيون الى عمق ١٢ أو ١٥ غورا (والغور) يساوي عمق ٦ أقدام وأشار المحقق في الهامش قوله : وتمتد (جزيرة البحرين) الى ٣٠ ميلا طولا و٩ أميال عرضا وطبقا لتقرير ورد من الهند يمتد موسم الصيد من يونيو الى اكتوبر وان شواطىء البحرين تجرى الى ٤ أو ٥ أغوار أي ما بين ٢٤ ـ ٣٠ قدما وانها من أغنى السواحل ومؤكدة من حيث الانتاج .

ويستطرد بقوله : ويستخدم في الخليج حوالى ٤,٥٠٠ سفينة و٣٠,٠٠٠ عامل في موسم الصيد


(٨)

KINGS OF HORMUZ. 175

fruitful, especially of dates, which are most abundant. There is little wheat, but some barley. Rice, the staple food after dates, is brought from India through Harmuz. There is water in plenty, rather brackish than sweet. The best is that of Nanyáh, the name of certain very deep wells in the centre of the isle. The next is that got from the bottom of the sea, as follows. The chief town of the isle, Manamá, is on the sea shore, and near it, in the depth of three or three and a-half fathoms, are several great springs of fresh, clea… and wholesome water. There are some men who make … by bringing it up from below in waterskins, whic… …verly and easily, where it bubbles up, and …

… the isle, with whom I spoke of,
… once far inland; but the sea
… see at this day. And I think
… name of Barhen, which in
… *bar*, meaning sea, and *hen*,
… fresh. Yet it might be
… which run across the
… probable.[2]
… number and quality of
… bouts, which matter I
… are in the East two
… ely, this of Barhen,
… latter is in India,

THE TRAVELS

OF

PEDRO TEIXEIRA;

WITH HIS

"KINGS OF HARMUZ,"

AND EXTRACTS FROM HIS

"KINGS OF PERSIA."

Journey began in 9 Feb 1604
Sailed again from Hormuz to Basra

Translated and Annotated by

WILLIAM F. SINCLAIR,

BOMBAY CIVIL SERVICE (RETD.);

With further Notes and an Introduction by

DONALD FERGUSON.

LONDON:

PRINTED FOR THE HAKLUYT SOCIETY

MDCCCCII.

1902

الرحالة بيدرو تكسيرا يصف صيد اللؤلؤ في البحرين
اثر خروج البرتغاليين سنة ١٦٠٤م

وتحمل كل سفينة من ٥٠ الى ١٤ شخصا ، وان مناسبة صيد اللؤلؤ تقدم منظرا جميلا حيويا متسما بالنشاط والبهجة . وقد احتلها البرتغاليون في بداية القرن السادس عشر وأسسوا فيها وفي القطيف مراكز تجارية لاحتكار تجارة اللؤلؤ . وبعد اخراج اللؤلؤ من المحار ، تسلم الحبات الى صاحب السفينة الذى بدوره يقسمها الى ٣ فئات بواسطة مناخل مصنوعة من نحاس اصفر ذات ثقوب مختلفة الأحجام. واللآلىء التى لا تمر من منخل ذي ثقوب أكبر تسمى (رأس) ثم يأتى نوع ثان يسمى (باطن) ويأتي بعد ذلك نوع ثالث يسمى (دزل) . ويتم تصنيف اللآلىء حسب الانواع الثلاثة وتباع الى تجار اللؤلؤ حسب نظام معقد لتسعيرها وفقا لأشكالها وألوانها وأثقالها واحجامها . ينظمها التاجر من جديد في رزم صغيرة ويرسلها الى الأسواق الهندية . وبصفة عامة ليست اللآلىء البحرينية بيضاء بنفس الدرجة كاللآلىء السيلانية لكنها أكبر حجما وأكثر جمالا من حيث الشكل ويبقى لمعانها لمدة أطول[٩] .

ومن الطريف ان تاجرا بحرينيا اسمه الشيخ محمد وصل الى هرمز عام ١٥٢٨م ومعه لؤلؤة ثمينة جدا عرض بيعها هناك بمبلغ الفي (اشرفي) ولكن قائد القلعة البرتغالية (دي ميلو) في هرمز نهبها منه وأصدر أوامره بضرب الشيخ محمد ضربا مبرحا وتسفيره من هرمز بعد ان يربط بالحبال فما كان من الرئيس شرف الدين الا ان أطلق سراح الشيخ محمد فاشتدت الخصومة بين دي ميلو وشرف الدين فطلب دي ميلو ان يدفع شرف الدين خمسة آلاف اشرفي مقابل اطلاق سراح الشيخ محمد . فرفع الشيخ محمد شكوى ضد (دي ميلو) لدى الحاكم العام البرتغالي في الهند (لوبو واز) فطلب الحاكم من الرئيس شرف الدين تحقيقا حول الاتهامات المنسوبة للقائد البرتغالي وأخيرا فرض ملك البرتغال غرامة على دي ميلو واعيدت حقوق كل من الشيخ محمد وشرف الدين في هرمز[١٠] .

وحاول العثمانيون الاستيلاء على البحرين بسبب ما تتمتع به من خيرات ومنها صيد اللؤلؤ خاصة فقد تعرضت الاحساء والقطيف لصراع بين الولاة العثمانيين من جهة وآل عريعر من جهة أخرى مما أدى الى هجرة بعض تجار اللؤلؤ وما يملكون من سفن الغوص الى البحرين فأدى ذلك الى ركود اقتصادي في الاحساء والقطيف

(١١)

محل وجود الوثيقة : ارشيف رئاسة الوزراء

اسم الدفتر : دفتر المهمة

رقم الدفتر : ٣

رقم الوثيقة : ١١٢٣

الصحيفة : ٣٧٩

التاريخ : ١٨ شعبان ٩٦٧

الحكم موجه الى امير امراء لحسا

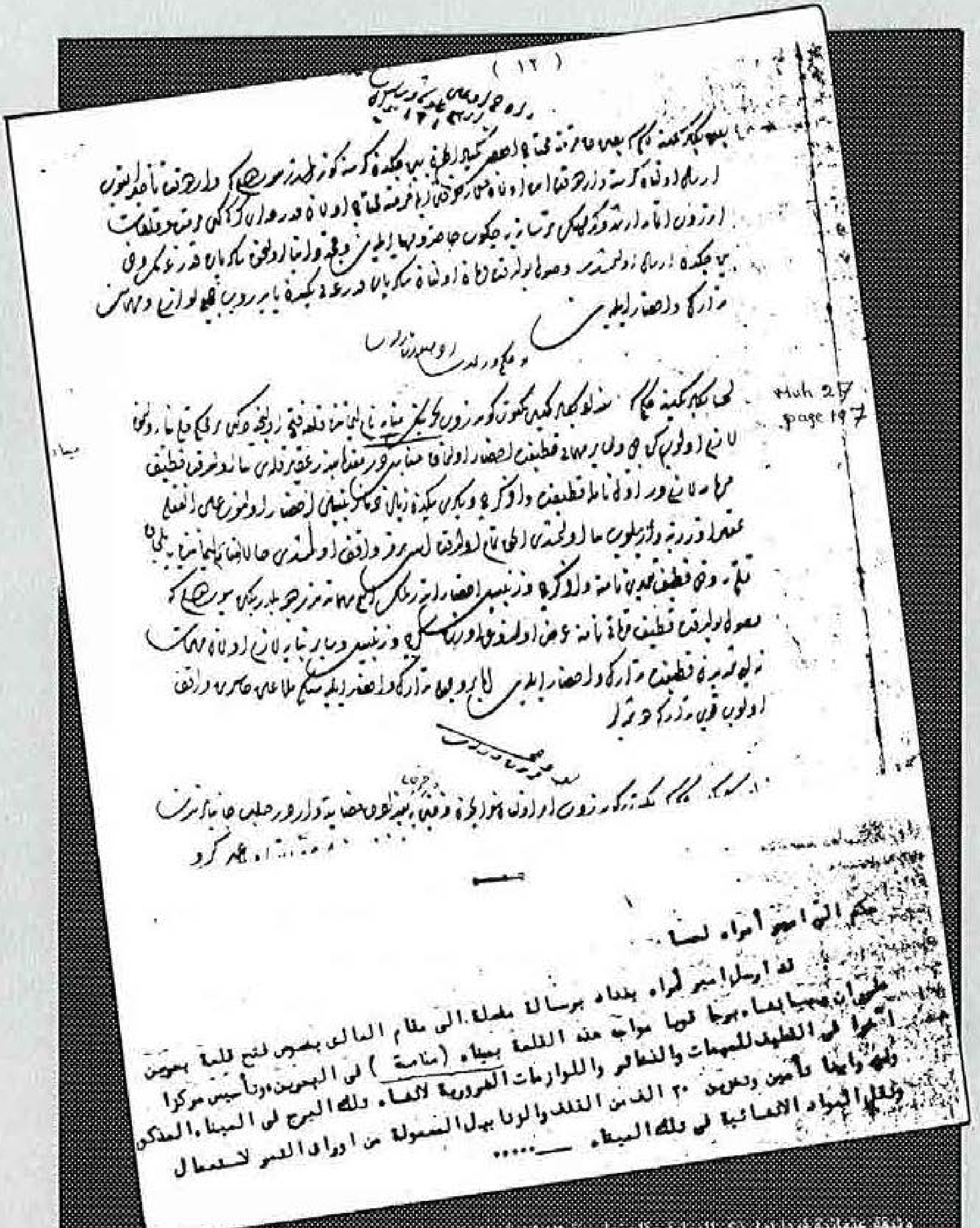
جاء فيه ان الامير المذكور بعث بدفتر القضايا المختوم الى مقام السلطان يقول فيه ان امير لحسا السابق / مصطفى استولى على اموال جمعة رمال الموجود في القطيف رغم امر السلطاني الصادر الى امير لحسا السابق / محمد حول جمع الاعداء على اموال رمال و اقربائه بعد اخذ حقوق الديوان منها ويضيف الامير المذكور ان جمعة بن رمال من كبار التجار من في القطيف وبعد ما استولى الامير السابق على امواله هرب الى البحرين واستقر فيها واخذ معه ما يملكه من السلس و الغواص اللؤلؤ مما ادى الى ركود اقتصادي في البلد و لم يعد يذكر اسم اللؤلؤ في البلد . ويسئل الامير من المقام العالي الوجه الصالح في المشكلة وهو اما تسليمها الى اصحابها او الاستيلاء عليها من قبل الخزينة .

ويأمر السلطان في حكمه ارجاع اموال عائلة جمعة رمال اليهم وقبض ما للخزينة منها .

١٨ شعبان ٩٦٧

١١٢٣ [illegible]

وثيقة عثمانية مؤرخة في ٩٦٧هـ وفيها ان بعض تجار اللؤلؤ من القطيف استقروا في البحرين فانتعشت تجارته فيها



(١٢)

Muh 27
page 197

حكم الى امير امراء لحسا

لقد ارسل امير امراء بغداد برسالة مفصلة الى مقام العالي بخصوص فتح قلعة بحرين [illegible] بوجود فيها مواجه هذه القلعة بحيث (منامة) في البحرين وتأسيس مركزا [illegible] في القطيف للمهمات والذخائر واللوازمات الضرورية لانشاء تلك البرج في البناء المذكور [illegible] تأمين وتعيين ٢٠ الف من [illegible] المحمولة من اوراق [illegible] لاستعمال [illegible] المواد الانشائية في تلك البناء ــــ .....

وثيقة عثمانية فيها اول ذكر للمنامة وقلعتها سنة ٩٨٣هـ/١٥٧٥م

خاصة بعد أن استولى مصطفى باشا على أموال (آل رحال) وهم من تجار اللؤلؤ الذين نزحوا الى البحرين مع تجار أخرين ولم يعد يذكر اللؤلؤ في البلد ، ولكن السلطان العثماني أمر باعادة أموالهم ما داموا يدفعون رسوم خزينة الدولة(١١) وفي وثيقة عثمانية مختومة بختم أمير الاحساء العثماني ومرسلة الى دار السلطنة مؤرخة في ٩٨١هـ/١٥٧٣م ورد : (ان في البحرين أكثر من ثلثمائة قرية وان ربحها السنوي اربعين الف فلوري (خاصة من صيد اللؤلؤ) وان من السهولة فتحها . ويسأل الصدر الأعظم كيف يتم فتح البحرين ومتى وكم العدة لفتحها ؟ ثم يطلب تقصي الاخبار عن عساكر البحرين وعن محصولها ؟(١٢) .

ثم أمر السلطان ببناء برج (قلعة) في ميناء المنامة ٩٨٣هـ وهذا ثاني ذكر في التاريخ عثرنا عليه لميناء المنامة وأول ذكر كان أثناء حملة مصطفى باشا الفاشلة على البحرين ضد البرتغاليين في سنة ٩٦٦هـ/١٥٥٩م(١٣) .

أما الوثائق (الهولندية) فقد أوردت ذكر اللؤلؤ في البحرين ففي عام ١٦٣٤م ابتاع نيكولاس اوفرسخي مدير المؤسسة الهولندية في جمبرون كمية قليلة من اللؤلؤ على سبيل التجربة وبعث بها الى هولندا . فلم تجد هذه اللآلىء اقبالا في أسواق هولندا بسبب أثمانها العالية ولكن ذلك أثار اهتمام الهولنديين بالبحرين في ١٦٤٠م مباشرة خاصة بعد تدهور التجارة الهولندية مع ايران وتدهور الأوضاع في جمبرون (بندر عباس) وقد استهدف الهولنديون بذلك تحقيق أفاق جديدة في التجارة وخاصة في تجارة اللؤلؤ ولكن محاولات هولندا المتكررة في الدخول الى أسواق اللؤلؤ باءت بالفشل لأسباب مختلفة وفي بداية الخمسينات من القرن السابع عشر بذلت شركة الهند الشرقية الهولندية مجهودا ضخما لبسط مصالحها في آسيا وقام الهولنديون بدراسة امكان ارسال ممثلي الشركة الى البحرين وجلفار (رأس الخيمة) لشراء اللؤلؤ ولكنهم لم ينفذوا خطتهم وقد يرجع السبب الى الصراع القائم بينهم وبين البرتغاليين في منطقة سيلان حيث احتل الهولنديون أماكن صيد اللؤلؤ فيها وصرفوا النظر عن الاهتمام بلؤلؤ الخليج العربي . وقد أصدر مدير المكتب الهولندي في جمبرون (بندر عباس) تعليماته الى كوبمان هنريك في كونك وذلك في ٢٢ مايو ١٦٤٣م لشراء اللؤلؤ من

البحرين ، وان يبحر في بداية الشهر السادس على ان يصحب معه (تسيك بيت) وهو هندي بانياني فيتوجها ومعهما حصانان وجملان أو بغلان لنقل أمتعتهما وان يستقلا سفينة من سفن المسلمين المتوفرة على ساحل كونك وحين وصولهما للبحرين يستأجرا بيتا مناسبا ليستقرا فيه حتى شهر اكتوبر ويشتريان اللآلىء ثم يتوجهان باللآلىء الى هولندا .

وجاء في الوثائق الهولندية وصف لصيد اللؤلؤ وفيه ان صيادي اللؤلؤ يتوجهون بمراكبهم الصغيرة في شهر يوليو من كل من البحرين وكنغ والقطيف وجلفار (رأس الخيمة) فتبتدىء المرحلة الاولى لعملية الغوص . وبعد ان يحصدوا حصادا لا يستهان به ، يتوجهون الى بعض الجزر الصغيرة الواقعة على بعد حوالى ١٠ أو ١٢ ميلا من البحرين ومعهم الاصداف التى تفتح في حضور ربابنة السفن والقواد المختصون لهذا الغرض . وتستخرج اللآلىء وتسلم الى القواد المذكورين الذين يستلمون اللآلىء التي يصادق عليها ربان السفينة ويختمها بختمه ثم انهم يتوجهون الى البحر للمرة الثانية لصيد المحار وتتكرر العملية حتى يتم تقييم الحصاد الثالث حوالى بداية أو أواسط شهر سبتمبر حينما يعود كل صياد لؤلؤ الى مقره (غالبا الى البحرين) وهناك تباع اللآلىء بأغلى ثمن ممكن . ثم ينقلها المشترون الى بلدان شتى . ويستطرد مدير المكتب الهولندي باصدار تعليماته الى كويمان فيقول : ونوصيك باستخدام كل وسيلة لشراء اللآلىء المستديرة البيضاء الخالية من الماء مقابل أسعار معقولة ومناسبة . وعليك الا تبدى رغبة شديدة في الشراء . كن هادئا كي لا يثير حماسك التجار الى الكبرياء والعناد . وتظاهر (وهي الحقيقة) بأنك جئت لتستكشف اذا يمكن للشركة ان تبيع بضائعها في تلك البلدان بأرباح معقولة . (نحن حلفاء البرتغاليين الآن ونستطيع ان نتحرك في كل مكان بحرية) وعليك ان تدعم زعمك بالقول بأنك جئت بالبضائع المتنوعة لهذا الغرض . وفي هذه الاثناء عليك ان تكون حريصا على شراء فئات اللؤلؤ بالنقد من طراز ¼ و½ و¼١ و½١ قيراط الى قيراطين حسب ما يتوفر من أحسن الانواع . ولا تشتري فئات مخلوطة بحيث يكون الثلث منها كروية وشفافة والباقي أصفر اللون وردىء غير شفاف الا اذا ضمنت بأنها ستربح . وفي رأينا اذا اشتريت اللآلىء من هذه الفئة فعليك ان

Extract from a letter by the director of the Dutch establishment in Ispahan, Carel Constant to the Batavia High Government, 20 XII 1643

(f.863v)
---Bij soo verre onse cassa 't toelaet, sullen op den incoop der peerlen letten en eenige advantagieusche partijtgens voorcoomende aenslaen, edoch soo noch vermercken sal der niet veele met voordeel in gedaen connen werden waervan ons den tijdt hiernaer de zeeckerheyt openbaere, deesen jaere offte 't gepasseerde saeysoen is de vangst soober geweest. Voor Chormandel werden ons door d'Edele gouverneur Arent Gardenijs geene geeyst . Tot ontdeckinge van dien en off daerinne ietwes met voordeel bij der hant genoomen kan werden, sullen letten en U Edelhedens advys geeven, edoch wert den handel in Baran en Catieffa soo mecanyck, naer ons laetten onderrechten, gedreeven, dat door onse natie mijns oordeels weinich ten goede verricht sal connen werden, en is 't een handel die met goede kennisse dient te geschieden en persoonen die goede ervarentheyt hebben daertoe gebruyct...

--- In as much as our funds allow us, we will keep an eye on the buying of pearls an in case some advantagious lots occur, we will buy them. But insofar as we observe, there can not be done much in this matter with profit; we hope that we may have any certainty in future. This year ofr the last season the fishery has been poor. The noble governor Arent Gardenijs[a] has not asked any from us for Coromandel. For the discovery of this trade and whether in this can be taken on anything with profit, we will pay attenion and inform Your Honours, but according to our information, the trade in Baran and Catieffa[b] is carried on in such a complicated mannerthat according to my opinion there can be done little good by our people. it is a trade which should be done with good knowledge and experienced persons should be employed in this matter...

وثيقة هولندية مؤرخة في ١٦٤٣م وفيها أن صيد اللؤلؤ في هذا العام كان شحيحا

تشتري اللآلىء الشفافة بأسعار معقولة أو عادية والبقية من اللآلىء الرديئة غير الشفافة مقابل سعر رخيص جدا ففي هذه الحالة يسمح لك بأن تشتري الفئات المخلوطة .

وانه من الأفضل ، أن تختار من الفئات التي تعرض أمامك اللآلىء البيضاء المستديرة الخالية من الماء حتى اذا تكلفك هذه أكثر من الاسعار العادية . وانني واثق بأنك سوف تجلب بعض الاصناف الجميلة من اللآلىء ، بهذا نعطى لك ١٠ حبات من اللآلىء كعينة وأكبرها وزنا قيراط واحد وكلفتني كل لؤلؤة منها ٦ محمدي . اذا وجدت اللآلىء من هذا النوع وزنا وشكلا أي ان شكلها كروي ومضمونها المائي أبيض وشفاف فعليك ان تشتري بين ١٠٠٠ و٢٠٠٠ حبة بسعر خمسة أو ٦ أو ٧ محمدي او أكثر بقليل على ان تصرف أقل ما يمكن لشراء اللآلىء لان ذلك في صالح الشركة ان ٥ حبات من اللؤلؤ كان وزنها الكلي قيراطان كلفتني ٨ محمدي لكل حبة منها . فان تجد اللآلىء من هذا النوع ولنفس السعر أو أكثر بقليل فيمكنك ان تشتري بين الفين وثلاثة آلاف حبة .

واذا عرضت أمامك اللآلىء من قيراطين أو أكثر نعطيك الحق في شرائها ان كانت كروية الشكل ولونها أبيض وشفاف . ويسمح لك شراء حوالى ١٠٠٠ حبة لؤلؤ من وزن قيراطين وبسعر من ١٥ الى ٢٠ محمدي . واحذر ان توجد فيها عيوب أو بقع وانها صافية وشفافة فان هذا أمر هام . اذا وجدت أزواج من الدرر الكبيرة الجميلة البيضاء على ان تكون شفافة لامعة ومستديرة صالحة لاستخدامها في حلقات الحلى فيمكنك ان تعرض لها من ٣٠٠ الى ٣٥٠ محمدي . وفي رأينا اذا حددت هذا السعر أو ما يقرب منه فلا مانع من شرائك بين ١٠ و١٢ زوجا منها . ولا يمكن لي ان أحدد لك اسعار اللآلىء بالضبط فعليك ان تتصرف بصورة ملائمة حسب ظروف العرض والطلب في السوق وحسب مواصفات اللآلىء وان البانيان تسيك بيت متخصص في هذا المجال ولديه المام بأسعارها التقريبية . ارسل هذا البانيان لمساعدتك واجلب انتباهك الى خبرته وفي نفس الوقت لا يجوز الاعتماد عليه كليا اذ يجب عليك ان تقوم بعملية الشراء بنفسك وان المامك باللغة العربية يساعدك كثيرا ثم ادفع الى هذا البانيان مبلغا قدره ٣٥٠ محمدي من أجل تكاليف سفرة وعليه ان يتحمل نفقات الاكل بنفسه .

نوصيك بأن تقوم بالتحقيق في تقدير حجم البضائع المباعة كيفا وكما في هذه المنطقة سنويا واسعارها كي نعرف بالضبط اذا يمكن كسب الارباح لصالح الشركة وعلى سبيل الاختبار سيسلم لك ميير Mayer التاجر المعروف السلع الآتية وهي :

٢٠ علبة كافور ياباني

علب فلفل اسود لـ ٥٠ شخصا

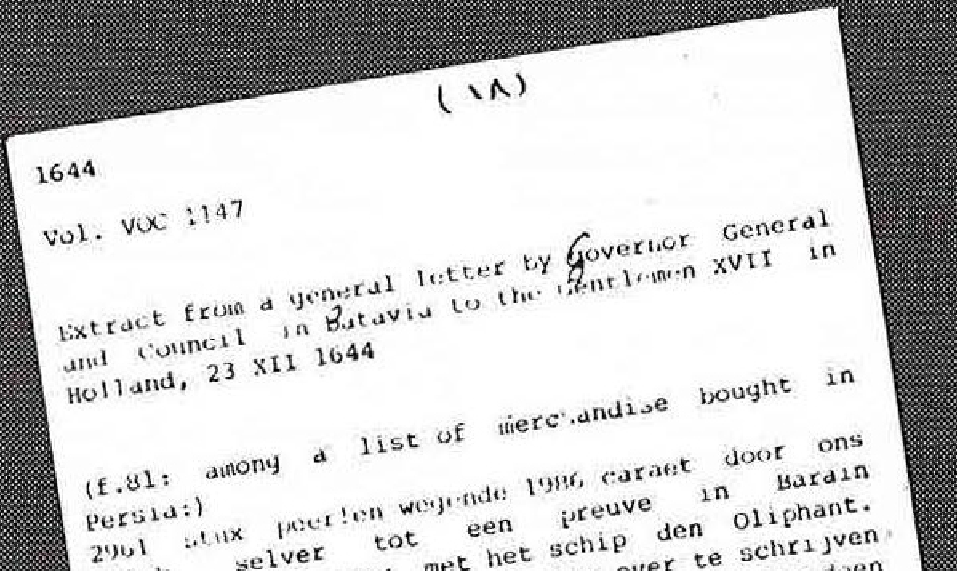
علب خشب صندل لـ٥٠ شخصا

١٤ رزمة وفيها أنواع الفخار وأكواب القهوة مع أو بدون قاعدة كالمذكور على الرزمة وفي الفواتير . حاول بيع البضائع المذكورة بأحسن سعر ممكن في تلك المنطقة . لقد بعنا البضائع هنا بالأسعار الآتية : الكافور ٤٠ والفلفل الاسود ٢٤ ½ وخشب صندل ٣٦ لارين و٣٠ رطلا . وأكواب القهوة دون القواعد بواقع ٢٠ وبالقواعد بواقع ١٢ لارين وعليك ان تحافظ على المذكرة كاملة ونأمركم بكتابتها . كن دقيقا وحذرا في كافة تصرفاتك كيلا تلحق بالشركة أي ضرر أو تعرض نفسك للخجل بسبب اهمالك . وقد زود مدير الشركة بمبلغ ٢٥٠٠٠ لارين لشراء اللؤلؤ من كونك والبحرين .

وتقول التقارير بأن صيد اللؤلؤ هذا العام (١٦٤٣م) كان ناجحا اذ آمل ان كوبمان يورد معه فئات من اللآلىء الفاخرة والى حد ما نفهم من رسائله انه تعرض لهجوم من اثنين من القراصنة وهو في طريقه من كنغ الى البحرين بالقرب من نابان ونهبا أموال الشركة (٣٢٠٠٠ محمدي) ، ولكن بعد بضعة أيام رجعا له الأموال في (عسالو) وهي قرية بحرية بالقرب من البحرين ، باستثناء بين ١٢٠٠ و١٣٠٠ محمدي ضاعت ما بين أفراد القراصنة[١٤] .

وورد في خطاب مؤرخ في ١٠-١٢-١٦٤٣م من مدير المؤسسة الهولندية الى حكومة بتافيا : بقدر ما تسمح به ميزانيتنا ونشترى من اللؤلؤ بعض الفئات الرابحة منها لكنه يبدو لحد معرفتنا بأنه من الصعب علينا ان نكسب أرباحا كثيرة . ونأمل ان نكون واثقين أكثر في المستقبل ، اذ كان الربح في الموسم الأخير من هذه السنة ضئيلا جدا .

ويجب ان نكون حريصين على معرفة كشف أسرار هذه التجارة واذا يمكن لنا ان نكسب أرباحا منها وسنخبر معاليكم لاحقا في هذا الشأن . ولكن طبقا لمعلوماتنا فان التجارة في كل من البحرين والقطيف تجرى بصورة معقدة وفي رأينا لا يقدر رجالنا ان يقوموا بأعمال مربحة .



(١٨)

1644

Vol. VOC 1147

Extract from a general letter by Governor General and Council in Batavia to the Gentlemen XVII in Holland, 23 XII 1644

(f.81: among a list of merchandise bought in Persia:)
2961 stux peerlen wegende 1986 caraet door ons volck selver tot een preuve in Barain opgecocht gaen over met het schip den Oliphant. UEdele gelieven ons de bevinding over te schrijven alsoo den paerlehandel op UEdeles nader ordre doen surcheren hebben.

2961 pieces pearls of a weight of 1986 carat, bought by our own people in Barain by way of an experiment come to you with the ship Oliphant. Your Honours are requested to write us your judgment; we have stopped the pearltrade until your new orders...

وثيقة هولندية تعود لسنة ١٦٤٤م وتدور حول تجارة اللؤلؤ في البحرين

وانها تجارة تتطلب معلومات جيدة ويجب ان يستخدموا رجالا ذوي خبرة فيها(١٥) .

وهذه رسالة من الحاكم العام لجزر الهند الشرقية الهولندية الى امستردام في ١٦٥٢م جاء فيها : سبق لنا ان نرسل لكم تقريرا عن الاوضاع في ايران وارفقنا معه تقريرا عن خطة المدير (سارسريوس) لزيارة كنغ لشراء اللؤلؤ ، فلقد علمنا من رسالته المؤرخة ٢١ مارس بأنه طبقا للتقاليد المتبعة هناك تباع اللآلىء الشفافة والرديئة معا بصورة مخلوطة فاتخذ خطوات مناسبة حسب الظروف السائدة كي يحصل على صفقة رابحة. واشترى على سبيل الاختبار كمية صغيرة بمبلغ ٤/١٧٥٠ جلدر كي يرسلها هنا لاختيار الحبات الشفافة منها وارسالها لكم وارسال النوع الردىء منها الى سورت . هذه اللآلىء تعطى ارباحا معقولة في سورت لان الحصاد فيها العام الماضي لم يكن مثمرا ، وبسبب شراء اللآلىء الثمينة المتوفرة من أجل جلالة الملك لم يستطع سارسريوس من ايفاء طلباتكم بقدر كاف واكتفى بشراء بعض العينات فقط . وحسب رأيه اذا رغبتم معاليكم في مواصلة هذه التجارة فيجب ارسال تاجر أو تاجرين محنكين لفترة من الزمن وذلك في موسم الصيد العادي الى البحرين أو جلفار حيث يتم صيد اللؤلؤ وعليهما ان يبقيا هناك من البداية الى النهاية ويكشفا عن تفاصيل عملية الشراء المباشرة وورد في رسالة من مدير المؤسسة الهولندية في جمبرون (بندر عباس) قوله : اذا ظل الخليج خاليا من السفن الانجليزية والبرتغالية ولم نواجه أي تدخل منها ، علينا ان نرسل مبعوثا ومعه بانياني ذو خبرة لمساعدته من كنغ الى البحرين ، طبقا لاقتراحنا . ونتمنى ان يحصل هذا التصرف على رضاكم(١٦) .

وهذه مقتطفات من خطاب (هندريك فان ويك) مدير المؤسسة الهولندية في جمبرون الى الحاكم العام في باتافيا مؤرخ في ٥ مايو ١٦٦٣م يقول: نرسل طيه ٧٨٥ لؤلؤة صغيرة لهولندا حسب الطلب وان اسعارها تفوق الاسعار السابقة بكثير اذ لم يكن حصاد اللؤلؤ الصغير هذا العام مثمرا في البحرين على ان اللؤلؤ اكثر من قيراطين وزنا متوفر بكثرة لكنه غال . وان التجار الذين اخذوا معهم منه كميات كبيرة الى سورت خسروا بقدر ٤٠٪ لان اللؤلؤ في سورت أرخص بكثير من جمبرون والبحرين كما ان اللآلىء الصغيرة المذكورة اعلاه قد

اشتراها البانياني في البحرين خصيصا للشركة الهولندية والا كنا نتردد في شرائها بأسعار عالية مثل هذه . نأمل ان تنزل أسعار اللآلىء الصغيرة الى معدل متوسط لاحقا كي نستجيب لطلباتكم في العام القادم[١٧] .

وفي رسالة اخرى من مدير المؤسسة الهولندية (هندريك) الى الحاكم العام في بتافيا مؤرخة في ٨ فبراير ١٦٦٤ جاء فيها : امرت هولندا بشراء لآلىء بمبلغ ٥٠,٠٠٠ جلدر وكميات من اللآلىء الصغيرة . لم يكن الحصاد في البحرين في العام الماضي مثمرا ومن المتوقع ان الحصاد يكون مثمرا هذا العام . سنكلف شخصا هذا العام أيضا بشراء كميات ملحوظة من النوعين في البحرين وكذلك نفوض شخصا في سبتمبر واكتوبر بشراء اللآلىء في كنغ التي يصدر اليها اللؤلؤ من البحرين للبيع . وهكذا نغطي طلبات هولندا على الاقل جزئيا . وقرر المجلس بالاجماع تفويض كوبمان بهذه المهمة وسوف يصل قريبا[١٨] .

ومن مقتطفات رسالة ارسلها الحاكم العام في بتافيا بتاريخ ٢٢/١٢/١٦٤٤م جاء فيها :

تصل اليكم ٢٩٦١ حبة لؤلؤة وزنها ١٩٨٦ قيراطا اشتراها رجالنا في البحرين على سبيل الاختبار بواسطة سفينة (أوليفانت) ونرجو معاليكم اشعارنا بانطباعكم . قد أوقفنا تجارة اللؤلؤ حتى نحصل على أوامركم الجديدة [١٩] . وتشير التقارير الايرانية بصفة عامة بأن ممارسة تجارة اللؤلؤ في ايران لن تكون مربحة للشركة فلقد زار (كوبمان وليم بوزيم) كنغ لهذا الغرض ومكث هناك ٥٠ يوما لكنه لم يستطيع ان ينفق أكثر من ٤ و١٧ و٩٠٢ جلدر لشراء اللآلىء العادية ولم يستطع شراء اللآلىء الصغيرة الممتازة هناك . ولا داعي للشركة ان تحرم نفسها من هذا النوع من اللآلىء لانها تأتي من (توتي كورن) بكميات لا بأس بها .

وقد أراد المدير (فان ويك) أن يرسل رجلا الى البحرين حيث انها مركز تجاري رئيسي ويمكن فيها شراء كميات من اللآلى المتنوعة مباشرة وحسبما ورد في كتابكم ان اللآلى الرائعة تصلح لأسواق هولندا والرديئة لأسواق روسيا . ولم نتمكن من ارسال هذه البعثة لأن شراء اللؤلؤ يتطلب خبرة خاصة ولا توجد لدى مستخدمي الشركة هذه الخبرة كما لا يمكن الاعتماد على البانيان لهذه

التجـارة بسبب غـدرهم لكنـه يمكن صـرف مبلغ متواضـع عـلى سبيـل الاختبار لهذا الغـرض في وقت لاحق كي نعرف ان كانت هـذه التجارة في مصلحة الشركة . (٢٠)

وفي جـواب من مديـر المـؤسسـة الهولندية الى الحاكم العام يذكـر انه ارسل كوبمان الى كنغ لشراء كمية من اللؤلؤ لارسـالها لهـولنـدا. وانـه لم يستطع شراء أكثر من ٣٠٢ قراريط و٤٤٣ حبة بالاضافة الى ٦٣٧ لؤلؤة صغيـرة ممتازة وسعـرها الاجمـالي ١٢/-/١٣١٩ جلدر. ومعنـاه أن التجربة أثبتت عدم جدواها ولا داعى للشركة أن تكـرر الاختبار. ان كـان لدينا رجل ذو خبرة كافيـة قادر عـلى شراء اللآلى المخلوطة، وهذا أمر هام، فكـان يمكن له حسب تقديـرنـا، ان يـشـتـرى الشيء المـطلوب مـن (البحـرين)، ولا يمكن الاعتماد عـلى البـانيـان لهـذا الغـرض ويجب أن نستخدم أحد الموظفين الكبار للشركة ممن لديـه المـام بـاللؤلؤ والا يكـون مجهودنا عبثا ولن نستطيع ان نكشف عن أسـرار هـذه التجـارة بـطريقـة صحيحة (٢١).

وورد في خـطاب مديـر المؤسسـة الهولندية في جمبرون الى الحاكم العام قـوله : لقـد أرسلنـا في السنـتـين المتتاليتين مبعـوثا الى كنـغ لينظر في أمكانية شراء كمية من اللؤلؤ ملائمة لهولندا لكن المهمات انتهت دون نتيجة لأنه لم يكن ممكنا لها ان تشترى الا كميـات قليلة مما اثبت عـدم جدوى استمرار العملية. واذا حصل معاليكم على خدمة مواطن هولندى ذى كفاءة يقوم بتجربة في (البحرين) في تجـارة اللؤلؤ بكمية صغيرة، فمن المحتمل ان الشـركـة تـرغب في ممـارسـة هـذه التجارة. ولما أصل الى باتافيا سأرفع تقـريرا لمعـاليكم بهذا الشـأن مثلما عملنـا سـابقـا بـواسـطة ارسـال الخطابات المستعجلة لكم لاننا ما لدينا في هـذا المكتب رجل ذو خبـرة ليقوم بالاختبار بـالعنايـة المطلوبـة الا اذا وافقتم على توفير خدمات (كوبمـان) لمدة ٤ أو ٥ شهور. فأنه رجـل يمكن الاعتماد عليه (٢٢) ومن خطاب لمدير المـؤسسـة في جمبـرون الى الحـاكم العام. قوله : لقد سبق للمدراء بتاريخ ٩ مـايو ١٦٦٩م منـاقشة مـوضوع انشاء مقر دائم للشـركة المـوقرة في مسقط. تتطلب دراسة هذا الموضوع ارسال شخص ذى كفاءة الى مسقط في وقت مناسب ويجب عليه ان يفهم الى حـد ما اللغـة وكذلك أحـوال وميول العرب وأن يزود بالتعليمات اللازمـة ليكشف أنواع البضائـع التى يمكن بيعهـا بالربـح المناسب كمـا يعـرف البضـائـع التى يمكن شحنهـا عنـد

العودة وكافة الأمور المتعلقة باستمرار أعمال التجارة نظرا لشهرة مسقط كمركز تجاري هام منذ سنوات عديدة. لا تزال تزدهر (مسقط) بسبب زيارة كثير من التجار الهنود لأسواقها سنويا. كما يبدو هناك امكانيات فيها تجلب اهتمام الشركة ويمكن تحليلها عقب أكمال دراسة الموضوع. انه ليس من الضروري الاستعجال في أرسال البعثة الى هناك. يجب علينا أولا ان ننتظر الاعلان من الحاكم العربي عن مدى الاعفاءات الجمركية المسموحة لنا. وعلينا الا نبدى اهتمامنا البالغ بالتجارة مع بلاده. فهو نفسه دعانا مرارا منذ مدة طويلة لنبدأ التجارة في مسقط. فنتوقع انه سيمنحنا امتيازات جمركية ولكن اذا لم يوضح لنا بصراحة هذه الامتيازات ويكتفي بالتعبيرات العامة مثلما تتضمن رسالته الأخيرة بعدم ازعاجنا، فعلينا ان نقوم بعمليتنا تحت ستار شراء بعض الخيول ان عدد هذه الخيول في ايران قليل ويجب جلب خيول قوية البنية والتى توجد بكثرة (في مسقط). فعلى هذا الأساس تتاح لنا فرصة جمع المعلومات التى نحتاج اليها .

لقد أوقفنا مشروع شراء اللؤلؤ في كل من كنغ والبحرين كلية ولن نفكر في هذا الأمر الا اذا تلقينا أوامر جديدة من معاليكم (٢٣).

وكتب كويمان في رسالة مؤرخة في ١٥/١٠/١٦٩٠م قوله سافرت الى (البحرين) في ١٩ يوليو في مركب صغير استأجرته لمدة شهرين لأختبر صيد اللؤلؤ نيابة عن الشركة واتخذ اجراءات أخرى لازمة في البحرين في مجال تجارة اللؤلؤ. يتضمن هذا التقرير نتيجة اختباراتى في الموضوع. أود أن أقول في البداية بأن اللؤلؤ هناك يقسم الى ٣ أنواع واسماؤها كبيسة وبارجة وبي ويتضح هذا من العينات المرفقة من اللآلى التى تم صيدها. تباع الكبيسة بأوزان أقل بمقدار ٣,٥ حبة لان العرب يعتبرون نصف أونس وزنا ثقيلا وأسعارها تتراوح بين ١٣٠ أو ١٤٠ أو ١٥٠ محمديا حسب اللون الاصفر فيها أو سوادها أو استدارة شكلها. وتباع البارجة بنفس الاوزان لـ ٦٠ أو ٧٠ محمديا لنفس الاعتبارات وتباع بي بواقع ١٦ او ١٧ محمديا لنفس الاوزان وبالنسبة للكبيسة يجب الملاحظة ان الأسعار المذكورة لا تشمل اللآلى الدائرية منها ووزنها ٢,٥ حبة أو أكثر ويتم كيلها وتقدير ثمنها منفردة. ويستخدم ٢٤ معيارا لتصنيف اللآلى حسب أنواعها الثلاثة

لاغـراض الضـريبـة، هـذه هـي الاعتبـارات التي تنطبق عـلى تجارة اللآلي وانني اشتـريتها بمـوجب هذا النظام التقييمي كما يظهر في القائمة المرفقة. ومما لا شك فيه بان معاليكم ستجدون مشترياتي موضع رضائكم رغم انهـا كلفت أكثر هـذا العام من الاعوام السابقة ويرجع السبب الى ان اليهـود من البندقيـة وحلب اشتروا اللآلىء هذه السنة بكميـات أكبر من السنة الماضية وكذلك أرسلت كميات ضخمة الى سورت ايضا لم يسمح بها الانجليز لعدة سنـوات ولكن التجارة مع سورت اصبحت حـرة الآن عقب ابرام اتفاقية السلام التى ابرمت بين الانجليز والمسلمين.

لقـد مـارست بعض الحـريـة في تصرفي عندما اشتريت بعض اللآلىء من حجم أكبـر مما أمـرتم بشرائـه لكنني اعتقـد بـأنهـا تكـون مقبـولة وتجذب أرباحا في هولندا. ان كان هذا صحيحا وتريدون اصدار أمر لشراء كمية اكثر من هذا النوع أو أكبر منه فارجوكم ابلاغنا عنه بأسرع ما يمكن وكذلك عن الانواع التى تجلب أرباحا أكثر كى احدد مشترياتى وفقا لذلك.

آمل أن اشترى اثناء اقامتى هنا قلادة ذات لآلىء يبلغ وزن كل واحدة منها ٢٤، أو ٢٥ حبة. وبـالنسبة الى اللآلىء الصغيرة ووزنها من ٤ الى ١٢ حبة آمل أن أرسـل لكم كمية كبيـرة منها سنويا بالأسعار الحالية أو اقل منها وتتضمن القائمة المرفقة الأسعار الحـالية ومن المحتمـل انها تنخفض لاحقا. أكون حريصا كل الحرص على ممارسة اليقظة في كل عمل اقوم بـه ورغم ذلك أنا آسف كل الآسف لأنني لم أستطع بيع الدوكات الذي استلمت في جمبرون بواقع ١٦ محمديا لاكثر من ١٤,٥ محمدى ويعتبر ذلك سعرا عاليا بسبب قلة توافر محمدى بصورة فوق العادة ويمكن تحـويل الدوكـات لدى الصـرافين لـ ١٣,٦٠ محمـدى لكل دوكات. فمن الأفضل ان المكتب في جمبـرون يـدفـع لي مستقبـلا عملة محمدى بدلا من دوكات كل سنة تكفى لتحقيق أوامركم لان التجار يترددون في قبول الدوكات.

وبـالنسبة لصيـد اللؤلؤ مستقبلا انني لا أوصى بـه لمعاليكم بسبب قلة الربح. استخدمت عشرة مراكب لهذا الغرض ولا واحد منهـا يكسب ربحا يغطي مصاريفه. يتم صيد اللؤلؤ كل سنة اعتمادا على مجرد الأمل وحسن الحـظ وذلك على يـد الناس الذين لا يستطيعون ان يعملوا شيئا آخر.

وفي تقرير موجه من جمبـرون الى الحـاكم العـام ١٦٩٩م جـاء فيـه :

بالنسبة لشراء اللآلىء قد أرسل كوبمان لهذا الغرض في عام ١٦٩٠ الى هناك من قبل الوكيل فان ريد بالتعليمات اللازمة. وبعثنا بنتائج صفقاته التجارية الى سيلان كي ترسل من هناك الى هولندا لغرض اصدار الأوامر اللاحقة فما هي الارباح ؟ قد أمر الوكيل في العام الماضي بشراء اللؤلؤ بقدر ١٠,٠٠٠ جلدر سنويا. وقد ابلغ كوبمان سعادة السفير الموقر كتابيا بأنه يجب ان يتم شراء اللؤلؤ في كنغ وليس في البحرين. وقد الحق كوبمان رنشاجين بكوبمان المذكور ليكسب معلومات دقيقة عن تجارة اللؤلؤ وكتب لنا (رنشاجين) حديثا من كنغ قائلا بانه يجب شراء اللؤلؤ في البحرين وليس في كنغ وأدلى بتصريحات بهذا الشأن كما ترون معاليكم في مقتطفات من رسالته حول الموضوع. لم يستطع (كوبمان) صرف ٥٠,٠٠٠ جلدر في الموسم الاخير لشراء اللؤلؤ ولم تزد مشترياته عن مبلغ ٣٤,٢٩١/١٧/٦ جلدر بسبب حماس التجار الهنود في شراء اللآلىء لارسالها لسورت فارتفعت الأسعار نتيجة ذلك وشعر كوبمان بانه لا يستطيع ان يدفع الأسعار المرتفعة ان كانت الشركة ترغب في مزاولة التجارة فيها في هولندا وبناء على أمر السفير الموقر أرسلنا بضائع مختلفة من هنا الى كنغ للتحقق من امكانيات التجارة هناك كما رفعنا العلم الهولندى هنا في جمبرون في منطقة سكنية لموظفي الشركة فأثار هذا اعتراضا شديدا من البرتغاليين في البلاط الملكي الذين انزلوا علمهم. ففي وقت لاحق انزل شاه بندر علم الشركة مع الصارى وجميع ملحقاته على أساس ان العلم رفع دون علم الملك وكان صاحب الجلالة قد أصدر أمرا كتابيا له لينزل علم الشركة. لكن شاه بندر لم يعرض هذا الأمر الكتابى أمام المقيمين ولم يعط لهم نسخة منه [٢٤].

وورد في رسالة الى حكومة بتافيا من هولندا : فيما يخص شراء اللؤلؤ في كنغ أو في البحرين حيثما يوجد أحسن منه مقابل مبلغ محدد للاستثمار نكتفى بالقول بأنه اذا اتبع موظفونا تعليماتنا فنكسب الأرباح دون شك ولكن اذا تجاوزوا تعليماتنا واتبعوا ميولهم الشخصية كالعادة سنخسر بدلا من ان نكسب كما يبدو من فحص حسابات المبيعات المرفقة لبعض الفئات واذا حصل ذلك مستقبلا تحمل على حساباتهم الخاصة لمن يقومون بشرائها كافة الخسائر المتكبدة [٢٥].

Vol. VOC 323

Extract from a letter by the Genmtlemen XVII in Holland to the Batavia High Government, 8 VII 1693

(the pages in this volume are not numbered, this extract is to be found in the chapter 'Persia' of the letter of 8 VII 1693 to Batavia)

---Belangende den inkoop van peerlen 'tsij tot Congo off Barin daer deselve best sijn te krijgen en dat met den aenleg en bestedinge daerin van soodanige somme als daertoe is geproiecteert, daerop weten wij niets anders te seggen dan dat wanneer onse bediendesn haer daerin komen te reguleeren nae d'instructie haer voor desen toegesonden, wij niets anders als goede profijten daerop te verwagten hebben, maer so sijlieden die komen te buyten te gaen en haer eygen fantasye daerin te volgen gelijck dat haer manier van doen is waerdoor wij in plaetse van voordeel op dese en geenre parthijen iongst bij ons verkoft schaede behaelt hebben gelijck als dat naerder is blijckende bij de rendementen die UEdele neffens desen werden toegesonden, wij nae dese deselve voor haer eygen reeckening sullen laten blijven en de schade daerbij te lijden verhaelen op die den inkoop daervan sullen hebben gedaen...

---Concerning the buying of pearls, either in Congo or in Barin, whereever they are best to be obtained and with the investment and spending in this of such a sum as has been destined , on this we know nothing else to say but that if our servants will comply themselves to the instruction which has been sent to them, we can not expect else but good profits from it, but when they exceed their instruction and follow their own

وثيقة هولندية مؤرخة في ١٦٩٣م وفيها ان هناك صراعا للسيطرة على البحرين الغنية باللؤلؤ

وجدير بالذكر فإن (فالانتاين) قد كتب تقريرا وافيا أشار فيه الى ما كتبه الغربيون عن أماكن صيد اللؤلؤ وان صيادى اللؤلؤ يدفعون لشيخ البحرين ضريبة مقابل تأمين سلامتهم في مواضع الصيد فقال : ان الاشارات الاولى لدور الانجليز في الخليج العربي تبدأ حين عاد أحد البريطانيين واسمه (رالف فتش) وزملاؤه الى بريطانيا وقصوا على السلطات هناك عن الثروات الطائلة التى بالامكان جمعها عن طريق التجارة والتى شاهدوها في رحلاتهم حتى اقتنع الانجليز بانشاء شركة ايست انديا (شركة الهند الشرقية) في عام ١٦٠٠ فوضعت بريطانيا لها موطىء قدم في الخليج العربي تحت ستار من التجارة وساعدهم شاه ايران مقابل مساعدتهم له ضد البرتغاليين.

وقد وصف الرحالة (رالف فتش) البحرين ولآلئها الكروية الجيدة والتى رأها تصدر الى اسواق هرمز وهي أجود أنواع اللآلىء. (٢٦).

أما (شاردن) مبعوث الحكومة الفرنسية لدى ايران بين ١٦٧١ ـ ١٦٧٧م فكتب في مذكراته قوله : (توجد مصائد اللؤلؤ عبر شواطىء الخليج العربي وخاصة حول جزيرة البحرين) (٢٧) و(تافر نير) الفرنسي هو الاخر عقد فصلا في كتابه عن اللآلىء وأماكن وجودها قال فيه : توجد مصائد اللؤلؤ بالدرجة الاولى حول جزر البحرين (٢٨).

وبعد نحو قرن وصف الرحالة (نيبور) ١٧٦٥م جزيرة أوال وما حولها من الجزر والتي تقع في الجهة الغربية من الخليج العربي واكبرها جزيرة أوال وكذلك تحمل كل جزيرة أسما خاصا بها ونظرا لاهمية هذه الجزر من حيث صيد اللؤلؤ فقد درت عليها الأموال الطائلة وتقدر الرسوم التى جبيت على اللؤلؤ والتمور بنحو ثلثمائة الف ليفر فرنسي أو ما يعادل مائة الف روبية هندية وكان المتولى على البحرين هو الذي تدفع له الرسوم المذكورة وله قوة عسكرية يحافظ بها على الأمن في مناطق الغوص وفي بلاده وهذه الرسوم لتسديد نفقات المحافظة على الأمن. وكتب (رينال) بعد سنتين من رحلة نيبور ١٧٦٧م ان البحرين تشتهر بلآلئها وهي أكثر شهرة واهمية من السواحل الاخرى في الخليج تلك التى قلت فيها اللآلىء بينما البحرين غنية بها ويمارس العرب هذه المهنة ويؤدون رسوما الى شيخهم في جزيرة البحرين (٢٩) الذي يملك اسطولا حربيا يقوم بدوريات بحرية في شواطىء الغوص على اللؤلؤ

ولا عجب اذا ما رأينا ان حكام البحرين كانوا يدافعون عن مصدر ثروتهم وعن سكان بلادهم ضد القراصنة لكيلا يخسروا شواطىء اللؤلؤ.

وجدير بالذكر ان البحرين كانت دائما موضوع منازعات بين القوات الاجنبية المختلفة بسبب ثروتها في اللؤلؤ [٣٠] ومع ذلك مارس العتوب الحكمة والمهارة في معاملاتهم مع المعتدين فحافظوا على سيطرتهم على البحرين ومن دراسة الوثائق والسجلات الرسمية وغير الرسمية التى كتبها الضباط الانجليز والمعتمدون السياسيون والعاملون في السلك الدبلوماسي والرحالة في القرن التاسع عشر وقد تركوا معلومات دقيقة ومفصلة وهم يمارسون اعمالهم اليومية وان كانت تعكس انطباعاتهم الشخصية ولكنها تكاد تجمع على ان من سيطر على البحرين سيطر ايضا على ثرواتها من اللؤلؤ ومارس السيادة على مناطق صيده ودافع عنها فاصبح له حق فرض الضرائب على صيادى اللؤلؤ وبذلك يمكن القول بان مناطق اللؤلؤ اصبحت جزءا لا يتجزأ من البحرين خاصة في القرن التاسع عشر واستمرت كذلك الى نهاية عهد الغوص وظهور النفط اي في عهد آل خليفة. وسوف نستعرض ما أورده الرحالة ورجال السلك الدبلوماسي بايجاز والتى وردت بتقارير وكتب ووثائق بريطانية ومنهم سكرتير في السفارة البريطانية في ايران الذى كتب ذكريات رحلته التى قام بها عام ١٨٠٨م فقال : ان جزر البحرين اغني ما في الخليج في اللؤلؤ وان شيخ البحرين فرض ضريبة على صيد اللؤلؤ [٣١].

ويقول كل من الملازم (بروس) وهو من المقيمين في الخليج في رسالة كتبها الى حاكم بومباي في ٢٦ يناير ١٨١٧م وكذلك القبطان (تايلور) مساعد المندوب السياسي في ذلك الوقت بأن ما يقوم به شيوخ العتوب في البحرين انما هو تجديد للتقاليد المتبعة قديما. وقد فرض والى البحرين ضريبة على كل سفينة مقدارها تومانان لكل سنة ومقابل ذلك كانت لشيخ البحرين سبع سفن حربية تحمى سفن الغوص في موسم الصيد وترافقها الى أماكن الصيد حتى تعود.

ويؤيد القبطان (ديوراند) ذلك في مذكرة كتبها عن صيد اللؤلؤ جاء فيها : كان شيخ البحرين عام ١٨١٦م (اى قبل نحو ثمانين عاما) قد فرض ضريبة لكى يستخدم هذا المدخول لانشاء اسطول حربي لحماية أماكن الصيد والشواطىء التى ترسو حولها سفن الغوص. وكان لشيخ البحرين اربع سفن حربية مجهزة باسلحة

وتقوم بدوريات بصورة مستمرة وكان لها سهم مما تحصل عليه سفن الغوص من محاصيل (٣٢) اللؤلؤ وكانت الضريبة تسمى (نوب) واستمرت هذه الضريبة تدفع لشيخ البحرين واصبحت مصدر رخاء للحكام في البحرين وكانت تجمع الضرائب فور مغادرة السفن للشواطىء نحو أماكن الصيد وهذا النظام هو نفسه القائم اليوم على حد قول (ديوراند). كما أكد الكولونيل (ولسون) المقيم السياسي اهمية البحرين في مجال صيد اللؤلؤ ويقول في مذكرة حول هذا الموضوع (ان اطول واوسع السواحل لصيد اللؤلؤ تقع بالقرب من جزيرة البحرين. ويبلغ عدد السفن التى تستخدم لصيد اللؤلؤ ١٥٠٠ سفينة وان الضريبة التى يدفعها كل صياد الى شيخ البحرين تبلغ خمسة كراون (٣٣) ويؤيد القبطان (بروكس) الذي يعمل في القوة البحرية الهندية ما أورده (ولسون) وكان (بروكس) قد قام بتسجيل المساحات وطول الطرق البحرية في الخليج العربي كما تطرق الى البحرين فقال: يتم توظيف ثلاثين الف مستخدم في صيد اللؤلؤ ويستخدم شيخ البحرين ٢٤٣٠ سفينة ويتراوح عدد المستخدمين في كل سفينة ما بين ٨ ـ ٢٠ شخصا ويحصل الشيخ على ضريبة رمزية من كل سفينة مقابل الدفاع عنها كما ان لشيخ البحرين سفن تبحر على نفقته في موسم صيد اللؤلؤ علاوة على خمس سفن حربية مجهزة بالاسلحة والمعدات لتأمين قيام سفن الصيد عامة بأمان ويستطيع شيخ البحرين ان يجهز من ١٥ الى ٢٠ سفينة حربية اخرى اذا اقتضى الأمر (٣٤) ويستطرد القبطان بروكس حين يصف شواطىء اللؤلؤ اثناء رحلته للقيام بعمليات المساحة في الخليج شخصيا ما بين سنتى ١٨٢٠ ـ ١٨٢٩م فيقول: تبدأ شواطىء صيد اللؤلؤ من جزيرة القرن الى الشارقة ويختلف عرضها من مكان لآخر. واغنى هذه السواحل من حيث الصيد هي شواطىء البحرين التى تمتد من خط العرض ٢٧ درجة شمالا وخط طول ٥٠ درجة شرقا الى الركن الشرقي عند مهبط الساحل ونظرا لحرية التصرف السائدة في تلك الشواطىء ينتهز سكان الخليج فرصة الصيد فيه بأمان تحت ظل حاكم البحرين.

وجدير بالذكر ان الملازم جيه. آر. ويل ستيد الذي كان يعمل مع القبطان بروكس والذي كان زميلا له بالقوات البحرية الهندية وقد شاركه في عمليات المساحة هذه كتب هو الاخر في كتابه

عن تجاربه الشخصية (٣٥) فقال : ان حق صيد اللؤلؤ حق مشترك لسكان الخليج ولا يزال هذا الحق مشتركا ولهم حرية كاملة فيه الا ان التقاليد الموروثة تجعل كل واحد يحترم مناطق الصيد لدى الاخر وكان للبحرين عبر العصور نصيب الأسد من تلك المناطق. وكان سكان البحرين بحارة يعيشون على منتجات البحر وثرواته في قاع البحر ويفرضون سيطرتهم على ارخبيل البحرين بما فيه من جزر وفشوت وضحول وصخور مما يستفيدون منه في الصيد والحماية من العواصف وما فيها من ينابيع المياه العذبة خاصة اذا علمنا ان للمياه العذبة اهمية كبيرة للعاملين في الغوص وسائر السفن التجارية.

وننقل ما أورده (كامبل) المقيم المساعد في الخليج في عام ١٨٤٤م قوله : ان الشيخ الوحيد الذي له حاجة ماسة لاسطول حربي هو شيخ البحرين نظرا للاطماع الخارجية التى تتعرض لها بلاده وأماكن الغوص حولها وكثرة خيراتها ويتوقف استقلاله على تفوقه في القوات البحرية (٣٦) وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر اخذت بريطانيا على عاتقها ارسال سفن حربية للبحرين لحماية أماكن صيد اللؤلؤ واخبار شيخ البحرين بذلك (٣٧) وجاء في برقية من (بيلي) للشيخ عيسى بن علي آل خليفة شيخ البحرين (ان مصالح الذين يسكنون في جزركم ولهم علاقة بصيد اللؤلؤ سندافع عنها وان السفينة الحربية (هيوغ روز) غادرت الى البحرين وعليها المقيم المساعد لهذا الغرض (٣٨) وكان هذا التدبير من بريطانيا نتيجة لمحاولة الدولة العثمانية التدخل في البحرين وامتداد نفوذها الى سواحل الاحساء. وتفيد السجلات والوثائق والاتفاقيات التى أبرمت مع شيخ البحرين وقتئذ انه تقرر ان يكون الدفاع عن أماكن صيد اللؤلؤ في البحرين تحت حماية الانجليز تلك الاماكن التى كانت تحت سلطة شيخ البحرين وبذا اعترف الانجليز ضمنا بسيادة شيخ البحرين في اقاليمه طبقا للالتزامات والاتفاقيات المعقودة معه (٣٩) وهكذا فان تحديد حدود صيد اللؤلؤ في البحرين كان متبعا حسب التقاليد المتوارثة على حد قول (مايلز) المقيم السياسي في عام ١٨٨٦م والذي تقلد عدة مناصب في الخليج العربي وسجل ملاحظاته بعد أن قام بتحقيقات شخصية في هذا الامر ونشرت زوجته بعد وفاته تلك المذكرات وجاء فيها قوله : ان شواطىء اللؤلؤ الشهيرة في الخليج

العربي تمتد من الكويت الى الشارقة بمسافة قدرها ٣٣٠ ميلا تقريبا وقد مارس السكان مهنة صيد اللؤلؤ منذ عهد قديم ولا تزال هذه الاهمية من حيث وفرة الانتاج ونوعيته الجيدة خاصة في الشواطىء التى يمارس فيها صيادو اللؤلؤ الصيد حول امارة البحرين حول الشواطىء الممتدة من قطر الى القطيف. حيث يبحر سنويا نحو الفين وخمسمائة قارب لصيد اللؤلؤ.

وشهدت الفترة ما بين ١٧٨٣ ـ ١٨٧٥م ارتفاعا واضحا في انتاج اللؤلؤ وذلك بسبب الهدوء المتزايد السائد في مياه الخليج وخاصة حول مصائد اللؤلؤ ثم بسبب الطلب المتزايد عليه.

وقد بلغت صادرات لؤلؤ البحرين ٥٠,٠٠٠ جنيه في ١٧٩٠م وان التقديرات التى تمت في بداية ووسط القرن التاسع عشر حول حجم تجارة اللؤلؤ ابدت تباينا واسعا للغاية وكان هذا التقدير وهو ٣٥٠,٠٠٠ جنيه لسنة ١٨٣٠م بدون شك فيه مبالغة وان مبلغ ١٨٠,٠٠٠ جنيه لصادرات لؤلؤ البحرين لسنة ١٨٧٥م يبدو معقولا ومتوازنا مع انه يمكن ان يكون الانتاج اكثر من ذلك ولكنه يحفظ سرا كيلا يطلع عليه جامع الضرائب.

ومثل انتاج اللؤلؤ فقد سجلت تجارة البحرين ايضا ارتفاعا عاما بين ١٧٨٣ و١٨٧٥م على الرغم من وقوع تقلبات عنيفة في الحياة الاقتصادية في هذه الفترة. خاصة عندما انتقل آل خليفة الى البحرين ويرجع الفضل في ذلك الى انتقال البحارة المهرة ونشاط التجار المحنكين من المؤسسات التجارية العتوبية في الزبارة الى البحرين اضافة الى انتصار آل خليفة ضد محاولات عمان للسيطرة على تجارة الخليج. وان الاستقرار والسلام الذي ساد الخليج قد ساعد في توسيع صيد اللؤلؤ ونقل البضائع التجارية من قبل الملاحين البحرينيين. كما يبدو في وقت مبكر كالثلاثينات (١٨٣٠م) استيطان عدد من التجار الهنود، تحت حماية بريطانيا في البحرين مما ساعد على حرية الوصول وسهولة التجارة مع شبه القارة الهندية. الا ان الاضطرابات الداخلية التى هزت البحرين في الثلاثينات والاربعينات سببت خسائر مادية للفلاحين والتجار ورجال الاعمال ايضا فهاجر بعضهم الى السواحل المجاورة وفي بداية الستينات (١٨٦٠م) نشطت حركة البواخر البريطانية في مياه الخليج وتحولت الشحنات التجارية الموجهة الى الهند

من الخليج على حساب اصحاب السفن المحليين. على الرغم من ان البواخر البريطانية لم تجعل ميناء

البحرين مرفأ للتوقف بانتظام حتى ١٩٠٤م الا ان السفن المحلية اقتصرت رحلاتها القصيرة على داخل الخليج فقط (٤٠).

وفي الوقت الذي نشر فيه لوريمر كتابه أورد ان عدد السفن التى كانت تعمل في صيد اللؤلؤ في البحرين سنة ١٩٠٧م (٩١٧) سفينة كما ذكر ان القيمة الاجمالية لانتاج البحرين من اللؤلؤ في موسم ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦م حوالى مليون روبية أو ما يعادل ٢٩٩, ١,٤٣٤ جنيهاً استرلينياً.

الهوامش

(١) الاحمد . الدكتور سامي سعيد . تاريخ الخليج العربي . ص٢١٠ و ٢٤٠ . البصرة ١٩٨٥م .

(٢) مجلة الجمعية الجغرافية الملكية . والمجلد ١٢/١٨٩٠ . وجي. ان كنتز . وسي. ايتش استيفنسن . كتاب اللؤلؤ . طبع لندن ١٩٠٨م . و أرنولد ولسن . الخليج العربي ص٣٠ . ١٩٢٨م

(٣) د. الغنيم . عبدالله يوسف ، الغوص على اللؤلؤ ، ص٣٠ طبع الكويت ، ١٩٧٣م

(٤) ناصر خسرو ، سفرنامة ، ص١٤٤ ، تحقيق الدكتور يحيى الخشاب .

(٥) الادريسي . جزيرة العرب من نزهة المشتاق ، ص٥١ ـ ٥٤ ، طبع بغداد ١٩٧١م .

(٦) الوثيقة ٨١/٣ و٩٢ (الجبور عرب البحرين وعربان الشرق ، للدكتور على ابا حسين) .

(٧) الوثيقة ١٠٣/٤ و١٢١و١٢٣ رسائل افونسودي البوكيرك ـ المجلد الاول . رسالة رقم ٥٠ ص٢٦٤ ـ ٢٦٥ وثيقة رقم ٤٨ ارشيف توري تومبو ٢٠ اكتوبر ١٥١٤م ودوارت باربوزا الجزء الاول ، ص٨٠ طبع ١٩٢١م .

(٨) جي. ايتش . فان لنشوتن كتاب حياة ملوك هرمز كتبه ١٥٩٦م ترجمه استيفانس ١٧١٥م وانظر الخطابات حول الاسفار البحرية .

(٩) اسفار بيدر وتكسيرا في ١٦٠٤م ص١٧٥ ـ ١٧٧ طبع لندن ، ١٩٠٢م

(١٠) د. جهانكير قائمقام ، مسالة هرمز والعلاقات بين ايران والبرتغال/ من مجلة الدراسات التاريخية باللغة الفارسية ١٩٧٥م .

(١١) وثيقة عثمانية من دفتر المهمة رقم ١١٢٣/٣ صفحة ٣٧٩ مؤرخة في ١٨ شعبان ٩٦٧هـ

(١٢) وثيقة عثمانية من دفتر المهمة رقم ٣٣/صفحة ٤٣ مؤرخة في ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م

(١٣) وثيقة عثمانية من دفتر المهمة رقم ٢٧ صفحة ١٩٧ مؤرخة في ١٢ شوال ٩٨٣هـ ١٥٧٣م وانظر الوثيقة ١٤٥/١ (صفحات من تاريخ النفوذ البرتغالي في البحرين) .

(١٤) وثيقة رقم في. او. سي. ١١٤٦ مؤرخة في ٢٣/١١/١٦٤٣م (د. سلوت)

(١٥) وثيقة رقم في. أو. سي ١١٤٤ مؤرخة في ١٦٤٣/١٢/٢٠م .
(١٦) وثيقة رقم في. أو. سي ١٢٠٣ مؤرخة في ١٦٥٤/٥/٢م
(١٧) وثيقة رقم في. أو. سى ١٢٤٤/١٢٤٣ مؤرخة في ٥ مايو ١٦٦٣م (د. سلوت)
(١٨) وثيقة رقم في. أو. سي ١٢٤٨ صفحة ١٣٧٥ ـ ١٣٧٦ (د. سلوت) .
(١٩) وثيقة رقم في. أو. سي ١١٤٧ (د. سلوت) .
(٢٠) وثيقة رقم في. أو. سي/١٢٥١ مقتطفات من تقرير الحاكم في بتافيا الى مدراء الشركة في هولندا مؤرخة في ١٦٦٦/١/٣٠م.
(٢١) وثيقة رقم في. او. سي/١٢٥٩ ص ٣٣٢٠ مقتطفات من خطاب مدير مؤسسة جمبرون الى الحاكم العام مؤرخ في ١٦٦٦/١/١٢م.
(٢٢) وثيقة رقم في. او. سي/١٢٥٩ مؤرخة في ١٦٦٩م
(٢٣) وثيقة رقم في. أو. سي/١٢٧٨ .د . سلوت
(٢٤) وثيقة رقم في. او. سي/١٥٣٩ ص ١٣٣ ـ ١٣٥. د. سلوت
(٢٥) رسالة رقم في. او. سي/٣٢٣ من هولندا الى حكومة بتافيا مؤرخة في ١٦٩٣/٧/٨ د. سلوت.
(٢٦) ارنولد ولسن. الخليج العربي.ص ١٣٤. وكتاب برشاش سواحه (١٦٢٥)
(٢٧) السفريات. مجلد ٣ نشر ١٧٢٠م ص ١٦٥ الطبعة الثانية ١٩٢٧م
(٢٨) اسفار تافرنيير عام ١٦٨٤م المجلد ٢ ص ١٤٥ و٩٥.
(٢٩) رينال، تاريخ الجزر الشرقية والغربية. ترجمة جستا موند.
(٣٠) اتيسون : المعاهدات. المجلد ١١ ص ١٩٠، دلهي ١٩٣٣م
(٣١) جيه موريير. رحلة في ايران عام ١٨٠٨ ـ ١٨٠٩م ص ٥٢.
(٣٢) ديوراند. تقرير اداري عن الخليج لعام ٧٧ ـ ١٨٧٨م
(٣٣) المذكرة في المجلد ٣ عام ١٨٣٣م من مجلة الجمعية الجغرافية الملكية.
(٣٤) مختارات وثائق حكومة بومباي. المجلد ٢٤ السلسلة الجديدة ١٨٥٦م المذكرة في وصف الملاحة في الخليج العربي .ص ٥٦٠.
(٣٥) ول ستيد، الاسفار الى مدينة الخلفاء (١٨٤٠م) المجلد الاول. ص ١١٤.
(٣٦) مختارات من وثائق حكومة بومباي. المجلد ٢٤ لسنة ١٨٥٦م ص ٦٧.
(٣٧) برقية من الكولونيل بيلى الى شيخ البحرين رقم ٢٩٩ في ٣١ مايو ١٨٧١.
(٣٨) سجلات المكتب الخارجي ٧٨ مجلد ٢٤٤٤ رسالة رقم ٣٢ مؤرخة في ١٦/يونيو ١٨٧١م من حكومة الهند الى مكتب الهند.
(٣٩) من سجلات المكتب الخارجي ٧٨ المجلد ٥١٠٨ الجزء الثالث لـ أ ـ دبيلو. مور ١٨٨٤ ـ ١٨٧٩م.
(٤٠) لاندن، اعادة النظر في تاريخ البحرين، ص ٥٣ و٥٤ ، ١٩٨٣م

مساهمة الوثائق البرتغالية

في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي

لسواحل المغرب والبحر الأحمر

بقلم : د أحمد بوشرب

استاذ مساعد بقسم التاريخ كلية الآداب . فاس

بعد ان تعرض العالم العربي لهجمة صليبية استهدفت خلال العصور الوسطى شطريه الشرقي والغربي (الاندلس - تونس)، تعرض من جديد، وقبل بداية العصور الحديثة (سبتة والقسم الشمالي من المغرب) لمد ايبيري أولا، وعثماني ثانيا انتهى باكتساح اراضيه وفقدان استقلال بعض مناطقه لمدة تقرب من اربعة قرون. وتعتبر هذه الحقبة من اخطر الحقب التي مر بها العالم العربي. اذ كانت لها مخلفات جد خطيرة شملت كل الميادين وأثرت كثيرا على تطوره اللاحق وبقى بعضها قائما الى يومنا هذا.

والخليج العربي"



فهل تسمح وثائقنا ومصادرنا العربي بالتأريخ لهذه الفترة ؟

لقد كان الجناح الغربي من العالم العربي يعيش اوضاعا اقتصادية وسياسية واجتماعية لم تكن تساعد على التأليف. ولذلك لم تصلنا عن الغزو الايبيرى أولا، والعثماني ثانيا الا اشارات طفيفة حالت الى يومنا هذا دون اهتمام مؤرخينا بهذه الحقبة رغم خطورتها. فبالمغرب الاقصى مثلا، لم تصلنا وثيقة واحدة عن احداث كبرى وعن معارك كانت حاسمة كمعركة وادي المخازن الكبرى (١٥٧٨م). وأكثر من هذا، لا تسمح المصادر المتوفرة لدينا بكتابة تاريخ هذه الحقبة لكونها تفتقر الى الدقة افتقارا يبعث على الاستغراب. فهي لا تحدد التواريخ ولا تذكر الاسماء ولا تميز بين جنسيات النصارى في فترة تنافست فيها الدول الاوروبية حول المغرب. فصاحب (عروسة المسائل) مثلا لا يذكر حين تعرضه لتصدى السلطان الوطاسي محمد الشيخ لمحاولة البرتغاليين تحصين (جزيرة المليخة) (١٤٨٩) قصد التحكم في سهل اللكوس ومدينة القصر الكبير لا اسم السلطان ولا تاريخ الحدث ولا جنسية الغزاة.

أما ابن القاضي. فانه اكتفى بالاشارة التالية : «وفي هذه السنة (٩٨٤هـ)، حرك الشيخ الوطاسي للجزيرة التي أسفل من قصر كتامة في شعبان منها بجميع أهل المغرب، واحتال في قطع الوادي الذي دخلت منه سفن الكفرة. فطلبوا منه العفو عن أنفسهم. وقيل كانت في التي تليها»[١].

ومما له دلالة ان لا تستعمل كلمة برتغال من طرف مؤرخ مغربي الا في نهاية القرن التاسع عشر على يد الناصري الذي نقل ذلك عن مصدر اسباني اعتمد عليه للتأريخ للغزو الايبيري لسواحل المغرب، وان يكون الوحيد الذي أشار لأكبر عميل، يحيي او تعفوفت، الذي لعب دورا كبيرا في تحقيق البرتغاليين لمكتسبات مهمة بالجنوب. وان يورد اسمه محرفا لنقله عن المصدر الاسباني السابق الذكر[٢]. وما ذكرته عن المغرب ينطبق كذلك على جارتيه، الجزائر وتونس. فالاستاذ احمد توفيق المدني لم يستطع التأريخ للغزو الاسباني للجزائر الا بعد اللجوء الى أرشيف سمنكاس الاسباني[٣].

وبهذا يصبح الالتجاء الى الوثائق والمصادر الاوروبية ضروريا لكونها توفر المادة الاساسية، ولكونها تمثل بالنسبة الينا اهمية مزدوجة اذ تمكن من دراسة المد الايبيرى واكتساحه للاراضي الاسلامية من الزاوية الداخلية والخارجية (ربط الغزو



بـأوضاع ايبيـريا وبـالتـالي دراسـة الاسبـاب والعـوامـل والوسـائـل المسخـرة). ولكن هذا لا يعني أبـدا الاستغناء الكلي عما يتوفـر لدينا من وثائق ومصادر عربية مهما كانت عليه.

وتـوفـر الارشيفـات الاوروبيـة للبـاحث العـربي كميـات هـائلة من الوثائق النفيسة ولعـل المغرب اليوم اكثر الدول العربية حظا في هذا الباب اذ تـوفـر مجمـوعـة المصـادر غـير المنشورة المتعلقة بتاريخ المغرب.

Sources Inedites de l'Histoire du Maroc.

أكبـر عـدد منشـور من الوثـائق الاوروبيـة، لكونهـا تضم ٢٧ مجلدا ضخما تحتوي على مئات الوثائق التي تم التنقيب عليها بأرشيفات اسبانيا والبرتغال وفرنسا وانجلترا وهولندا. وهذه المجموعة قسمان : الأول خاص بـالدولة السعـديـة وسمي السلسلة

الاولى، والثاني خاص بالدولة العلوية وسمي السلسلة الفلالية (٦ مجلدات نسخت من الارشيف الفرنسي).
وجاءت السلسلة الاولى موزعة بين الدول الاوروبية الخمس كالتالي - فرنسا : ٤ مجلدات - هولندا : ٦ أجزاء - انجلترا : ٣ أجزاء - اسبانيا : ٣ أجزاء - البرتغال : ٥ اجزاء.

ومما يجعل من وثائق السلسلتين اداة عمل مهمة جدا هو ان صاحب الفكرة والمشرف على النشر وحد خطة العمل اذ ان كل وثيقة تقدم بملخص موسع في بعض الاحيان بالفرنسية وترفق بحواشي وتعاليق تساعد كثيرا على فهمها وكلما تم العثور على ملف متعلق بحدث ما، حرر المنقبون عن الوثائق مقالا يدرج قبل تلك الوثائق يسلطون بواسطته الاضواء على ذلك الحدث ويبينون إضافات تلك الوثائق الدفينة.

وتأتي أهمية هذه السلسلة في انها توفر للباحث العربي مادة خاما ولا تلزمه بالتنقل والتنقيب خصوصا وانه يستحيل على كل من ليس له المام بعلم البيبليوغرافيا قراءة الوثائق لكونها مكتوبة بخط يجعل عين القارىء غير المتعودة عليها عاجزة حتى عن معرفة اتجاه الحروف الصحيح هذا فضلا عما تحتوي عليه من رموز واختصارات تجعل بعض كلماتها لا تحتوى الا على حرف او حرفين من الابجدية اللاتينية.

ورغم ما يمكن ان يوجه للمشرفين على نشر تلك الوثائق من لوم ومهما كانت الأسباب وراء نشر وثائق دون اخرى، فان الباحث العربي لا يمكنه اليوم الا ان يغتبط لتوفر هذه المادة العلمية الهائلة المتعلقة بأخطر فترات تاريخ العالم العربي الاسلامي وسأقتصر في المرحلة الاولى من هذا العرض على المجموعة البرتغالية التي دام تعاملي معها خمس سنوات. ولن اعرض لكل الوثائق التي اشتملت عليها، بل سأخص بالذكر العربية منها التي يمكن للباحث العربي الذي لا يستطيع استغلال النصوص البرتغالية الاعتماد عليها في دراسة مراحل اعتداء البرتغال على السواحل العربية الاسلامية ودوافعه ومختلف ردود الفعل التي تولدت عنه. وسأنتقل بعد ذلك للتعريف بوثائق اخرى محفوظة بالارشيف الوطني البرتغالي.

وتم العثور على وثائق السلسلة البرتغالية بالارشيف الوطني بلشبونة Arquivo Nacional da Torre do Tombo وبمكتبه مدينة يابره (Evora) ونشرت الاجزاء الخمسة بباريس ما بين ١٩٣٤ و١٩٥٣م

نشر المؤرخ الفرنسي (P.Cenival) الجزء الاول سنة ١٩٣٤ في ٧٨٢ص

احتوت على ١٥٨ وثيقة تتعلق بأحداث الفترة ما بين يوليو ١٤٨٦ وابريل ١٥١٦. وأغلبية هذه الوثائق عبارة عن تقارير بعث بها المسئولون البرتغاليون على الثغور ومساعدوهم البرتغاليون واليهود والمسلمون. وتتعلق هذه التقارير بمراحل الغزو البرتغالي للجنوب المغربي. ورغم كثرة الوثائق السياسية. فان هذا الجزء ضم عددا مهما من الوثائق التي تسلط الاضواء على الجوانب التجارية والاجتماعية والدينية.. ومن بين الوثائق المذكورة توجد الوثائق العربية الاثنتي عشرة التالية :

(١) نص معاهدة الحماية البرتغالية على مدينة ازمور بعث بها الملك البرتغالي الى اعيان المدينة للتصديق عليها وهي مؤرخة في ١٦ اغسطس ١٤٨٦ ومرفقة بنص التصديق وأسماء الموقعين عليها (ص - ٩ - ١٦).

(٢) رسالة من الملك البرتغالي (جوا الثاني) الى قائد مدينة أسفي مؤرخة في ١٦/ ١٠/ ١٤٨٨ يخبره بقبوله بقاء المدينة المذكورة تحت الحماية البرتغالية مع التأكيد على حقوق وواجبات الطرفين. (ص٢٥ - ٣٠).

(٣) رسالة أعيان قبائل الشرقية (نواحي أسفي بالجنوب المغربي) الى الملك البرتغالي مؤرخة في ديسمبر ١٥٠٢ يشتكون فيها من تصرفات ممثله التجاري بميناء مزغان (قرب أزمور) التي تضر كثيرا بالسكان مما قد يؤدي الى الحاق الضرر بمصالح الملك (ص ٨٢ - ٨٤).

(٤) رسالة من الملك البرتغالي امنويل الاول الى اعيان ازمور مؤرخه في ٢٢/ ٤/ ١٥٠٤ ردا على طلب العفو الذي طلبوه اثر عصيانهم ونهبهم للسفن البرتغالية مع التأكيد على شروط الملك من اجل الحصول على العفو (ص٩٥-٩٨).

(٥) رسالة من اعيان آسفي الى الملك البرتغالي امنويل مؤرخة في ٢/ ٧/ ١٥٠٩ يشتكون فيها من النهب والتعسفات التي عانت منها المدينة بعد دخول الجيش البرتغالي اليها، ويفضحون فيها طيش سياسة القبطان الذي سبب خراب المدينة وفرار سكانها. (١٧٨-١٩٨، وهى وثيقة مهمة جدا).

(٦) رسالة من أعيان ميناء ماسة بالجنوب المغربي الى نفس الملك البرتغالي مؤرخة في ٢٨ ربيع الاول ٩١٦ موافق ٦/ ٧/ ١٥١٠ يشتكون فيها من تصرفات ممثله التجاري بميناء سنتا كروش (اكد ير حاليا) ويعبرون فيها عن خيبة أملهم في الحماية البرتغالية. (ص٢٢٤ - ٢٢٩، وهى وثيقة مهمة جدا).

(٧) رسالة على بن سعيد، احد

اعيان ازمور، الى الملك امنويل مؤرخة في بداية شعبان ٩١٦هـ (ما بين ٣ ـ ١٢ يونيو ١٥١٠) يعرض فيها خدماته وخدمات سيده، المولى زيدان، حاكم أزمور (٢٤٩ ـ ٢٥١).

(٨) وثيقة مؤرخة في أوائل ربيع الثاني ٩١٨هـ (١٦ ـ٢٥ نوفمبر ١٥١٢)، عين بواسطتها يحيى او تعفوفت، قائد المناطق الداخلية الخاضعة للبرتغاليين، ممثلا عنه في قبيلة الحارث وفوض له سلطات قضائية وحدد مختلف أنواع الجرائم والعقوبات المناسبة (ص ٣١٦ـ٣٢٠).

(٩) وثيقة مشابهة تعود الى يونيو ١٥١٢ عين بمقتضاها يحيى او تعفوفت المذكور نائبا عنه بإحدى قبائل الجنوب المغربي. (ص٣٢٦ـ٣٢٧).

(١٠) رسالة من لحسم امجوط تعود الى اكتوبر ١٥١٢ بعث بها الى قبطان وعامل أسفي يفضح فيها بعض المواقف المعادية للبرتغاليين واعداد يحيى او تعفوفت للخيانة (ص٣٦٢ـ٣٦٣).

(١١) رسالة من نفس الشخص الى نفس المسئول البرتغالي ديسمبر ١٥١٢) يخبره فيها بعصيان سكان المدينة الغربية وبتواطؤ يحيى او تعفوفت معهم. (٣٧٠ـ٣٧١).

(١٢) رسالة من يحى او تعفوفت الى عمه بعث بها من منطقة الحوز (مارس ١٥١٤) يخبره فيها بقرب وصوله الى مقر اقامته (سرنو) وباستعداده لمواجهة الامير الوطاسي الذي دخل المنطقة لنسف المكتسبات البرتغالية ولمعاقبة المتعاملين مع البرتغاليين (ص٥١٤ـ٥١٥).

وبالاضافة الى الوثائق البرتغالية والعربية، يحتوي هذا الجزء على عدد من المقالات اشير هنا الى اهمها :

- بداية التوسع البرتغالي بالمغرب (ص٧ـ١٦ من المقدمة)
- فرض نظام الحماية على أزمور سنة ١٤٨٦ (ص١ـ٣).
- احتلال آسفي من طرف البرتغال سنة ١٥٠٨ (ص١٢٠ ـ ١٢٧)
- تقسيم مناطق النفوذ بين البرتغال واسبانيا بالمغرب (٢٠٣ـ٢١٢).
- احتلال البرتغاليين لمدينة ازمور ٣٠ سبتمبر ١٥١٣ (ص٣٩٤ـ٤٠٢)
- الهجوم على مراكش يوم ٢٣ ابريل ١٥١٥ (ص٦٨٧ـ٦٩٢)
- الهجوم على المعمورة، يونيو اغسطس ١٥١٥. (ص٦٩٥ـ٧٠٢)

وتم جمع وتحقيق وتقديم وثائق الجزء الثاني على يد الباحث الفرنسي سينيفال ولكنه لم ينشر الا بعد وفاته سنة ١٩٣٧. وتم ذلك على يد المؤرخ البرتغالي لوبيز (David Lopes) والفرنسي ريكار (R.Ricard) وقسم هذا الجزء الى قسمين نشر أولهما

بباريس سنة ١٩٣٩ في ٢٨٨ صفحة ضمت ٩٦ وثيقة تتعلق بالفترة ما بين مايو ١٥١٦ وديسمبر ١٥٢٦ . وتوجد ضمن هذه الوثائق أربع عشرة وثيقة عربية :

(١) رسالة بعث بها احد الدكاليين (يوليو ١٥١٦) الى قبطان آسفي الجديد يعرض عليه فيها خدماته ويقدم بعض النصائح لارجاع الاستقرار الى المنطقة (ص١٦-١٧).

(٢) رسالة بعث بها الى نفس القبطان شخص يطلب فيها منه حماية قبيلته من مضايقات قبائل مشنزاية القوية - والرسالة مؤرخة في اغسطس ١٥١٦ - (ص ١٩-٢٠)

(٣) رسالة من أعيان قبيلة أولاد عمران الدكالية التي قبطان ازمور قدر تاريخها بما بعد ١٥١٦/٨/٢٩ (ص٣٠-٣١).

(٤) رسالة من أعيان قبائل (الشرقية) الى الملك امنويل (بعيد ١٥١٦/١٠/٣ حسب تقدير الناشر) يخبرونه بعودتهم الى اراضيهم والى الولاء بعد فترة من العصيان وببداية تفاوضهم مع قبطان أزمور الذي نوهوا بخصاله (ص٤١ - ٤٢).

(٥) رسالة من شخص يسمى حمو اموكش الى الملك البرتغالي يخبره فيها برفض قبائل الشاوية التعاون مع سلطان فاس ضد البرتغاليين (ص٥٠-٥١)

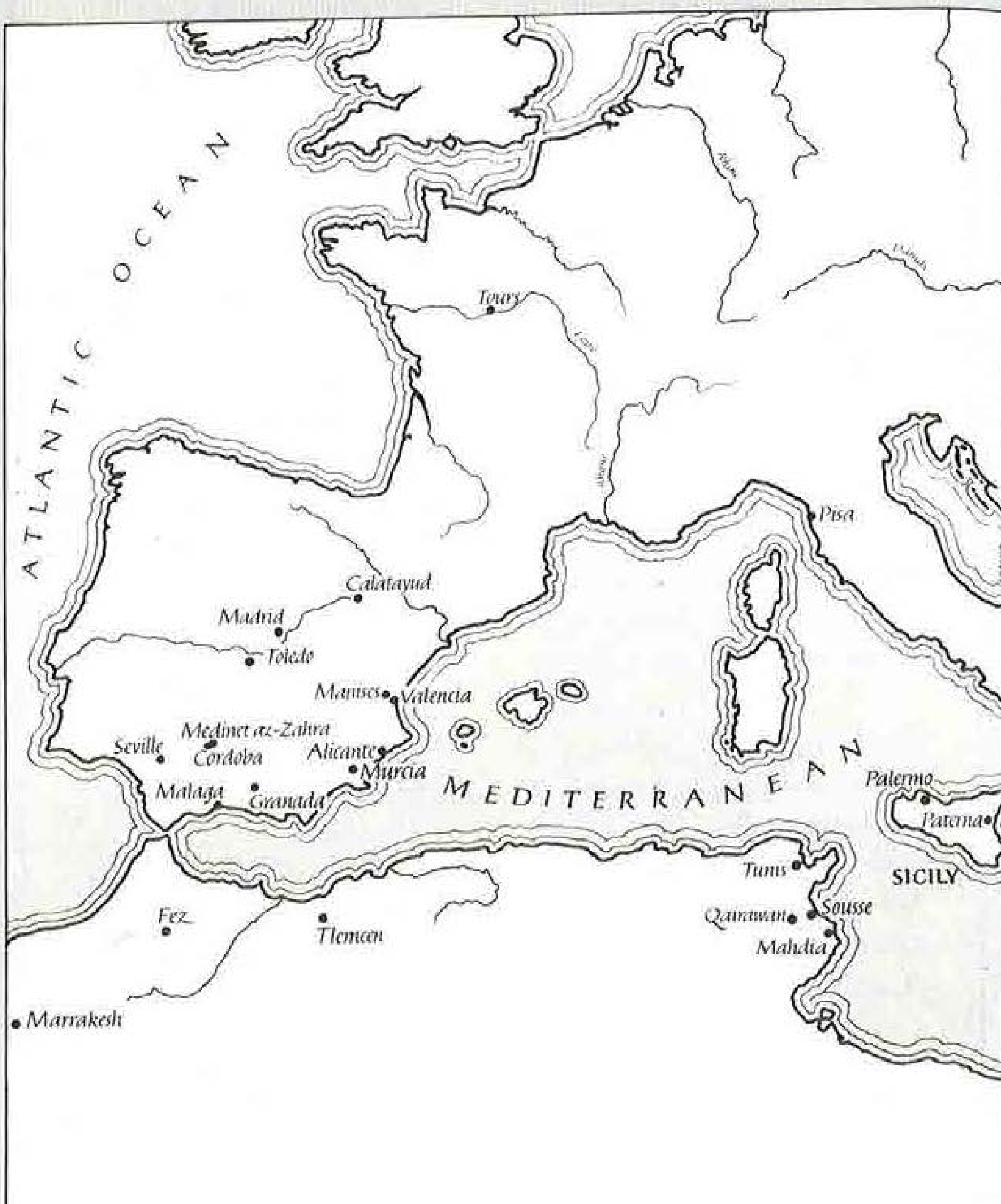
(٦) رسالة من يحيى بن بولصباع الى الملك البرتغالي بدون تاريخ (قدره الناشر في مايو ١٥١٧) يطلب منه فيها مساعدة مالية وألبسة شرفية ويعرض عليه وساطته بين البرتغال وقبائل الشاوية قصد اخضاعها (ص٨٩-٩٠).

(٧) رسالة من سليمان بن محمد الى اشياخ عبدة يخبرهم بقرب دخول السلطان الى المنطقة وينصحهم بالفرار. وقدر الناشر التاريخ في بداية يونيو ١٥١٥. (ص٩٥).

(٨) رسالة من يحيى او تعفوفت الى امنويل (أول اغسطس ١٥١٧) يشتكي فيها من تآمر القبطان وبعض المسئولين البرتغاليين وأعيان الجالية اليهودية بآسفي ضده، الأمر الذي عاق كثيرا صموده في وجه جيوش السلطان (ص١٣٣-١٣٦)

(٩) رسالة من نفس العميل الى الملك البرتغالي بدون تاريخ (حسب الناشر : ١٥١٧/٨/٥) يطلعه فيها على اوضاع المنطقة السياسية بعد الحملة العسكرية التي نظمها السلطان ويفضح فيها طيش سياسة القبطان ومساعديه التي أضرت كثيرا بمصالح الملك بالمنطقة (ص١٥٤-١٥٦).

(١٠) رسالة من عبد الرحمن بن حدو قائد المساي سابقا الى الملك أمنويل بدون تاريخ (بعد مايو ١٥٢١) يعبر فيها عن خيبة أمله في البرتغاليين


ATLANTIC OCEAN
Tours
Pisa
Calatayud
Madrid
Toledo
Manises
Valencia
Medinet az-Zahra
Seville
Cordoba
Alicante
Murcia
Malaga
Granada
MEDITERRANEAN
Palermo
Paterna
SICILY
Tunis
Qairawan
Sousse
Mahdia
Fez
Tlemcen
Marrakesh

الذين غادر منطقته صحبة اتباعه لخدمتهم، ويشتكي فيها من عداء المسئولين البرتغاليين بأزمور له (ص٢٨٢_٢٨٤).

(١١) رسالة من احمد الاعرج السلطان السعدي، الى الملك البرتغالي جوا الثالث مؤرخة في ٢٤ صفر ٩٣٢ هـ (موافق ١٠/١٢/١٥٢٥) يحتج فيها ضد عدم احترام قبطاني أسفي وأزمور للهدنة الموقعة معهما في السنة الماضية ويطلب من الملك البرتغالي انصافه وارسال قاض للتحقيق في الموضوع (ص٣٤٨_٣٥٠).

(١٢) رسالة من السلطان السعدي احمد الاعرج الى قبطان آسفي «غرسيا دو ميلو» بتاريخ ٣ ذي الحجة ٩٣٢ موافق ١٠/١٩/١٥٢٦ يخبره بتوقيعه على هدنة مع سابقه ويطلب منه اخباره بموقفه منها (ص٣٥٦).

(١٣) رسالة من كاتب السلطان السعدي المذكور الى القبطان المذكور حول نفس الموضوع حررها بعد اسبوع من تحرير الرسالة السلطانية السابقة (ص٥٩).

(١٤) نص معاهدة هدنة موقعة ما بين السلطان السعدى والملك البرتغالي في ٢٢ ذو الحجة ٩٣٢هـ (١٥٢٦/٩/٢٩) وهى بالصفحتين (٣٦٧_٣٦٨).

والملاحظ ان وثائق الجزء الاول وهذا القسم الأول من الجزء الثاني تسمح بدراسة نوع خاص من التحكم انتهجه البرتغاليون بجنوب المغرب امتاز بالاعتماد على الدبلوماسية والرشاوي وخلق عملاء وفرض نوع من الحماية على المدن اولا ثم على المناطق الداخلية بعد ذلك. ويمكن للباحث العربي ان يعتمد في دراسة خصائص هذه السياسة على الرسائل العربية السابقة الذكر وان يقارنها بما اتبع مع عدد من الثغور بالمشرق كهرمز وبعض مدن الساحل الهندي الاسلامية وذلك اعتمادا على وثائق عربية محفوظة بالارشيف الوطني البرتغالي سأعود للحديث عنها بعد قليل.

ونشر القسم الثاني من الجزء الثاني بباريس سنة ١٩٤٦ على يد ناشري القسم السابق واحتوت صفحاته (٣٢٣) على ٨٥ وثيقة تغطي الحقبة ما بين ١٥٢٧/١/١٥ و١٥٣٤/١٢/٢٣. ومن هذه الوثائق سبعة بالعربية.

(١) رسالة بعث بها السلطان الاعرج الى الملك البرتغالي في ٢٢ جمادي الثانية ٩٣٣ موافق ١٥٢٧/٣/٢٦ جوابا على خطاب بعث به هذا الاخير الى اخ السلطان حول شروط الهدنة. وفي هذه الرسالة يحتج ضد عدم

احترام قبطان آسفي للهدنة ويبعث باحدى رسائل هذا الاخير لاثبات ذلك (ص٣٩٩_٤٠٠).

(٢) رسالة من الامير الوطاسي مسعود بن الناصر الى الكونت دو لنيارش يعبر له فيها عن صداقته ويلومه على عدم الكتابة اليه ويخبره انه اجاب الملك جوا الثالث بواسطة الحاخام ابرهم بن زميرو والرسالة مؤرخة في أواخر ذي الحجة من سنة ٩٣٣هـ (١٧_١٥٢٧/٩/٢٦) - ص٤١٢_٤١٣.

(٣) رسالة من الكونت السابق الى القائد احمد العطار، مؤرخة في ١٥٢٨/٣/٤ يخبره فيها انه توصل بخطابه وبهديته ويتمسك الملك البرتغالي بشروط السنة الماضية حول السلم وبأنه اذا ما قبلها السلطان فما عليه الا ارسال مفاوضين (ص٤٣٤_٤٣٥).

(٤) رسالة من أعراب ظهير أزمور الى الملك البرتغالي بدون تاريخ (يونيو ١٥٢٩) يحملونه فيها مسئولية المآسي التي يعانون منها بسبب الغارات التي ينظمها ضدهم كل من البرتغاليين والمغاربة ويطلبون فيها من الملك المذكور الالتزام بما تعهد لهم به من حماية اذا كان يود ان يبقوا تحت طاعته (ص٤٥٩_٤٦١).

(٥) رسالة من القائد احمد العطار الى احد ابناء عم السلطان بدون تاريخ يطلب فيها منه العودة الى مملكة فاس نظرا لقلق السلطان بسبب تفكيره في الالتجاء للبرتغال (ص٤٦٨_٤٦٩).

(٦) رسالة من السلطان احمد الاعرج الى الملك البرتغالي جوا الثالث مؤرخة في ٢٣ ربيع الاول ٩٣٦هـ (١٥٢٩/١١/٢٥) يعرض فيها حالة مغربي التحق بأسفي وتنصر هناك وتطلب منه السماح له بالعودة الى ذويه ليختار بعد ذلك الدين الذي يريده. وأشاد السلطان في هذه الرسالة برغبة قبطان أسفي الجديد في الحفاظ على السلم. (ص٤٩٥_٤٩٦).

(٧) رسالة من قائد مدينة سلا الى قبطان ازمور (بدون تاريخ قبل ١٥٣٠/٤/٦م) يخبره باتفاقه مع كبير يهود ازمور الذي أرسل للتفاوض معه حول هدنة لمدة ثلاثة اشهر (ص٥٠٠_٥٠١).

ويلاحظ ان وثائق الجزء الاول والقسم الأول من الجزء الثاني تتعلق بمرحلة سطوة البرتغاليين بالجنوب المغربي وتسلط الاضواء على مراحل تحكمهم فيه والوسائل التي سخروها لذلك وردود الفعل التي تولدت عن ذلك. اما وثائق القسم الثاني من الجزء الثاني فتسلط الاضواء على تراجع النفوذ البرتغالي بالمنطقة منذ بداية العشرينات من القرن السادس

عشر خصوصا بعد تقوية نفوذ الشرفاء السعديين ودخولهم مراكش (١٥٢٤) ولهذا تغلب على هذا المجلد الرسائل المتبادلة ما بين الملك البرتغالي والسلطان السعدي والتقارير التي تؤكد دخول برتغاليي الجنوب في مرحلة جديدة امتازت بفقدان المبادرة الشيء الذي جعل الملك البرتغالي يفكر في اخلاء بعض تلك الثغور خصوصا بعد الحصار الكبير الذي ضربه السلطان السعدي على آسفي سنة ١٥٣٤. وتوجد ضمن هذا المجلد عدة وثائق تتعلق بالحصار المذكور والمساعدات العسكرية التي توصلت بها آسفي ونص الرسالة التي بعث بها الملك البرتغالي الى بعض الشخصيات السياسية والدينية حول مشروع اخلاء آسفي وأزمور وردود بعض تلك الشخصيات.

ونشر الباحث الفرنسي ريكار الجزء الثالث سنة ١٩٤٨ . وتضم صفحاته (٥٧٢) ١٤٩ وثيقة برتغالية تتعلق بأحداث عرفها المغرب ما بين اول يناير ١٥٣٥ و٢٢ ديسمبر ١٥٤٢ . ويغلب على هذه الوثائق نوعان :

- نوع ذو طابع دبلوماسي تم تبادله بين الملك البرتغالي وملكي المغرب أحمد الاعرج بمراكش ، واحمد الوطاسي بفاس حول هدنة تمت بين البرتغال واحدى الامارتين المغربيتين ، أو تم تبادلها ما بين لشبونة وفاس لتحضير حلف عسكري ضد الشرفاء السعديين . ومن هذه الوثائق الدبلوماسية رسائل بعث بها الملك البرتغالي الى كل من الامبراطور شارل الخامس والبابا يخبرهما فيها باندحار جيوشه بالمغرب وهزيمتها على يد الشرفاء السعديين الذين استطاعوا تحرير ميناء أكدير (١٥٤١) وبدأوا يزحفون نحو ثغور اخرى ، وطلب منهما امداده بمساعدة حتى يتمكن من كسر شوكتهم قبل ان يستطيعوا اعادة توحيد المغرب وتهديد اسبانيا .

- نوع يسلط الاضواء على الظروف الصعبة التي اصبح البرتغاليون يعانون منها داخل الثغور المحاصرة وما اصبحت تتحمله الخزانة البرتغالية من مصاريف للدفاع عنها .

ويحتوي هذا الجزء بالاضافة الى الوثائق ، على ثلاث دراسات قيمة ، اولاها تتعلق بأسقفية آسفي ما بين ١٤٨٧ و١٥٤٢ (ص ٧٥ - ٨٢) وثانيتها عن قائد الشاون المولى ابراهيم بن علي بن راشد الذي كان ينسق ويقود عمليات الجهاد ضد البرتغاليين بشمال المغرب (ص ١٤٦ - ١٥٧) . وكان موضوع الدراسة الثالثة يتعلق بسفير الملك البرتغالي وممثله التجاري بفاس وبمساعيه لعقد حلف عسكري وطاسي - برتغالي وتنظيم حملة عسكرية مشتركة ضد

الشرفاء السعديين (ص ١٧٦ ـ ١٩٢) .

ونشر نفس الباحث الجزء الرابع سنة ١٩٥١ وكان من ٤٣١ صفحة احتوت على ١١٠ وثائق تتعلق بأحداث السنوات ١٥٤٢ ـ ديسمبر ١٥٥٠ ، وعلى عدد من الدراسات . وتغلب على هذه الوثائق ما يتعلق بمملكة فاس التي كانت تلفظ انفاسها الاخيرة والتي حاولت ان تحول دون اكتساحها من طرف جيوش الشرفاء السعديين بعقد حلف عسكري مع البرتغال . ويضم هذا الجزء عددا من التقارير التي بعث بها قبطان مزغان ، آخر ثغر بقى بأيدي البرتغاليين بالجنوب المغربي ، حول الحروب التي خاضها هناك ضد المغاربة.

ومن مقالات ودراسات هذا الجزء أشير الى اهمها :

- أحداث تطوان سنة ١٥٤٢ (ص ١٠٥ ـ ١٠٦)
- التخلي عن المدن المغربية المحتلة من طرف البرتغال (ص ٣٣٥ ـ ٣٤٩) .
- علاقات الجزر الخالدات مع الثغور المغربية المحتلة خلال القرن السادس عشر (ص ٤١٣ ـ ٤١٩) .

ونشر الجزء الخامس والاخير على يد ريكار سنة ١٩٥٣ وضم ٣٨ وثيقة اعتبرت اضافية لكونها خارجة عن الاطار الزمني للسلسلة (١٥٥٢/٢/١٥ ـ ١٥٧٨) .

وتكمن اهمية هذا الجزء في دراسة قيمة بوبه بها الناشر حول اسباب فشل الغزو البرتغالي بالمغرب وخصوصا في ببليوغرافية وفهارس جد مفصلة احتوت على كل اسماء الاعلام والقبائل والاماكن والاوزان والمكاييل والسلع والعملات وغيرها التي وردت في الاجزاء الخمسة ، مما يجعل منها اداة بحث قيمة جدا (ص ١٤٧ ـ ٢٥٣) .

وتجدر الاشارة الى أن نشر هذه الاعداد المهمة من الوثائق لم يكن سهلا لأن ذلك تطلب انتقاءها من بين آلاف الوثائق المحفوظة بالارشيف الوطني البرتغالي

وتغلب على هذه الوثائق ما تم نسخه من المجموعة المسماة Corpo Cronologico التي تضم ٨٢٩٠٢ وثيقة ، أو من المسماة As Gavetas Da Torre Do Tombo اي من ادراج أرشيف حصن القبر التي تضم حوالي ٧ آلاف وثيقة . أما الوثائق العربية ، فتم نسخها من بين الوثائق المرتبة تحت اسم «دار المعاهدات» ، الوثائق العربية Casa Dos Tratados, Documentos Arabes

وبالاضافة الى سلسلة المصادر غير المنشورة المتعلقة بتاريخ المغرب اعتمدت منشورات أخرى على وثائق المجموعات الثلاث السابقة الذكر .

ففيما يخص مجموعة corpo)

cronologico) ، نشر الباحث البرتغالي (A. Baiao) المدير السابق للارشيف الوطني سنة ١٩٢٥ ، وبأمر من أكاديمية العلوم البرتغالية ، الوثائق المتعلقة بالغزو البرتغالي لسواحل المغرب . وضم مؤلفه الذي عنونه كالتالي Documentos Do Cronologico Relativos A Marrocos ٦٩ وثيقة تغطي احداثا تتعلق بالفترة الممتدة ما بين ١٤٨٨ و١٥٤١ . واذا كان الناشر قد أعطى النص الكامل للوثائق التي اعتبرها مهمة ، فإنه لم يرفقها مع الاسف ، بمقدمات ولا بهوامش ولم يورد الا ملخصات وارقام ٨٧ وثيقة اعتبرها ثانوية . كما ان الوقوف عند وثائق ١٥١٤ ليس له من مبرر سوى الاكتفاء بتسليط الاضواء على فترة سطوة البرتغاليين بالجنوب والسكوت عما عانوه من مشاكل بعد التاريخ المذكور . ومن الوثائق المنشورة بهذا الكتاب ٢٣ أعيد نشرها على يد الباحث الفرنسي سينيفال في الجزء الاول من سلسلة المصادر غير المنشورة المتعلقة بتاريخ المغرب .

وتتعلق مواضيع وثائق مؤلف (بياو A. Baiao) بمراسلات تبادلها الملوك البرتغاليون مع وكلائهم التجاريين والماليين ومع قباطنتهم بالثغور حول مراحل التحكم في الجنوب وظروفه وحول الاوضاع الاقتصادية التي كان يعرفها كما تتعلق بالمعاشات والرواتب المؤداة لمن ساهموا في المجهود العسكري وبالتحصينات المستحدثة بالثغور المحتلة وببعض السلع وأثمانها .

أما الوثائق العربية ، فلم يصلنا منها الا ملف واحد سبق لي استغلاله بلشبونة منذ ثلاث سنوات وكان الراهب لويش دو سوز (F. Luis De Sousa) اول من اهتم بهذه الوثائق العربية اذ نشر بعضها بلشبونة سنة ١٧٩٠ في مؤلف سماه «وثائق عربية تساهم في كتابة التاريخ البرتغالي» "documentos Arabicos Para Historia Portuguesa" .

والوثائق العربية التي وصلتنا ـ منها ما هو فارسي ـ عبارة عن رسائل وصلت الى الملوك البرتغاليين من سلاطين المغرب وامراء الثغور التي كانت تحت حمايتهم ومن بعض الاعيان الذين كانوا في خدمتهم .

وتسمح هذه الوثائق للباحث العربي الذي لا يفهم البرتغالية بتتبع خصائص ما سمى بالحماية البرتغالية على عدد من الثغور بالمغرب وبالساحل الهندي وبهرمز . كما تمكن من أخذ فكرة عن معاناة حكام وسكان تلك الثغور من تعسفات القباطنة البرتغاليين ومساعديهم .

واذا كان مؤلف الراهب المذكور يوفر عددا من هذه الوثائق العربية ، فإنه يحتوي مع ذلك على عيب كبير

يتمثل في كون المؤلف اعطى للوثائق التي لم يؤرخها محرروها تواريخ بعيدة عن الصواب .

أما الادراج السابقة الذكر فتتكون من ٢٣ درجا رتبت فيها بطريقة عشوائية آلاف الوثائق التي تغطي الفترة الممتدة ما بين القرون الوسطى وسنة ١٩٣٤ .

ومن حسن حظ الباحث ان وثائق هذه الادراج نشرت على يد مجموعة من الباحثات البرتغاليات التابعات لمركز «الدراسات المتعلقة بما وراء البحار centro De Estudos Historicos Ultramarinos) اللواتي نشرن تلك الوثائق في ١٢ مجلدا ما بين ١٩٦٠ و١٩٧٧ . وبما ان مهمة هذا المركز تهتم اساسا بالمناطق التي كانت تابعة للامبراطورية البرتغالية فإن المشرفات على النشر اكتفين بإعطاء عناوين وارقام الوثائق المتعلقة بالتاريخ الداخلي للبرتغال ، ونشرن النصوص الكاملة للوثائق المتعلقة بالامبراطورية البرتغالية وبعلاقة البرتغال مع الدول الاوربية ومع البابوية .

وهكذا ، ومن مجموع حوالي ٧ آلاف وثيقة نشرت ، أصبح بإمكان الباحث استغلال الوثائق الموزعة جغرافيا كالتالي :

- المغرب: ١٧٤ وثيقة .
- تونس : وثيقتان تتعلقان بالهجوم الاسباني البرتغالي ضد هذه المدينة سنة ٥٢٥ .
- الخليج العربي والبحر الاحمر: ٢٧ ، اغلبها ممحور حول هرمز .
- الهند والشرق الاقصى: ٢٥٢ ، منها عدد كبير من الوثائق المتعلقة بالنزاع الاسباني البرتغالي .
- شرق افريقيا : ٦ وثائق

ورغم الخدمة التي يقدمها نشر هذه العدد الهائل من الوثائق ، فإن الشكل الذي تم به قلل كثيرا من فوائدها ذلك انها نشرت بدون هوامش وتعاليق وفهارس كما ان أكبر عيب يلاحظ على المشرفات على النشر هو سقوطهن في عدد كبير من الاخطاء عند تقديرهن لتواريخ الوثائق التي لا تحمل تاريخا . وكانت بعض الاخطاء فادحة . والغريب انه كان بامكانهن تفادي الكثير منها بالرجوع الى عدد مهم من الدراسات والوثائق المنشورة . (أعطى لوثيقة تتعلق بحصار أسفي سنة ١٥٣٤ تاريخ ١٥٠١ ، (ج١ ، ص ٥١) وارجع تاريخ وثيقة بعث بها قبطان أزمور الى الملك البرتغالي الى سنة ١٥٠٥ في حين ان المدينة لم تكن آنذاك محتلة !) .

ولهذا يتحتم على الباحث ان يحترس كثيرا من التواريخ المقترحة من طرف الناشرات ، وان يعود الى سلسلة المصادر غير المنشورة المتعلقة بتاريخ المغرب كلما تعلق الامر بوثائق تهم هذا البلد .

واحتوت الاجزاء الاثنى عشر على وثائق جد مختلفة ، وبالنسبة للمخططات السياسية البرتغالية بالخليج العربي والبحر الاحمر، يستفيد الباحث من استغلال الوثائق التالية :

- رسالة بعث بها من مدينة (كوا) الهندية Bernandin De Sousa الى الملك البرتغالي (١٥٤٥/١١/٠٢) يخبره فيها بوصول اشاعات حول تنظيم العثمانيين لهجوم ضد هرمز انطلاقا من السويس وباسترجاعه لحصن القطيف (؟) Catifa الذي استولى عليه شيخ Mana التابع لملك الاحساء لكونه كان دوما تابعا لملك هرمز وذلك نزولا عند رغبة هذا الاخير (ج ١ ص ٩١٥ ـ ٩١٨) .

- تعيين الملك البرتغالي جوا الثالث للشاه محمد ابن الملك صفاء الدين أبندار خلفا لابيه كملك على هرمز ـ والوثيقة مؤرخة في ١٥١٩/٨/٢٣ (ج ١ ـ ٩٢٣ ـ ٩٢٥) .

- قسم الولاء للملك فليب الاول (الثاني بالنسبة لاسبانيا) الذي أداه شاه هرمز فرح شاه (Farracoxa) ووزيره شرف ، وذلك في ١٥٨١/١١/١٥. (ج٣ ص ١٠٣ ـ ١٠٦) .

- رسالة من Joao De Arrias الى الملك البرتغالي جوا الثالث حول مداخيل جمارك هرمز مؤرخة في ١٥٢٨/٧/١٠. (ج٤ ص ٨٠ ـ ٨٤) . والتقرير يسلط الاضواء على الشهور التي تعرف أكبر رواج تجاري (أبريل ، مايو، يونيو) وعلى ما توفره المدينة من المداخيل ، ذكر منها الضريبة المؤداة من هرمز ومداخيل الجمارك التي قدرها بحوالي ٧٠ الفا الى ٨٠ الف شرفي (Xarafins) تؤديها عن سلعها السفن المقبلة من الهند وكنباي والقوافل التي يرسلها سنويا الشيخ اسماعيل (فارس) او تأتي من البصرة ، وكذا الضرائب المؤداة عن تجارة الخيول وكذا الغنائم البحرية التي يحصل عليها من مطاردة السفن الاسلامية اعتمادا على اسطول خاص بمراقبة الخليج مكون من ٢٢ مركبا تحمل على ظهرها ما بين ١١٠٠ و ١٢٠٠ جندي . وكانت قيمة تلك الغنائم البحرية خلال السنة التي يغطيها التقرير المذكور مبلغ ٢٠ الفا أو ٢٥ الف شرفي أي ما يمثل ٢٥ في المائة من قيمة ضرائب هرمز مما يؤكد ان التجارة العربية لم تتوقف رغم المضايقات البرتغالية . وبعد ان اشار محرر التقرير الى تعسفات المسئولين البرتغاليين وطغيانهم الذي عبر عنه بما أجابه به وزير ملك هرمز انه ذكر انه ليس وزيرا ولكن صبيا ينفذ ما يؤمر به .. أكد على الاستفادة الكبرى التي يضمنها للبرتغال من تحكمه في هرمز (ج ص ٨٠ ـ ٨٤).

- رسالة برتغالية غير مؤرخة من

الوزير ركن الدين ، وزير هرمز الى الملك شرف اطلعه فيها على الحرب التي اعلنها ابن راشد (Mening Ben Rasid) ملك الاحساء على والي البحرين ، وذلك رغم معارضة اعيان عاصمته ، وذكر صاحب الرسالة انه بالتحاق اولئك الاعيان بالبحرين تعذر على ملك الاحساء الهجوم عليها وأغار على البصرة حيث هزمت جيوشه ولم يتمكن من الفرار والنجاة الا بصعوبة ولما علم بوفاة والي البصرة - وهو أحد أقاربه - الذي كان يدين بالولاء للعثمانيين ومبايعة ابنه الذي لم يبلغ بعد سن الرشد ، هيأ حملة جديدة ضد البصرة التي فتح له اعيانها الابواب وبايعوه سلطانا - واستغل والي البحرين انشغال ملك الاحساء وأغار على ميناء القطيف catifa وأحرق له ١٥٠ مركبا استولى عليها من بين مراكب ملك هرمز . ولما علم ملك الاحساء باحراق سفنه ، امر بالاستيلاء على سفن وسلع تجار البحرين المتواجدين بالبصرة . وسبب هذا غضب البصريين الذين طردوه من مدينتهم وعينوا شخصا اخر . واشار صاحب الرسالة الى استعداد برتغالي هرمز لمد والي البحرين بمساعدة عسكرية وتفكيرهم في احتلال القطيف Catifa واشار محرر الرسالة الى اهتمامه الكبير بارسال جواسيس الى السويس وعدن والى اماكن اخرى للحصول على معلومات عن العثمانيين. (ج ٤ ص ٣٥٧ - ٣٥٩) .

- رسالة من أفونسو دى البوكيرك Afonso De Albuquerque نائب الملك بالهند الى الملك البرتغالي امنويل مؤرخة في ١٥١٧/١٠/٣٠ ، يخبره فيها برواج اشاعات حول تجهيز الاتراك لاسطول لتحصين مدخل البحر الاحمر وعدن وأكد على خطورة ذلك اذا ما تم فعلا ولهذا فإنه سيكرس كل مجهوداته خلال السنة للحيلولة دون تحكم الاتراك في الموقعين المذكورين .

واحتوت الرسالة كذلك على اخبار تتعلق بالهند والشرق الاقصى. (ج ٤، ص ٤٨٢ - ٤٨٥) .

- رسالة من نائب الملك السابق بالهند الى الملك امنويل مؤرخة في ١٥١٢/١٢/١٦ يطلعه فيها على اوضاع الهند ويخبره بوصول مبعوث امبراطور الحبشة لعقد حلف ضد المسلمين ، ذلك الوصول الذي اعتبره صاحب الرسالة بداية تخريب «بيت مكة» الذي يبدو له سهل المنال لانها منطقة ضعيفة وقليلة المحاربين . (ج ٥ ص ٢٩٩ - ٣٠٢) .

- رسالة من قبطان هرمز Cristovao De Mendoca مؤرخة في ١٥٢٨/٧/١١ بعث بها الى الملك البرتغالي جوا الثالث لفضح طغيان

وتعسفات القبطان السابق التي شملت ملك الحصن ووزيره اللذين ابتز اموالهما بالاضافة الى اموال ومصالح التجار مما سبب خراب المدينة وركودها التجاري . وتحتوي الرسالة على اخبار تتعلق بالاوضاع داخل الخليج العربي: الحروب التي دارت بين الامراء والولاة ، ومحاولات والي البصرة انشاء اسطول خاص به ، وخطر ذلك على هرمز ـ وذلك رغم ان الوالي كان يدعي ولاءه للبرتغاليين والح على ضرورة الحيلولة دون تقوية نفوذ الوالي المذكور وخروج البصرة من فلك هرمز نظرا للاهمية الاقتصادية التي تكتسبها بالنسبة اليها . (تزودها بالمواد الغذائية وخصوصا بالقمح والمواد الدهنية وتوزع سلع الشرق الاقصى على الجزيرة العربية والشام) راجع ج٥ ص ١٠٨ ـ ١١٦ .

ـ رسالة من ملك هرمز ، محمد شاه (Mamaxa) الى جوا الثالث (١٥٢٨/٧/١٣) يفضح فيها طغيان القبطان السابق ويشيد بخصال خلفه . وطلب الملك من العاهل البرتغالي اعتبار تراجع مداخيل هرمز والتخفيض من الضريبة المؤداة سنويا (ج ٥ ص ١١٦ ـ ١١٨) .

ـ رسالة من قاضي هرمز الى الملك البرتغالي مؤرخة في ١٥٥٠/١١/٢٤ يخبره فيها ان نائب الملك بالهند حرم على جميع التجار ومهما كانت جنسياتهم ان يلتحقوا بالبصرة ، وهدد من فعل ذلك بعقاب شديد وبالاسر .. الشيء الذي جدد العمل به القبطان الحالي الذي اعلن حالة الحصار ضد البصرة ومقاطعتها تجاريا . ولكن هذه المقاطعة لم تعط نتائجها لاستمرار التجار في الاقبال على البصرة من البحرين . وذكر صاحب التقرير ان اشاعات تروج بهرمز عن تفكير البصريين في احتلال القطيف Catifa بالبحرين ، الشيء الذي تؤكده الوثيقة التالية (ج ٥ ص ٣٨ ـ ٤٠) .

ـ خطاب من افونسو دو البكيرك (نائب الملك بالهند ، وابن الشخصية التي كانت تحمل نفس الاسم وكلفت بنفس المهمة والتي سبقت الاشارة اليها مرتين ، رقم ٦ و٧) الى جوا الثالث (١٥٥٢/١/٢٧) يخبره فيها باسترجاع حصن القطيف Catifa الذي سبق ان استولى عليه الاتراك وبتحطيم الحصن الذي شيدوه بجزيرة Moizy ورد محرر الرسالة هذا المد العثماني بالخليج الى الطغيان الذي فرضه القباطنة على ملوك المنطقة الشيء الذي حدا بأشراف المنطقة الى تسليمها للاتراك كما فعلوا ويريدون فعله بالبحرين .. (ج ٥ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٨) .

ـ تقرير مهم جدا ارسله الى الملك

البرتغالي (١٥٦٣/١٢/١١) برتغالي كلف بمهمة مرافقة مبعوث باشا البصرة خلال تنقلاته بين هرمز والهند والبصرة قصد التفاوض معهم . والتقرير يتعلق بأوضاع مدينة البصرة الطبغرافية (موقعها، مصب النهر، جزيرة (Morzique) وباسوارها ومواقع ابوابها وبالقوة العسكرية المتوفرة عليها (الاسلحة ، الحامية ، الاسطول) وبأوضاعها الاقتصادية (رفاهية سكانها ورواج تجارتها) . واهم ما يثير انتباه قارىء التقرير هو ان محرره ارسل خصيصا لهذه الغاية وان المعلومات التي عمل على الحصول عليها كانت تتعلق بمشروع هجوم برتغالي على المدينة ذلك انه اولى اهتماما خاصا لاماكن انزال الجنود ونقط الضعف في تحصينات ووسائل الدفاع المتوفرة (ج ٥ ١٣٧ ـ ١٤٣) .

ـ تقرير بعث به قبطان هرمز الى الملك البرتغالي (١٥٢٩/٩/١٣) يتعلق بالاوضاع داخل الخليج العربي وساحل عدن . ففيما يخص المنطقة الاولى اشار الى فشل هجوم برتغالي ضد البحرين التي اعلن واليها عصيانه لملك هرمز .

وأعطى صاحب التقرير معلومات عن محاولات الاتراك الاستيلاء على عدن واخبر الملك باعلانه الحرب على البصريين لرفض حكامهم اعادة المراكب التابعة لهرمز التي استولوا عليها . وفي نهاية التقرير أكد القبطان كثيرا على الفوائد الكبرى التي تحصل عليها البرتغال من تحكمه في هرمز وذلك لسببين: تجاري (يفد عليها التجار الايطاليون ، الارمينيون ، اليهود .. فضلا عن العرب والفرس) واستراتيجي يجعلها في مرتبة جزيرة رودس بالبحر المتوسط (ج ١٠ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٨) .

ـ رسالة وصلت الى الملك البرتغالي من برتغالي كان مقيما بالبندقية (مؤرخة في ١٥٣١/١١/٢٤) أخبره فيها بمحاولة العثمانيين الجادة لانشاء اسطول بالسويس وبالمشاكل التي يواجهونها في ذلك (الاشرعة والمدافع ترسل من القسطنطينية ، الاخشاب من لبنان اعتمادا على اسطول خاص ينزلها بمينائي الاسكندرية ورشيد حيث تحملها ٤٠٠٠ جمل الى السويس) وتشير الرسالة كذلك الى الحراسة البحرية البرتغالية المشددة عند مدخل البحر الاحمر والى استيلاء البرتغاليين على مركبين بميناء (Outor) . وجاء في هذه الرسالة ان احد تجار مكة وصل مؤخرا الى البندقية ! (ج ١٠ ص ٦١٧ ـ ٦٢٠) .

ـ رسالة من فرانسيشكو سلفريش الى الملك البرتغالي (١٥٣٥/١/١٤) هي عبارة عن نسخة من الرسالة التي بعث بها الى نائب الملك بالهند يخبره فيها بوفاة ملك هرمز . وورد في هذه

الرسالة اشارة مهمة تتعلق باستمرار السفن العربية في التزود بالتوابل رغم مجهودات البرتغاليين للحيلولة دون ذلك . (ج ١٠ ص ٧٣ ـ ٨٩) .

ـ رسالة بعث بها الملك امنويل البرتغالي الى أسقف براغا (١٥٠٨/٨/١٦) يبشره فيها بالانتصارات والمكتسبات التي حققها البرتغاليون بشرق افريقيا والشرق العربي وحرمان التجار العرب من ارباح تجارة الهند والشرق الاقصى . وهذه الرسالة مهمة جدا بالنسبة لتتبع اسباب ودوافع المد البرتغالي على حساب العالم العربي ، ذلك انها تغطي الاسباب الحقيقية (الربح واحتكار التجارة) وتؤكد على اولوية العامل الديني ، وتعطي للتوسع بالمشرق صبغة صليبية محضة . (ج ١٢ ص ٢٣٧ ـ ٢٤٢) .

ومن الوثائق التي يمكن للباحث الاستفادة منها وثائق التشريفات الملكية البرتغالية Livros Das Chancelarias Reais لتوفر عشرات الكتب الضخمة المتعلقة بالملوك الذين عاصروا التوسع البرتغالي من انطلاقته الناجحة الى بداية تراجعه . اي من عهد الملك جوا الاول الى دون اسبستيان[٤] وهذه الكتب مرتبة حسب اسماء الملوك ، واحيانا حسب المناطق (الجزر ، غواديانا ..) ولاستغلالها بسهولة أعدت فهارس مرتبة حسب اسماء الاعلام واخرى حسب اسماء الاماكن . ونظرا لصعوبة قراءة وثائق هذه الكتب ، أعيدت كتابة بعضها خلال القرن الماضي والحقت بكتب تسمى «القراءة الجديدة» (Leitura Nova) . وتتعلق هذه الكتب بالقوانين والتعيينات والعطاءات التي خص بها الملوك بعض الافراد .

ونشر من هذه الوثائق قسم مما يتعلق بالغزو البرتغالي لسواحل المغرب الاقصى ، ففي سنة ١٩١٥ نشر الباحث البرتغالي ازفيدو بأمر من اكاديمية العلوم البرتغالية التي برمجت نشر عدد كبير من المصادر والوثائق المتعلقة بالغزو البرتغالي للمغرب وذلك بمناسبة الذكرى المئوية الخامسة لاحتلال سبتة (١٤١٥) ، نشر في مجلدين ضخمين وثائق تشريفات الملوك (جوا الاول ، ودون ادوارد ، والفونس الخامس[٥] .

وفي سنة ١٩٤٣ ، وبأمر من نفس الاكاديمية ، نشر الباحثان البرتغاليان (كويليو ولوبش) وثائق كتب تشريفات الملك (جوا السادس[٦]

وتسمح هذه الوثائق المنشورة أو التي لم تعرف النشر حتى الآن ، بدراسة الغزو البرتغالي لسواحل العالم العربي بتسليطها الاضواء على الجوانب التالية :

ـ تعيينات المسئولين العسكريين

والاداريين والماليين والدينيين العاملين بالثغور المحتلة . وتساهم هذه الوثائق في تتبع خصائص النظام المتبع بثغر ما (حماية ، احتلال عسكري وتسيير مباشر) . وفي تحديد الفئات الاجتماعية المستفيدة من التوسع البرتغالي وتساهم أيضا في تحديد مدى استفادة البرتغال من ثغر ما وذلك بالوقوف على تلك المناصب المذكورة .

- مختلف العطاءات والاقطاعات التى أغدقتها الدولة على النبلاء لدفعهم الى المساهمة في المجهود العسكري . فاستغلال وثيقة تتعلق باقطاع منطقة أو مدينة أو تنازل الملك للمستفيد عن ضرائب ثغر أو منطقة يسمح بأخذ فكرة عن النظام الجبائى المستحدث هناك وربما مكن من أخذ فكرة عن معطياتها الاقتصادية أو عن مدى انتظام الاداءات بها . (مما يسمح بدوره بأخذ فكرة عن مدى تحكم البرتغاليين في المنطقة) .

- تنازلات قضائية لفائدة مجرمين مقابل الخدمة العسكرية بالثغور أو المساهمة في حملة من الحملات المنظمة ضد المغرب . وتغلب هذه الوثائق على ما نشره أزفيدو .

- ولعل أهم مساهمة تقدمها كتب التشريفات الملكية تكمن في احتوائها على وثائق جد مهمة تعرف «Cartas de Quitacao» أى الايصالات أو رسائل ابراء الذمة التى كانت تسلم لثلاثة أنواع من الموظفين : لوكيل الملك التجاري (الفيطور Feitor) ، للمسئول عن التموين بالمدينة (المشرف Almoxarife) ، وأخيرا للمحاسب (الكنتدور) . ولهذا تختلف هذه الوثائق من ناحية نوعية الاشياء المذكورة فيها . وما اذا كان الايصال يبرىء ذمة مشرف طغت عليه المواد الغذائية والأسلحة والذخيرة أو اذا سلم لوكيل تجاري طغت عليه السلع المستوردة والمصدرة .

ورغم ان هذه الايصالات تختلف من ناحية الطول ومن ناحية غزارة المادة ، فانها تخضع مع ذلك لتصميم موحد . فهى تبدأ بذكر الأمر الملكي بمراجعة حسابات المعني بالأمر ، واسم الشخص الذي كلف بذلك ، ثم تذكر نوع المهمة التى كانت منوطة به وتاريخ بدايتها ونهايتها والمكان الذى عمل به . يلى هذا سرد كل السلع والاموال والاشياء الاخرى التى توصل بها خلال قيامه بمهمته وأسماء الاشخاص والمؤسسات التى سلمته شيئا ما . وينتهى الايصال بتبرئة ذمة المعنى بالامر وبذكر تاريخ ومكان تحرير الوثيقة . واسم الذى قام بذلك .

وتسمح هذه الوثائق بأخذ فكرة عن المبادلات التجارية التي كانت تعرفها الثغور المحتلة . وعن السلع المتبادلة

وتطور العرض والطلب عليها وتتبع أثمانها وبالتالى تحديد ما اذا كانت البرتغال قد استفادت من احتلال ثغر ما . ولكن هذه الايصالات لا تهتم مع الأسف الا بتجارة الملك ولا تشير قط الى أنشطة التجار الاحرار . كما ان نوعا آخر من هذه الوثائق يسلط الاضواء على المصاريف التي تتحملها البرتغال بسبب تحصين بعض الثغور أو الدفاع عنها .

وقام الباحث البرتغالي Braamcap de Freire بنشر كل ايصالات فترة حكم الملك امنويل (١٤٩٤ ـ ١٥٢١) وذلك بمجلة «Arquivo Historico Portugues» فى أعدادها العشرة (١٩٠٣ ـ ١٩١٠) . وكان منها ٧٢ ايصالا تتعلق بالمغرب و١٤ بالهند ، و١٩ بغرب أفريقيا المصدرة للتبر والعبيد (مركزي أرغيس بالساحل الموريتاني ولامينا بساحل الذهب) و٦ بافريقيا الشرقية و٢٣ بمصلحتى دار غينيا ودار الهند المركزيتين . وكان من هذه الايصالات المنشورة واحد يتعلق بمصاريف الاسطول الذى وجه سنة ١٥٢٠ لمراقبة مدخل البحر الأحمر .

ونشر الباحث أزفيدو فى مؤلفه السابق الذكر ١٩ ايصالا في حين أدرج (كويليو ولوبش) فى مؤلفهما ايصالين متعلقين بالمغرب .

واستطعت بعد الاطلاع على كل كتب تشريفات الملك جوا الثالث (حوالى سبعين كتابا) الوقوف على ٣١ ايصالا تتعلق بالثغور المغربية .

واذا كانت هذه الوثائق تسلط الاضواء على الانشطة التجارية والمصاريف . فان وثائق اخرى تكملها كمحاضر محاكم التفتيش المتعلقة بالتهريب التى سأعود اليها وكتقارير ومراسلات الوكلاء التجاريين والماليين بالثغور المرتبة بالارشيف الوطني مع مجموعة وثائق Corpo Cronologmco .

وهناك وثائق اخرى مرتبة بالارشيف الوطني تحت اسم Nucleo Antigo لم تعرف حتى ساعة كتابة هذا البحث . ومن حسن حظ الباحث توفر فهارس تسهل معرفة نوعية مواضيع تلك الوثائق . هذا ، وسبق لي استغلال عدد مهم من وثائق هذه المجموعة التى تغلب عليها الوثائق ذات الطابع المالي (الرواتب والمعاشات المؤداة للجنود العاملين بالثغور المحتلة) والجبائى . كما توجد من بينها سجلات قضاة الثغور سجلت فيها المنازعات والخلافات التى وقعت بين أفراد الجالية البرتغالية .

ومن أهم وثائق هذه المجموعة تلك التى تتعلق بالضرائب ففيما يخص الجمركية منها استطعت الوقوف على سجل للضرائب المؤداة عن صيد سمك الشابل بأزمور (١٥٢٦م)(٧) وقائمة الاعشار التى دخلت ميناء

غنائم نتيجة الحروب بعدن والبحر الاحمر . (ص ٢٤٣) .

- رسالة مؤرخة في ١٥١٤/١٠/٢٠ يجيب فيها الملك على التوصيات التى أعطيت له لاحتلال البحرين (ص ٢٦٤) .

- رسالة مؤرخة في ١٥١٤/١٠/٢٠ الى الملك تتعلق بمشاريع عسكرية بالبحر الاحمر وتعرض فى هذه الرسالة للطريقة التى يمكن بها احتلال عدن وأوصى بعدم تحصين مدخل البحر الاحمر وأشار الى مينائى زيلع و«بربرة» ، وأعطى أخبارا عن جزر القمر . وفى الأخير أوصى بالاعتماد على ميناء مصوع بأثيوبيا للتمكن من مراقبة جدة ومكة . (ص ٢٧٨ وما بعدها) .

- رسالة مؤرخة في ١٥١٤/١٠/٢٢ بعث بها الى الملك يخبره فيها بأنه أمر بصنع سفن تتلاءم وظروف الملاحة بالبحر الاحمر لاستعمالها هناك فى حالة التحكم فيه . (ص ٢٩٥) .

- رسالة أخرى مؤرخة في ١٥١٤/١٠/٢٥ يطلع فيها الملك على مشاريع تتعلق بالبحر الاحمر . (ص ٣٢٥) .

- رسالة مؤرخة في ١٥١٥/٩/٢٢ بعث بها الى الملك البرتغالي من هرمز يعرض فيها الاسباب التى كانت وراء اعطائه الاولوية لهرمز منها ما توفره من مداخيل وحمايتها للمصالح البرتغالية بالهند ، ووعد بالاهتمام بمشكلة البحر الاحمر فور إحكام السيطرة على هرمز . وأشار الى الوفود التى أرسلها ملك الاحساء وأحد ولاة الشيخ اسماعيل (فارس) لتحيته ولتسليمه هدايا . واعتذر عن عدم تمكنه من اعطاء معلومات عن القطيف وعن البصرة ، وأكد كثيرا على الاهمية الاستراتيجية للبحرين . وفى الختام ذكر أن هرمز تمكن من التحكم فى تجارة الخيول ببلاد فارس وبالجزيرة العربية وذلك قبل أن ينتقل الى وصف الحصن الذي شيد بهرمز . (ص ٣٦٩ وما بعدها) .

- وفى رسالة غير مؤرخة أخبر الملك باستيلاء البرتغاليين على عدد من «مراكب القاهرة» كانت تقوم بتهريب السلع بالسواحل الهندية . (ص ٣٨٦) .... الخ .

ومن الوثائق التي يمكن للباحث أن يعتمد عليها ، محاضر محاكم التفتيش الدينية . ورغم فقدان عدد كبير من تلك المحاضر ، فقد وصلنا ما يقرب من ٤٠ الف محضر تغطى محاكمات تمت ما بين ١٥٣٦ ، سنة بداية العمل بتلك المحاكم ، و١٨٢١ ، سنة اغلاقها نهائيا . وهذه المحاضر موزعة بين ٣ محاكم على الشكل التالي :

- محكمة لشبونة : ١٧٩٧٧ محضرا .

- محكمة يابره : ١١٧٤٣ محضرا .

- محكمة كوينبرا : ١٠٢٥٨ محضرا .

وبالاضافة الى هذه المحاضر ، وصلتنا عشرات الكتب التى حررت فيها الاعترافات أو التبليغات التى توصلت اليها المحكمة . وهى مرتبة كالتالي :

- سجلات التبليغات (Livros das denuncias) التى تتعلق بالمحاكم الثلاث .
- سجلات الاعترافات (Livros das confessoes) .
- سجلات المحامي المراقب (وكيل النيابة) Cadernos do Promotor fiscal .
- سجلات الزيارات (livros das Visitacoes) وهى دفاتر يسجل فيها القضاة التبليغات والاعترافات التي توصلوا بها خلال زيارتهم لمنطقة معينة .
- سجلات خاصة بجريمة اللواط[١٠]. Livros do pexado nefan do .

ولكن الباحث المهتم بالعالم العربي لا يستفيد الا من نسبة ضئيلة من وثائق ومصادر هذه المحاكم لان البرتغال لم يعرف - كجارته أسبانيا - جالية موريسكية مهمة بقيت مدة طويلة متمسكة بأرضها ، وفى نفس الوقت ، بثقافتها وعقيدتها التي استمرت - ولو سريا - في اتباعها رغم تنصرها السطحي .. ومن جهة اخرى يمتاز الشكل الموريسكى بالبرتغال بخصائص تميزه عما كان موجودا باسبانيا .

فبعد بحث بالارشيف الوطني دام ما يقرب من السنتين ، لم أعثر ، ولم أعلم ان أحدا عثر على محضر محاكمة موريسكي برتغالي الاصل منحدر من الجالية المسلمة التي أرغمها قرار الملك أمنويل على التنصر أو مغادرة البلاد (١٤٩٧) . وهنا يكمن حظ المؤرخ للغزو البرتغالي للسواحل العربية الاسلامية . ذلك ان محاضر محاكمة موريسكيي البرتغال تتعلق بأفراد تم ادخالهم الى البرتغال كأسرى وعبيد إما من دول المغرب العربي أو من غرب أفريقيا أو من الهند أو من الخليج العربي أو كانوا أسرى أتراكا . وكانت المحاضر التى استطعت اكتشافها من بين تلك الاعداد الهائلة من المحاضر التى لا تتوفر على فهارس[١١] موزعة كالتالي :

- المغاربة : ٢٤٤ .
- الجزائريون : ٦
- التونسيون : ٥
- الاتراك ٢٣ منهم ٣ مصريين وبصريين وهرمزي .
- السودانيون (غرب أفريقيا) : ١٦ .
- الهنود المسلمون : ٣٤ .
- موريسكيون لم تحدد مناطقهم الاصلية : ١٥ .

وتقدم دراسة واستغلال وثائق

محاكم التفتيش خدمة كبرى لمؤرخ الغزو البرتغالي لسواحل العالم العربي والاسلامي وردود الفعل التى تولدت عنه وخصوصا بالنسبة لمؤرخ نتائجه الفكرية والدينية ذلك ان هؤلاء المسلمين الذين ادخلوا الى البرتغال وأرغموا على التنصر حوكموا ليس فقط لتمسكهم بدينهم الاصلي ولكن كذلك لاستمرارهم فى العيش حسب عادات وتقاليد بلدانهم الشيء الذى يسمح بتحديد العقليات وخصائص الثقافة ـ بمفهومها الواسع ـ داخل تلك البلدان . والمحاضر المتعلقة بالعالم الاسلامي تتكون من ثلاثة أنواع متميزة :

١ ـ محاضر تسلط الاضواء على محاكمة مورسكيين لتمسكهم بعقيدتهم وثقافتهم .

٢ ـ محاضر محاكمة مهربين برتغاليين تم القاء القبض عليهم لاستمرارهم في التبادل التجاري مع المغاربة رغم تحريم الملك البرتغالي لذلك أثر اضطراره الى التخلي عن عدد من الثغور المغربية أو لتسهيلهم فرار الموريسكيين بجعل مراكبهم رهن إشارتهم مقابل مبالغ مالية مهمة .

ـ محاضر محاكمة بعض المجاهدين البحريين الذين تم أسرهم خلال غاراتهم على السفن والسواحل البرتغالية والذين تبين للمحكمة انهم منحدرون من أصل مسيحي (الانكشارية العثمانية) أو استمروا فى تمسكهم بدينهم رغم تنصرهم أو تأكد للمحكمة إعدادهم للفرار للالتحاق بالبلاد الاسلامية وخصوصا المغرب[١٢] .

وهذا النوع الثالث من المحاضر يسمح للمؤرخ بتتبع تصدى العالم الاسلامي للمخططات البرتغالية الرامية الى تطويقه والتقليل من موارده وذلك تحضيرا للاستيلاء عليه . ولقد سبق لى خلال مؤتمر نظم ببغداد حول تاريخ العرب العسكري (٢٢ ـ ٢٦ ايلول ١٩٨١م) التعريف ببعض مساهمات هذه المحاضر فى تحديد خصائص رد الفعل الاسلامي على تلك المخططات[١٣] .

وهكذا تتجلى بوضوح **أهمية هذه الوثائق البرتغالية ذلك** أنها توفر للباحث فرصة دراسة مرحلة من أخطر مراحل تاريخ عالمنا العربي التى لا تسمح وثائقنا ومصادرنا بدراستها كما يتجلى ذلك من خلال الوثائق الكثيرة والمهمة التى وصلتنا عن معركة وادى المخازن مثلا أو عن المخططات البرتغالية بالخليج العربي والبحر الأحمر .

وتوفر هذه الوثائق للباحث فرصة القيام بدراسة شاملة لأى موضوع يتعلق بالتوسع البرتغالى اذ تسمح في نفس الوقت بتتبع امكانات وأوضاع كل من البرتغال والعالم العربى ، وفي

نفس الوقت تمكن من ربط تلك المخططات ، ليس فقط بالطريقتين السياسية والاقتصادية للطرفين ، ولكن كذلك الدولية كالنزاع الاسباني - البرتغالي حول مناطق النفوذ بالمغرب العربي والشرق الاقصى مثلا ، ودور البابوية في خلق الوفاق بينهما ، أو محاولات الدول الأوروبية الأخرى كفرنسا وهولندا وانجلترا افشال نظام الاحتكار الذى فرضه البرتغاليون .. الخ ..

ولكن كثرة ما توصلنا اليه من وثائق برتغالية لا تمنع الباحث من الأسف على ضياع عدد كبير من المراسلات والتقارير مما جعل معلوماتنا عن بعض الأحداث تبقى ناقصة كما هو الشأن مثلا بالنسبة لسنتى احتلال واخلاء أسفى المغربية . وهذا الضياع يحتم أحيانا اللجوء الى بعض المصادر التى عاين مؤلفوها الأحداث أو استغلوا بعض تلك الوثائق الضائعة . ويستفيد الباحث كثيرا من استغلال ثلاثة مصادر برتغالية متعلقة بالمغرب الاقصى ومصدرين متعلقين بالشرق العربى [١٤] .

هذا ، وتلزم هذه الوثائق الباحث ، فضلا عما هو ملزم به ازاء أية وثيقة أو مصدر . تلزمه بالتسلح بحيطة خاصة تفاديا لما وقع فيه بعض المؤرخين الأجانب من أخطاء وذلك للأسباب التالية : احتواؤها على عيوب كل ما يكتبه الأجانب عن بلاد غير بلادهم خصوصا اذا كانوا يكنون لها العداء . فبالاضافة الى ما تزخر به الوثائق البرتغالية من احكام القيمة التى استهدفت عقيدة ونظم البلاد الاسلامية ، لا تسجل هذه الوثائق الا ما يثير استغراب محرريها أو ما يعبر عن اهتماماتهم أو ما كانوا يعتبرونه فخرا لبلادهم كالاطناب في الحديث عن الانتصارات والسكوت عن الهزائم . وللوصول الى هذا الهدف الأخير لم يتردد بعض محرري تلك الوثائق في الكذب وتزييف الحقائق . ويمكننا المثالان التاليان من أخذ فكرة عن بعض عيوب تلك الوثائق .

١ - اذا كانت مساهمة الايصالات السابقة الذكر مهمة في التعريف بالتجارة الملكية البرتغالية في بعض الثغور ، فانها تسكت عن نشاطات التجار الأحرار الشيء الذى يحرمنا من معلومات واشارات قد تساهم في التعريف باهتمامات مخالفة لاهتمامات الملك وبالتالى الالمام بكل جوانب التجارة البرتغالية بالثغور المغربية . كما ان هذه الوثائق ، وكذا تقارير الوكلاء التجاريين والماليين ... لا تهتم الا بالمناطق الساحلية وأنواع معينة من المنتجات الشيء الذى لا يسمح بتاتا بتسليط الأضواء على أوضاع البلاد الاقتصادية كلها .

٢ - أوقعت هذه الوثائق عددا من

المؤرخين الأجانب في أخطاء فادحة . فمنهم من أخذ ما تزخر به تلك الوثائق من مشاريع ومخططات وكذب كحقيقة ونسب للتوسع البرتغالى مخططات وأحيانا مكتسبات لم تكن امكانات البرتغال المالية والبشرية تسمح بها ويمكن اعطاء مقالة للباحث (سنفال) السابق الذكر كمثال على هذا [١٥] .

كما ان عددا من المؤرخين الأجانب كرروا بدون تمحيص التبريرات الواردة بالوثائق البرتغالية عن أسباب تراجع النفوذ البرتغالى بالمغرب ولم يأخذوا قط بعين الاعتبار رفض المغاربة الرضوخ لمشيئة البرتغاليين وضرب حصار شبه مستمر على قلاعهم . وهكذا برروا ذلك التراجع بتفضيل البرتغاليين الهند والبرازيل على المغرب الذى لم يكن - في رأيهم - يسمح بأرباح ولم يكن يتوفر على موانىء جيدة[١٦] !!

ورغم كل هذه العيوب ، يمكن لهذه الوثائق ، اذا ما استعملت مع الحيطة اللازمة ، أن تسد الكثير من الثغرات التى تركتها مصادرنا العربية ، وأن توفر المادة الضرورية لدراسة جوانب مهمة من تاريخ الغزو البرتغالى ومخططاته على حساب العالم الاسلامى . ويمكن اعطاء الأمثلة التالية عن مساهمات تلك الوثائق في دراسة بعض المواضيع المهمة :

١ - الدوافع التى حدت بالبرتغاليين الى اكتساح مناطق النفوذ الاسلامى وتحديد مكانة كل واحد من تلك الدوافع لفهم أسباب اصرار البرتغاليين على تنفيذ مخططاتهم .

- **العوامل الدينية** : هل كان اكتساح البرتغاليين للأراضى الاسلامية استمرارية للحروب الصليبية ضد الاسلام بايبيريا ؟ وفي ما يلي أنواع الوثائق التى يمكن استغلالها لدراسة هذا الموضوع .

القرارات البابوية (Les Bulles pontificales) التى كانت تمنح للملوك البرتغاليين امتيازات مالية وجبائية مهمة جدا قصد تشجيعهم على الاستمرار في محاربة الاسلام والمسلمين وغزو أراضيهم . ويمكن للباحث الرجوع الى آخر عمل أنجزحول هذه القرارات على يد الراهب البلجيكى Ch. Writte الذى جمع ودرس ٦٧ قرارا بابويا متعلقا بالحروب البرتغالية **التى دارت بالمغرب ودور البابوية** في توفير شروط النجاح لها [١٧] .

ويمكن الرجوع كذلك الى بعض المراسلات التى تبودلت ما بين الملك وبعض المسئولين السياسيين والدينيين . ويمكن أخذ فكرة عن مدى طغيان الروح الدينية على تلك المراسلات ومدى صدق محرريها بالرجوع الى رسالة الملك البرتغالى امنويل الى اسقف (براغا) السابقة

الذكر، والى الرسائل التى بعث بها الملك البرتغالى الى بعض كبار المسئولين السياسيين والدينيين سنة ١٥٣٤ حول مشروع اخلاء آسفى وأزمور وأجوبة بعضهم [١٨] .

ـ الدوافع الاقتصادية :

ان الوقوف على وثائق برتغالية جديدة ، واخضاع الوثائق ذات الطابع الدينى للنقد والتحليل جعل عددا من المؤرخين يتخلون عن اعطاء الأولوية للعامل الدينى . فاذا اعترفوا بوجود هذا الدافع ، فانهم أكدوا مع ذلك طغيان العوامل الاقتصادية خصوصا بعد الوصول الى المراكز التجارية بغرب افريقيا ونجاح (دوجاما .V. De Gama) في ربط لشبونة بالهند اعتمادا على طريق رأس الرجاء الصالح البحرية وذلك رغم احتفاظ الملوك البرتغاليين بشعار الحرب الصليبية لدفع البرتغاليين الى المساهمة في المجهود العسكرى وتحمل تكاليفه وتضحياته ، وللحصول على مساعدة البابوية المهمة .

وبالاضافة الى تسليطها الأضواء على دوافع الغزو ، تمكن هذه الوثائق كذلك من تتبع مدى استفادة البرتغال من تحكمه في كل منطقة ودور تلك الاستفادة في تحديد السياسة المتبعة ازاءها . وبذلك يمكن تفادى تعميمات خاطئة سقطت فيها دراسات لم تعتمد على هذه الوثائق [١٩] . وسأعطى على دور العوامل الاقتصادية والبحث عن الربح في توجيه السياسة البرتغالية مثالين ، واحدا من المغرب الأقصى وآخر من الخليج العربى .

لقد اعتمد البرتغاليون بشمال المغرب على عدد كبير من الاساطيل والرجال للاستيلاء على المدن . وكانت سياسة المخططين للغزو واضحة : التخريب ومطاردة المغاربة وانتهاج سياسة الأراضى المحروقة الشىء الذى يتناسب وعقلية الفرسان والنبلاء الذين عاثوا في الأرض فسادا . أما في الجنوب المغربى ، فلقد كانت المخططات للاستيلاء عليه مخالفة وذلك لأسباب تجارية . فاذا كان المسئولون البرتغاليون على علم بما كانت تعانى منه مدن تلك المناطق من فتن واضطرابات ، واذا كانوا قد زادوا تنافس الاعيان حول السلطة حدة بتدخلاتهم ورشاويهم ومختلف الضغوط التى مارسوها ، فانهم تفادوا مع ذلك التدخل العسكرى لاحتلال أهم تلك المدن وذلك رغم الفرص التى أتيحت لهم .لقد كانوا يكتفون كلما تبين لهم ان مجرى الأحداث أصبح يهدد مصالحهم بتنظيم انقلابات وبتسليم السلطة لمن كانوا يتوقعون منه حماية مصالحهم وتنميتها . ولم يقرر الملك البرتغالى احتلال آسفى سنة ١٥٠٨ إلا وهو

شبه مرغم ، وتحت ضغط التجار المحليين ، الذين كانوا ينتظرون من ذلك الاحتلال ارجاع الأمن الى المدينة ووضع حد للفتن التى قضت على الرواج التجارى الذى كانت تعرفه .

وبعد احتلال المدينة ، عمل الملك كل ما في وسعه للحيلولة دون دخول البرتغاليين في حروب ضد القبائل المجاورة ودون انتهاج سياسة الأرض المحروقة المتبعة بالشمال . وأوصى بالاعتماد على الرشاوى وخلق عملاء والاعتماد على الدبلوماسية أكثر من الاعتماد على الأسلحة . وقام الملك بعدة تنازلات سياسية وجبائية لضمان ولاء القبائل واستمرار اقبالها على الموانىء ولضمان طاقات المنطقة الانتاجية والاستهلاكية لصالح البرتغال . وتساهم الوثائق ذات الطابع التجارى المحض في فهم هذه السياسة وتحديد أسبابها . فمناطق الجنوب ، وخصوصا دكالة ، أصبحت منذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، تمثل أهمية قصوى داخل الامبراطورية التجارية البرتغالية ، اذ أصبحت ضرورية لاستمرار استفادة البرتغال من تعامله التجارى مع غرب افريقيا لتوفرها على المواد الضرورية للحصول هناك على التبر والعبيد (أنسجة صوفية ، نحاس ، حبوب ، خيول ..) ولترويج توابل وعقاقير الهند .. ونظرا لهذه الأهمية ، عمل البرتغاليون على الاحتفاظ بدكالة وساحل غرب افريقيا داخل كتلة جغرافية لا يمكن ان تجزأ أو ان يتخلى عن قسم منها لاسبانيا التى عبرت في عدة مناسبات عن مطامعها في المنطقة [٢٠] .

أما بالمشرق العربى ، فلقد كانت السياسة البرتغالية مرتبطة بهدف واضح : القضاء على الوساطة العربية ما بين أوروبا والمناطق الآسيوية المنتجة للتوابل والعقاقير والعطور كشرط أساسى لتعويض الايطاليين كمزود ضرورى لأوروبا بتلك السلع التى كانوا يحصلون عليها من مصر أو سواحل الشام . ولهذا كان اغلاق البحر الأحمر في وجه الملاحة العربية أهم ما كلف به الاسطول البرتغالى الذى أرسل الى المنطقة سنة ١٥٠٥ . وهكذا ألح قائد الاسطول المذكور على الموانىء العربية بالغارات وخرب عددا منها توجد على ساحل عدن ومدخل البحر الأحمر والخليج وقام باحتلال هرمز . ولكن هذا القائد سرعان ما أدخل تعديلا مهما على سياسته وذلك بعد ان عاين معطيات التجارة بالمنطقة . لقد لاحظ أن العلاقات بين أسيا والعالم العربى عريقة وأن اغلاق البحر في وجه التجارة العربية لن يؤدى في نهاية الأمر الا الى تنشيط الطرق البرية التى لا يمكن للبرتغاليين مراقبتها كما ان الهند لا يمكنها

الاستغناء عن مواد تعودت الحصول عليها من العالم العربى كالخيول والفضة . ولهذا لم يعد المسئولون البرتغاليون ينظرون الى التحكم في هرمز نظرتهم الى احتلال عدن أو جزر القمر مثلا .

وهكذا تقرر عدم اغلاق تلك المبادلات في وجه العرب وفرض الوساطة البرتغالية عليهم تفاديا لاتصالهم بالمناطق المنتجة . وكلفت هرمز بامتصاص سلع الجزيرة العربية والعراق والشام وتوزيع مواد الشرق الأقصى اعتمادا على البصرة على الخصوص . وتمكن رسائل «البكيرك» السابقة الذكر من تتبع مراحل انتهاج هذه السياسة . ففي رسالة موجهة الى الملك مؤرخة في ١٥١٠/١٠/٤ (ص٤٢٣) وأخرى تعود الى ١٥١٤/١٢/٢٧ (ص٣٤٦ ـ ٣٤٩) . تنجلى خلفيات هذا المخطط بكل وضوح . لقد أدى فتح هرمز في وجه التجار العرب الى امتصاص نسبة مهمة مما كان يرسل الى الهند من فضة وخيول . وفي رسالة أخرى ، (هرمز ، ١٤١٥/٩/٢٢ ، (ص٣٧١) أخبر الملك انه يعلم جيدا ان العالم العربى والتركى والفارسى يتزود بالتوابل من البصرة وأنه لا يرى في ذلك أى خطر على مصالح البرتغال ما دامت تلك المناطق خارجة عن النفوذ العثمانى [٢١] ، وما دامت الكميات المحصل عليها لا تسمح قط بمنافسة البرتغال بأوروبا . وأكد للملك حقيقة أخرى قد تبعث على الاستغراب : لقد سمح للعرب بركوب البحر بالخليج : ولكن شريطة الحصول من البرتغاليين على تصريح Cartaz ، وشريطة الاتجار مع هرمز وحدها ! [٢٢] .

وللمزيد من الايضاح حول مساهمة هذه الوثائق ذات الطابع التجارى في التعريف بالأنشطة التجارية التى كان العالم العربى يعرفها ، ومدى اهتمام البرتغاليين بالمنتجات والأثمان وأهم المراكز التجارية وانشط الطرق والمسالك أشير الى ان ايصالا متعلقا بالمتجر الملكى (فيطورية) بفلندرا (بلجيكا الحالية) مؤرخ ١٥٤٧/٤/١ أشار الى أهم الطرق التجارية بين البصرة ودمشق وباقى المدن التركية وأكد أن المدينة الثانية استطاعت بفضل البصرة تعويض القاهرة كأكبر خزان وموزع للتوابل والعقاقير وذلك نتيجة تضييق البرتغاليين الخناق على الملاحة بالبحر الأحمر [٢٣] .

٢ ـ بالاضافة الى تسليط هذه الوثائق الأضواء على الدوافع ، تسمح كذلك بدراسة الوسائل المسخرة من طرف البرتغاليين لغزو البلاد الاسلامية ..

ذلك انها توفر معلومات وأرقاما عن أعداد الجنود والأساطيل ونوعية الأسلحة المستعملة من طرف البرتغاليين للهجوم على ثغر معين أو الدفاع عنه أو لخوض معركة بحرية .. الخ .. كما تعرف هذه الوثائق بأنواع وأشكال التحصينات المستحدثة وأحيانا بمصدر موادها الخام والمصاريف التى تطلبها بناؤها أو ترميمها .. واعتمادا على هذه الوثائق يمكن دراسة سياسة التوغل السلمي وفرض نظام الحماية على مجموعة من الثغور لأسباب سبقت الاشارة اليها .

٣ ـ المراحل والمكتسبات المحققة :

بما أن مصادرنا ـ لا أتحدث عن الوثائق لانعدامها ـ تحتوى على مجموعة من العيوب سبقت الاشارة اليها وأهمها افتقارها للتواريخ الدقيقة ـ وهى أهم عنصر للتأريخ لحدث ما ـ فان مساهمة هذه الوثائق الأوروبية في كتابة تاريخ اعتداء الايبيريين على البلاد الاسلامية أساسية لتوفيرها امكانية تتبع مراحل ذلك الاعتداء بدقة كبيرة أحيانا .

ومن جهة أخرى تسمح هذه الوثائق بادخال بعض الفوارق على تلك المراحل كما يتجلى ذلك مثلا من خلال مرحلتى الشمال والجنوب المغربيين اللتين سبقت الاشارة الى وجودهما لأسباب استراتيجية (الشمال) وتجارية (الجنوب) .

كما تسمح بتتبع مدى متانة تلك المكتسبات وعلى ضوء ما تزودنا به من معلومات ـ وبالرغم من سكوت المصادر البرتغالية عن الكثير من الهزائم البرتغالية ـ تسمح للمؤرخ بالخروج بنتائج مدهشة . فاذا كانت تلك المكتسبات التى استطاع البرتغال تحقيقها بالمغرب والمشرق العربيين ، سريعة ومهمة وسهلة نسبيا ، فان نسفها بسبب مختلف ردود الفعل التى تولدت على ذلك الغزو لم يكن أقل منها سرعة . وهكذا وبخلاف ما حاول بعض المؤرخين الأجانب اخفاءه ، لم تدم سطوة البرتغاليين بجنوب المغرب ـ حيث كان نجاحهم أكبر ـ أكثر من ثلاث سنوات (١٥١١ ـ ١٥١٤) لتصبح أوضاعهم بعد ذلك شبيهة بما كانوا يعانون منه بباقي الثغور ، أي العيش في حالة حصار مستمر [٢٤] واعتمادا على هذه الوثائق يمكن للباحث تتبع مختلف التنظيمات المستحدثة من طرف البرتغاليين داخل الثغور : الادارية ، العسكرية ، المالية ، التجارية ، والدينية [٢٥] .

٤ ـ ردود الفعل العربية الاسلامية :

يجد الباحث بالوثائق البرتغالية مادة غزيرة لدراسة هذا الموضوع . ولقد بينت في محل آخر [٢٦] كيف ان محاضر محاكم التفتيش التى قد تبدو

جد بعيدة عن موضوع كهذا تساهم في دراسة ردود الفعل العربية الاسلامية التي تولدت عن محاولات البرتغاليين الحيلولة دون ركوب المسلمين البحر. وفضلا عن هذه المحاضر تسلط تقارير ومراسلات كثيرة الأضواء على الحروب البرية والبحرية، الشعبية والرسمية التى اعلنها العرب والعثمانيون على البرتغاليين بالبحر الاحمر والخليج والمحيط الهندى والسواحل المغربية والهندية. وهكذا يمكننا استغلال هذه الاعداد المهمة من الوثائق من مجموعة نتائج أشير الى أهمها:

١ ـ ان ردود الفعل العربية الاسلامية كانت فورية وعنيفة واكتسبت طابعا شعبيا واضحا لتنبيه شعوب المناطق المعرضة لخطورة المخططات البرتغالية. وكان هذا وراء تراجع نفوذ البرتغاليين ونسف مكتسباتهم بسرعة كبيرة ووراء تقلبات سياسية مهمة عرفها العالم العربى كتنحية الوطاسيين العاجزين عن مواجهة البرتغاليين ومبايعة الشرفاء والسعديين بالمغرب واستنجاد الجزائريين بالاتراك بعد يأسهم من دولة بنى عبد الواد.

٢ ـ تشهد هذه الوثائق نفسها على افشال ردود الفعل العربية الاسلامية للمخططات البرتغالية السابقة الذكر فاذا كان الغزو البرتغالى يهدف أولا وقبل كل شيء الى حرمان العرب من دور الوساطة ما بين أوروبا والسودان الغربى من جهة، والشرق الأقصى من جهة أخرى، فان تعامل العرب مع هذه المناطق لم يتوقف أبدا وان تضرر من الحصار البرتغالى.. فلقد استمر المغاربة في عرض التبر ببعض الموانىء التى بقيت حرة وازداد العرض مع السنوات رغم كل المحاولات البرتغالية لقطع الطريق على القوافل الى حد جعل المؤرخ البرتغالى الكبير (غودينيو) يعتبر ما عبر عنه بانتقام القوافل من الكرفيلات البرتغالية أهم أسباب انتصار المغاربة السياسى والعسكرى على البرتغاليين (٢٧). ولم يستطع البرتغاليون اغلاق البحر الأحمر أو الحيلولة دون وصول التجار العرب الى السواحل المنتجة للتوابل كما تشهد على ذلك اعترافات المسئولين البرتغاليين أو الغنائم التى كان البرتغاليون يحصلون عليها من مطاردة السفن العربية بساحل عدن والبحر الأحمر والخليج.

٣ ـ ان ردود الفعل العربية الاسلامية لم تعط نتائج فورية وسريعة نظرا لتفوق البرتغاليين في ميدان الأسلحة النارية وخصوصا لافتقار المناطق المعرضة للغزو لقوة سياسية قادرة على الرد على التحدى البرتغالى مما أخر التحرير كذلك تناحر أمراء وملوك المناطق المعرضة للغزو أو القريبة من

مناطق النفوذ البرتغالى . ذلك التناحر الذى زاده البرتغاليون حدة .

كما تمكن هذه الوثائق من الوقوف على سبب رئيسى حال دون احراز انتصار نهائى وسريع ضد البرتغاليين والمتمثل في عجز الدولة العربية والاسلامية على مجابهة البرتغاليين بأسطول في مستوى ما كان بأيديهم . لقد حال افتقار المغاربة لاسطول قادر على منع حصول البرتغاليين على الرجال والعتاد والأقوات من البرتغال دون حصولهم على نتائج مهمة من اعلانهم حروبا برية على برتغاليي الثغور المحتلة وتؤكد نفس الوثائق حقيقة أخرى مهمة : لقد أدى استعمال المصريين أولا ، والعثمانيين بعد ذلك لأساطيل خاصة بالبحر المتوسط في حروبهم ضد البرتغاليين بالمحيط الهندى الى حصول هؤلاء على انتصارات هائلة رغم قلة أعداد مراكبهم .

وتسمح بعض التقارير والمراسلات بأخذ فكرة عن محاولات المصريين والعثمانيين انشاء اسطول بحرى بالسويس لافشال المخططات البرتغالية ، وتطلعنا على المشاكل التى واجهتهم في ذلك : التأخر التكنولوجى ، اذ كانت الأشرعة والمدفعية وغير ذلك ترسل من اسطنبول ، وعدم توفر المواد الخام وعلى الخصوص الأخشاب التى كانت تجلب من لبنان الى مصر حيث كانت السفن تنزلها بميناء الاسكندرية ورشيد لتجد في انتظارها ٤٠٠٠ جمل لنقلها الى السويس [٢٨] .

الهوامش

(١) محمد الكراسي : عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل ، تحقيق ونشر عبدالوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية ، الرباط ، ١٩٦٣

(١ م) ابن القاضي أحمد : لقط الفرائد من لقاطة الفوائد . تحقيق محمد حجي ،الرباط ، ١٩٧٦ .

(٢) الناصري ، أحمد بن خالد : كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى . ج ٥ ، ط . البيضاء ، ١٩٥٥ ، ص٠١٠ ذكر الشخص المذكور يحيى بن تافوت عوضا عن أو تاعفوفت .

(٣) المدني ، أحمد توفيق : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (١٤٩٢ - ١٧٩٢) ، الجزائر ، بدون تاريخ .

(٤) حكم الملوك الذين نحن بصدد الحديث عنهم البرتغال في الفترات التالية :

- جوا الأول : ١٣٨٣ - ١٤٣٣ .
- دوا ردو : ١٤٣٣ - ١٤٣٨ .
- افنصو الخامس الملقب بالافريقي : ١٤٣٨ - ١٤٨١ .
- جوا الثاني : ١٤٨١ - ١٤٩٥ .
- امنويل الملقب بالسعيد : ١٤٩٤ - ١٥٢١ .
- جوا الثالث : ١٥٢١ - ١٥٥٧ .
- دون سبيستيان : ١٥٥٧ - ١٥٧٨ . (وهو الذى قتل بمعركة وادى المخازن) .

(٥) **Documentos das Chancelarias Reais Anteriores a 1631 relatives a Marrocos. T.I (1415-1450), Lisboa 1916, T II (1450-1456) Lisboa Pedro de Azevedo.** والمؤلف هو (بيدرو دو ازفيدو)

(٦) **P.M. Laranjo Coelho: Documentos Ineditos de Marrocos, Chancelaria de Joao, II, Volume I. Lisboa 1943.**

(٧) **Nucleo Antigo, No. 575.**

(٨) **Nucleo Antigo No. 556.**

(٩) **Nucleo Antigo No. 869.**

(١٠) يعتبر العمل التالى أحسن عمل للتعريف بمصادر محاكم التفتيش

البرتغالية :
Charles Amiel: les archives de l'Inquisition portugaise: regards et reflexions. Paris 1979.

(١١) لا تتوفر الا محاضر محكمة يابرة على فهارس في حين بقيت محاضر محكمتى كوينبرا ولشبونة بدون ذلك .

(١٢) تغلب المحاضر المتعلقة بمحاكمة المـورسكيين الذين القى القبض عليهم في حالة فرار أو لتحضيرهم لذلك ضمن محاضر محكمة لشبونـة الشيء الذى يسمح للمؤرخ بتتبع أسباب عدم اندماج تلك الجالية في المجتمع البرتغالى . ولأخذ فكرة عن هذه الأنواع وعن ظروف المحاكمات .. راجع مقالتنا : محضر محاكمة مغربية من لندن محكمة التفتيش الدينية البرتغالية ، مجلة المنال ، (الرباط) عدد ٢١ ، يوليو ١٩٨١ ، ص٢٢٤ ـ ٢٧٨ .

(١٣) مساهمة محاضر محاكم التفتيش الدينية في تسليط الأضواء على ردود الفعل العربية الاسلامية ضد المخططات البرتغالية بالمغرب والخليج العربى .

(١٤) بالنسبة للمغـرب : Damiao de Gois: Cronica do Felicissimo Rei dom Manuel, Traduction de Robert Ricard: Les Portugais au Maroc, Rabat, 1937.

— F. Luis de Sousa: Anaes del Rei dom Joao Terceiro. Traduction de R. Ricard, les Portugais et l'Afrique du Nord, 1940.

— Bernardo Rodrigues: Anais de Arzila, edit. David Lopes, Lisboa 1915 (2 Vol.)

وبالنسبة للشرق : Joao de Barros: Asia, primeira decada, IIa decada, IIIa, IVa decada. Lisboa 193

— Fernao Lopes de Castanheda: Historia do Descobrimento e Conquista dasIndi

(١٥) P. Cenival, in Sources Inedites ... I p396.

(١٦) R. Ricard, in Le Propleme de l'occupation restreinte dans l'Afrique du Nord. Annales d'histoire economique et sociale. Septembre, 1936 pp 426-34.

— Durval Pires de Lima: Historia da dominacao portuguesa em cafim. Lisboa 1930. p 107.

(١٧) Witte (Ch. M.): Les Bulles pontigicales et l'Expansion portugaise au XV siecle. Revue d'Histoire eclesiastique, no. XLVIII (1953), XLIX (1954), LI (1956), LIII (1958), revenue editee a Louvain, en Belgique.

(١٨) Sources Inedites ... IIpp640-44, 652, 665, 690, 692 ... IIIpI...

(١٩) راجع دراستنا : دكالة والاستعمار البرتغالى الى سنة اخلاء أسفى وازمور مكتبة كليتى الآداب بالرباط وفاس ، الفصل الرابع من الباب الأول والأول من الباب الثاني وخصوصا الفصل الثانى من الباب الثالث (تحت الطبع) .

(٢٠) R. Ricard: Le commerce de Berberie et l'organisation economique de l'Empire portugais aux XV° et XV° siecles. In Etudes sur l'Histoire des Portugais au Maroc. p 103.

(٢١) ما ان احتل العثمانيون البصرة حتى قدم للادارة المركزية تقرير حول الأوضاع الجديدة التى أصبحت عليها المدينة (١٥٤٧) : « وجهات نظر حول الاتراك الموجودين بالبصرة » .
في ديسمبر من سنة ١٥٤٦ بعد سنوات من الولاء

Pareceres sobre os Turcos que estao em Bassora !!Bibliotheque de Ajuda (Lisboa) codice 51-VIII-42 folios 293-331. cite par Vitorino M. Godinho: Os Descobrimentos e a economia mundial, T2, p161, No 186.

(٢٢) Vitorino M. Godinho: op cite p 160.

(٢٣) نقله المؤلف السابق بالمرجع السابق ص١٦٣ ـ ١٩٠ .

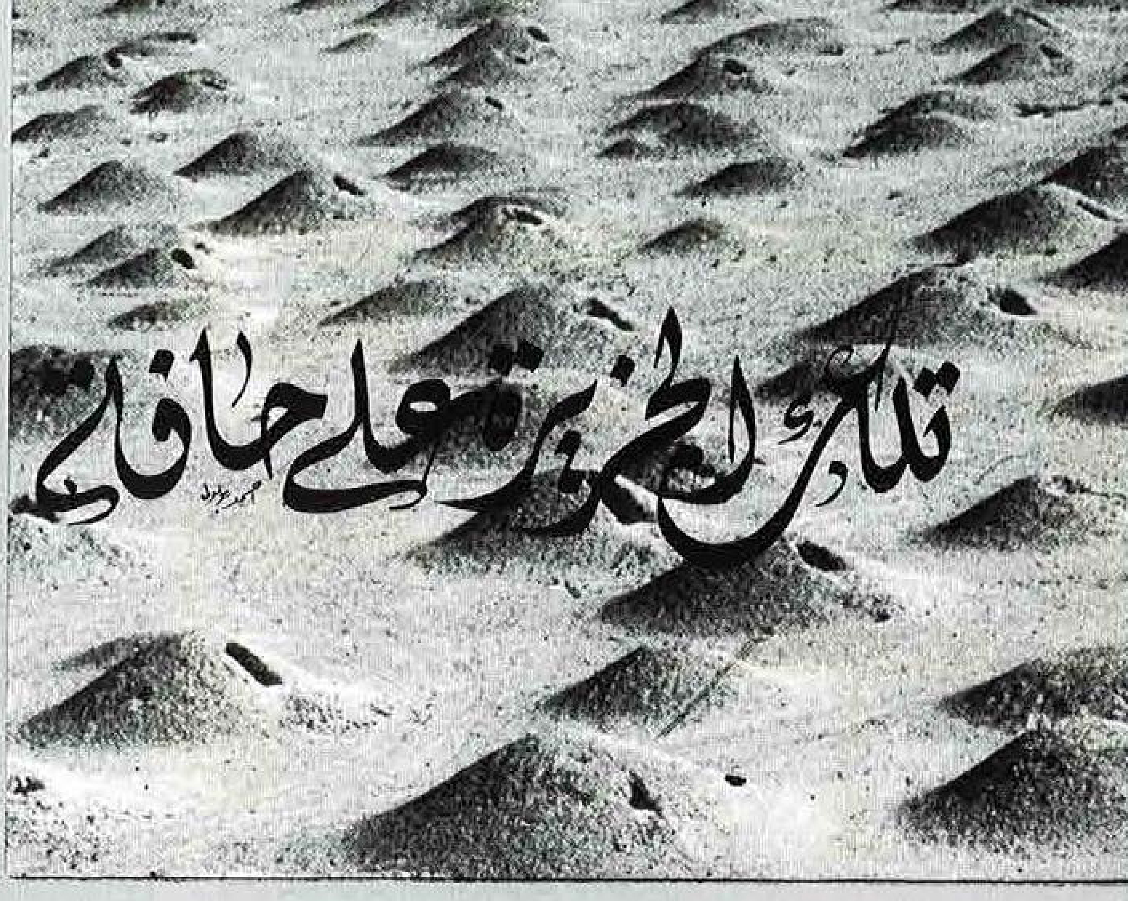
(٢٤) راجع دراستنا السابقة الذكر ، الفصل الثالث من الباب الرابع .

(٢٥) خصصنا لهذا الموضوع فصلا كان هو الأول من الباب الثالث الخاص بالتنظيمات المستحدثة من طرف البرتغاليين .

(٢٦) راجع ما جاء بالهامش ١٣ .

(٢٧) Vitorino M. Godinho: l'Economie de l'Empire portugais aux XV° et XVI° siecle, Paris 1969 pp 223-225.

(٢٨) V.M. Godinho; Os Descobrimentos ... op cite p 154.

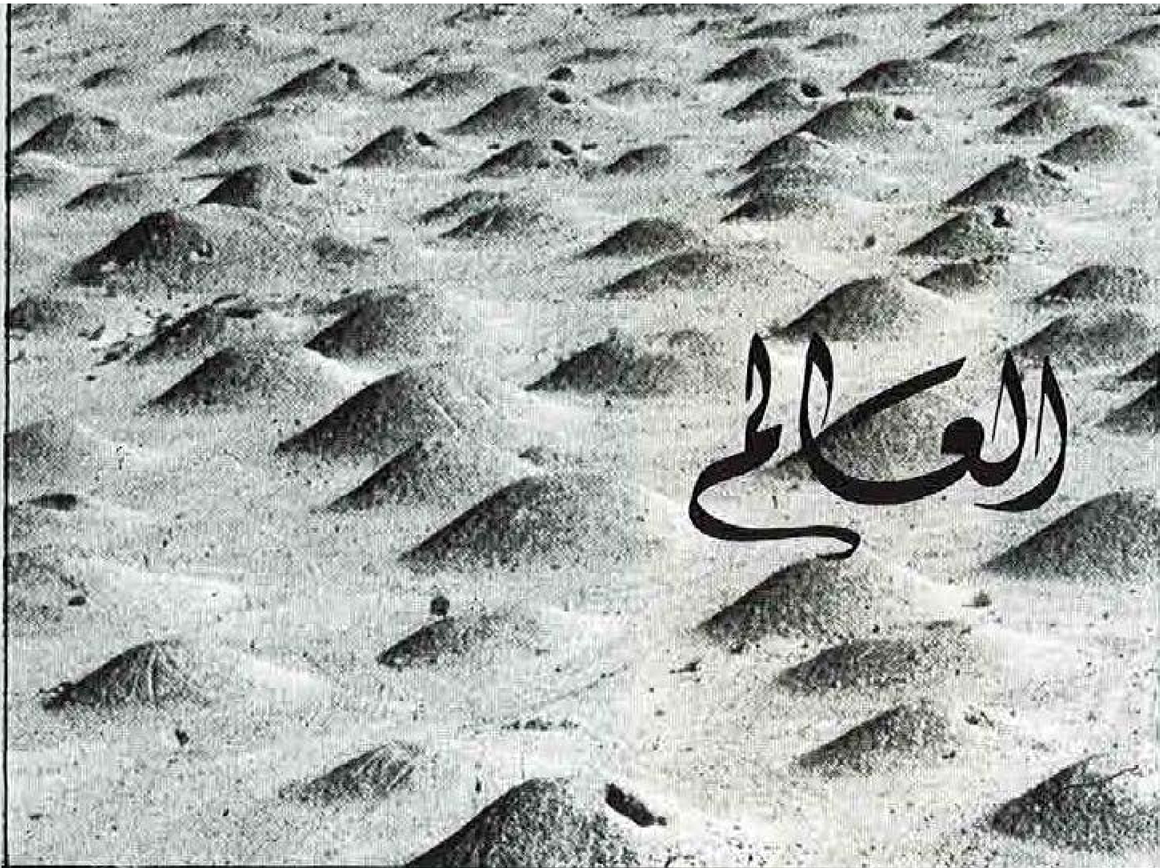




في المؤتمر الثالث للآثار الأسيوية الذي عقد بدولة البحرين عام ١٩٧٠ قدمت بحثا استعرضت فيه ما كان مألوفا في ذلك الوقت عن ارتباط سومر بمصر القديمة عبر الخليج في الزمن القديم كما عرضت ببعض الاسهاب لامثلة مثل التشابه بين الصورة الظلية لأوزيريس وايريدو وقد قوبلت ملاحظاتي بالاستحسان مما شجعني على مواصلة الرحلة في هذا الموضوع.

بقلم: مايكل رايس:

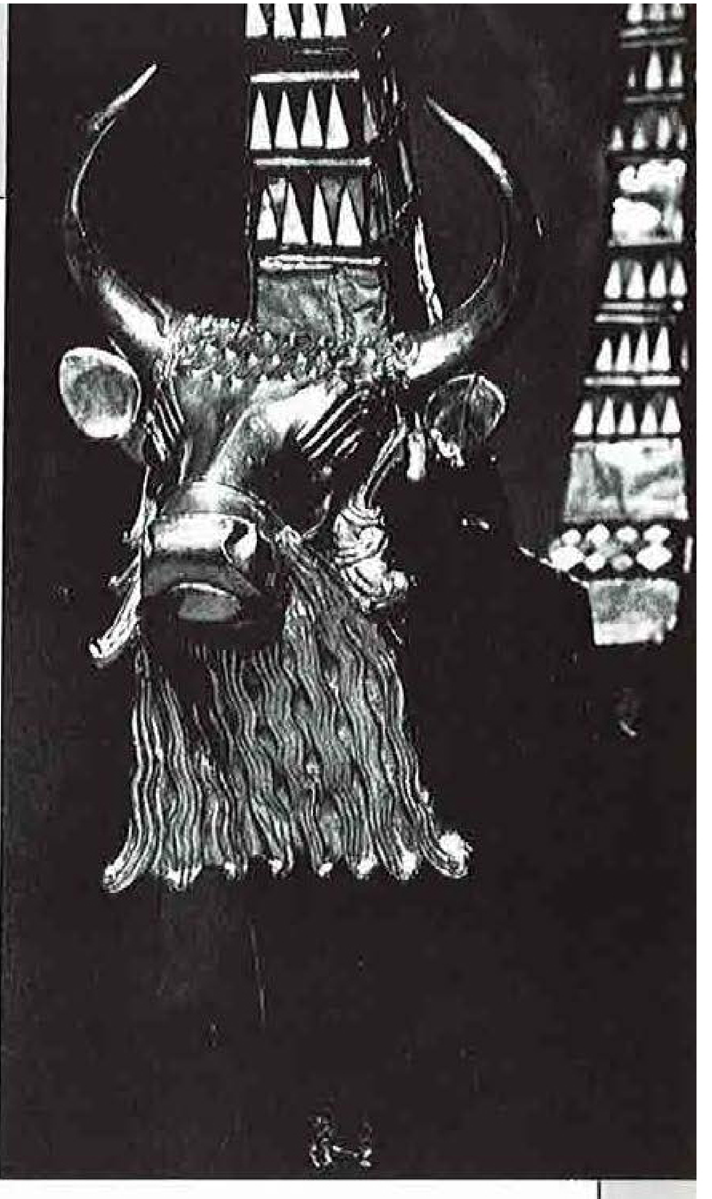
وقد اصطحبت في رحلتي هذه المرة بعض النصوص التى ارشدتني الى عدد من الاتجاهات المختلفة والشائعة لاكتشاف خلفية غامضة تقع في نقطة بين الاسطورة والحقيقة وان كان يحيط بهذا الغموض احتمال وجود اتصالات بين السومريين والمصريين في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد وكانت النصوص التى ارشدتني ثقيلة ومرهقة وتشمل نصوص الاهرامات



عند السومريين ..
أكانت دلمون هي البلاد الطاهرة وبلاد القوانين النظيفة

وكذلك نقوش معبد حورس في ادفو الذى عـلى الرغم من انـه ينتمي الى العهـد البطليمـوسى تاريخيـا الا انه يحتوى على مواد اقدم من ذلك العهد تنحدر من عصر ما قبل الأسرات كما استفـدت من مجموعـات النقوش في هرموبوليس .

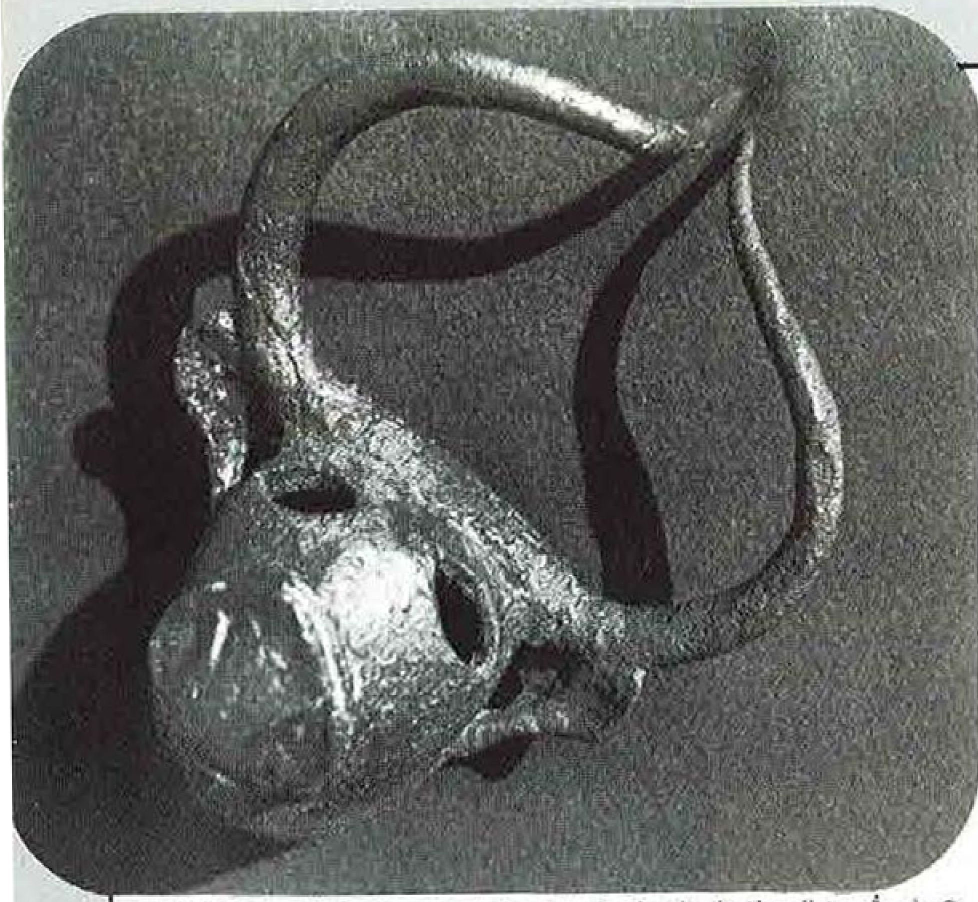
وقـد لاحظت أن هـذه النصوص ونصوص أخرى لا أعرفها بدون شك قد تحتوى على دليل يؤكد ان المصريين



○ رأس ثور من الذهب (جزء من آلة موسيقية وترية عثر عليها في أور وتعود الى فجر السلالات الثالث ٢٥٠٠ قدم.

كان لديهم ذكريات عن جزيرة تقع على مسافة بعيدة في الشرق وعلى حافة العالم وأن هذه الجزيرة حدثت فيها عملية الخلق الاولى وانها كانت مسكنا لآلهة من الجيلين الأول والثاني واعتقد المصريون بأن هذه الجزيرة لعبت دورا كبيرا في النظرية التى قامت على اساسها الدولة الفرعونية.

أما الاشارة الى الجزيرة باعتبارها موطن البدايات الاولى للانسان كما يرى المصريون فانني ارى من المناسب هنا ان نذكر وصف السومريين المعاصرين لديلمون وهو الوصف الذي دار حول محور يصف



○ راس ثورمن البرونز عثر عليه في موقع معبد باربار ويرجع تاريخه الى ٢٥٠٠ قبل الميلاد ونفس المرحلة التي يعود اليها التمثال الذى عثر عليه في اور

دلمون بالجنة الأصلية. والنصوص السومرية التى تشير الى دلمون تتضمن تعبيرات عديدة تصفها بالفردوس الذي تعيش فيه الآلهة والذي تحدث فيه عمليات الخلق وقد جاء في هذه التعبيرات كلمات مثل «بلاد العبور» و«البلاد التى تشرق فيها الشمس» و«لأنها تقع في البحار التى تشرق فيها الشمس» كما تركز هذه التعبيرات بصفة خاصة على وصف دلمون بالطهارة:

ان بلاد دلمون محل طاهر ذلك المكان نظيف وذلك المحل لامع»

دلمون إذن عند السومريين كانت من البلاد الطاهرة: بل انها قد تكون البلاد الطاهرة الوحيدة كما أنها كانت بلاد القوانين النظيفة «مسكيلاج» وكانت احدى الهاتها الحارسة هى

«ننسيكيـلا» اى سيدة القـوانـين الطاهرة»

وكدليل على ذلك فإنني انقـل هنا ثلاث مقتطفـات من رائد المصـريات (فلندرز بترى» فقد قال في مجلة «مصر القـديمـة» التى اسسهـا لتبسيـط الدراسـات الخـاصـة بـالحضـارة الفـرعـونيـة وذلك في مجـال شـرح التأثيرات الأجنبية في الثقافة المتأخرة لعهد ما قبل الأسرات قال

ان السمات الميزوبوتامية في البناء كما لاحظنا من قبل ليس لها مثيل في الشرق . ويبدو انها ترجع اصلا الى سكان «عيلام» أو الى مصدر مرتبـط



○ الاله «انكى» السـومرى اله المياه

بـدجلة أو الى الافكـار التي تـطورت بصورة مستقلة بذاتها . وان تواجد الـملاحـة كعنصر هـام يبـطل فكـرة وصـولهم الى مصر عبـر الصحـراء العـربيـة. وأنـه من المحتمـل أنهم انحدروا الى مستوطنة ما في الخليـج «كجزر البحرين» او الساحل الغربى الجنـوبي ومن هـذا الوطن الثـاني حملوا سماته وافكاره الى مصر» .

وفي مقـال آخـر له تحت عنـوان جذاب هو «جغرافية الآلهة» ناقش فيه المصـادر الجغرافيـة ومثلها بـالآلهة المصـرية الرئيسيـة قال بتـري: «إن كثرة عبادة الآلهة «حتحور» وارتباطها بآلهة كثيرة أخرى أو جنيات تشير الى انتمائها الى هذه السلالات»... ويبدو أن هجرة ابناء هذه السلالات حدثت عن طريق البحر من الخليج والبحـر الاحمر الى مصر .

وفي مـؤلفه في وقت لاحق بعنـوان «بنـاء مصر» يعـود بتـرى الى نفس الفكرة ويقول عن «قبيلة الصقر» التى فتحت مصر قبل بداية الاسرة الاولى كما يعتقد»:

«نشأت قبيلة الصقر دون شك في عيلام كما يبدو من نقش يصور أحد الابطال ومجموعـة من الاسود وجـد على مقبض احدى السكـاكين.. وقـد عبـروا الخليج واستـوطنـوا القـرن الافـريقي وسموه بـلاد «بنت» وقـد اصبحت بـلاد «بنت» مقدسـة عنـد المصريين المتأخرين باعتبارهـا أصلا عرقيا لهم. وقـد أسس شعب «بنت» جزيرة محصنة في «حافـون» وسيطر عـلى الساحـل بـأكمله.. امـا الذين ابحروا في البحر الأحمـر فقد غـزوا مصر عن طريق القصـير ـ قبـطوس وذهب الآخـرون الى سـوريـا حيث أسسوا تاير وسيدون وأرادوس وقد أخذوا هذه الاسماء من اسماء الجزر في وطنهم بالخليج» .

ان الفـقـرة الثـالثـة من هـذه المقتبسات التى كتبها بترى كتبت بعد ٢٠ عاما من كتـابة الفقـرتين الاولى والثانية. وفي هذه الفترة قام «بترى» بارسال «ارنست ماكى» الى البحرين ليرى القبور المقببة الا أن التقريـر الرزين الذي كتبـه مـاكى لا يعكس درجـة اهتمام مـدرسـه بـالمصـادر السومرية ـ المصرية .

ويلاحظ أن بتـرى يناقش تـواجد التأثيرات الخليجية والعيلامية في عهد ما قبل الاسرات في مصر بدرجة تعكس يقينه الكامل بهذه النظرية. لكن الأمر الذي يحوطه الغموض هو اعتقاده بأن الجـزر الخليجية كـانت ذات علاقـة بالأمر. ان المعلقـين في بدايـة القرن التاسع عشر كـانوا يعتقـدون بصفة

اعتقد المصريون القدماء أن دلمون حافة العالم وأنها شهدت بداية خلق

عامة أن المصريين والسومريين كانوا اما من أصل واحد واما تأثروا بطرف ثالث في الدورات التكوينية ويبدو أن «بترى» يرى أن شعب جزر الخليج هو هذا الطرف الثالث.

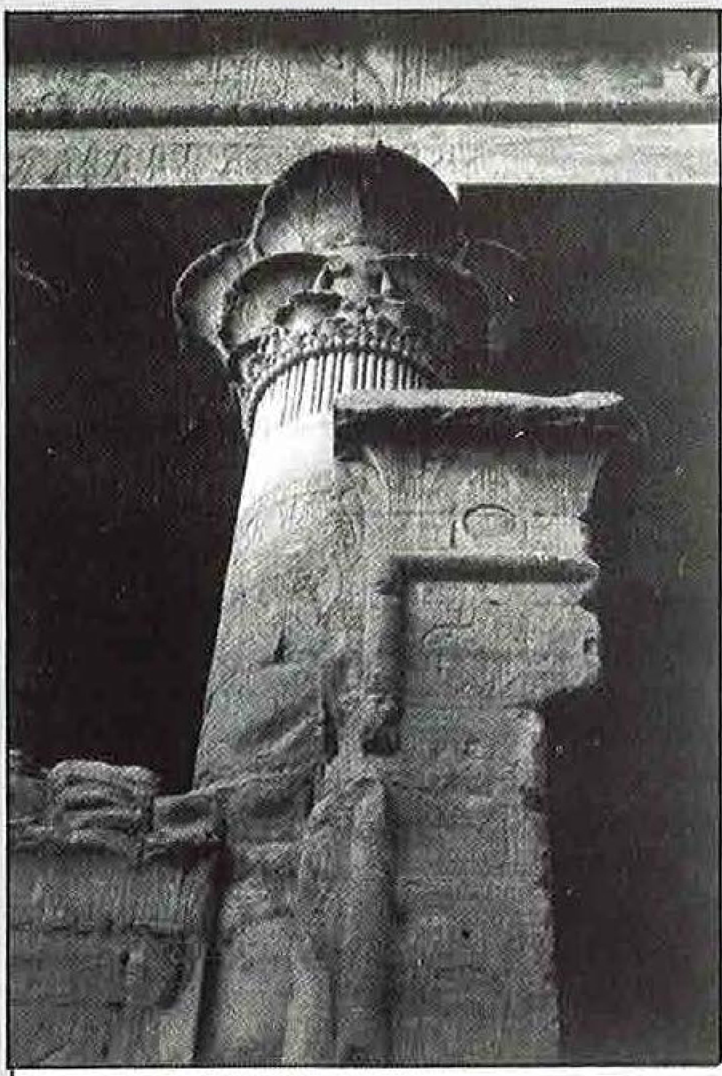
ولقد سبق بترى بقليل باحث آخر هـو «سيسيل .. سميث» من المتحف البريطاني وهو يرى أن البحـرين قد تكـون مارست تـأثيرا جـذريـا عـلى المصريين.

وخلال مناقشـة دارت حول بحث تقدم به «تيـودور بنيت» الى الجمعية الجغـرافيـة الملكيـة. عقب زيـارتـه للبحرين عام ١٨٨٩م قال «سميث» ان



○ أهرام الجيزة بنيت ما بين ٢٧٠٠ و ١٦٠٠ قبل الميلاد

علـى الإنسان



○ معبد حورس في إدفو ويعود الى البطالسة في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد

«نفر» كان اسما مصريا لبلاد «بنت» وأن موضعها كان يوصف في الازمنة المتأخرة بأنه محل الآلهة وأنه «جزيرة مقدسة» .

وقبل هذا ورد في أول تحليل علمي في العصر الحديث عن دلمون القديمة وهو التحليل الذي قدمه «رولنسون» تعليقا على تقرير «ديوراند» حول «قدم جزر البحرين» في ١٨٨٠م أن كلمة «تلمون» قد تعنى «الجزيرة

المباركة»

وتعتقد «باوم جارتل» التى قامت بتحليل دقيق لعصر ما قبل الأسرات بأن الموطن الأصلى لشعب «نقادا الثانية» لم يكن بعيدا عن موطن السومريين كما ترى بأن الملوك المتأخرين لعهد ما قبل الأسرات انحدروا من شعب «نقادة الثانية».

ويبدو أن المصريين القدماء تمسكوا منذ العصر القديم بفكرة أن معظم معتقداتهم والملامح التى تميزت بها ثقافتهم نشأت في بداياتها الأولى في جزيرة نائية. يؤكد ذلك ان الرمز الذي يستخدمونه غالبا للاشارة الى أول قطعة أرض في خلق الكون هو الجبل أو التلة وكثيرا ما يتخذ هذا الرمز شكل جزيرة وفي النص رقم ٤٨٤ من نصوص الأهرام وردت عبارة «التلة البدائية في وسط البحار» وهى تعنى هنا الجزيرة المحاطة بالماء وليس جزءا من الأرض يتبدى للعيان عندما تنحسر مياه المد ـ كما ورد في وصف علماء الآثار المصرية عن ظهور أول قطعة أرض في خلق الكون ـ وكان هذا المكان البدائى هو جزيرة الراحة أو السلام وكانت جزيرة السلام مرتبطة عندهم «بالشمس المشرقة» ومن هذا المصدر نفسه جاءت عبارة: «جزيرة اللهب» وهى جزيرة مقدسة ظهرت الى حيز الوجود من اعماق المياه البدائية متمثلة في شخصية «نون» وهو من اقدم الآلهة حسبما ورد في العلوم اللاهوتية .

وفي هذا السياق اطلق على التلة البدائية في بعض الاحيان اسم «تار ـ تانن[١٨]» وتانن كان إله التلة البدائية كما ورد في نقوش ممفيس وكان سلفا لـ «بتاح» ومن جزيرة «اللهب» أو «النار» جاء منذ البداية الأولى «هايك» الذي يمثل جوهر الخصوبة التى يعتبرها المصريون اساس الحياة. وكانت هذه الجزيرة مكانا سحريا بعيدا كل البعد في الشرق عبر حدود العالم ومكانا للنور الخالد حيث ولدت الآلهة. يقول الملك بيبى : «لقد ذهبت صاعدا الى الجانب الشرقي للسماء حيث ولد الآلهة» (ب. ت. رقم ٢٦٤) وجاء في الانشودة السامية (رقم ٤ ـ ٢٧٣) أن الملك المرفوع يقفز الى مرتبه إله السماء حيث يقضي على الآلهة الأخرى خلال طقوس سماوية وحشية ويصف النص الطبيعة السحرية لجزيرة النار:

ان الملك ثور السمار:
الذي يقهر كما يشاء
والذي يعيش على حساب حياة
كل إله آخر.
حتى أولئك الذين يأتون وقد

امتلأت اجسامهم بالسحر من جزيرة النار .

وقد قيل ان الآلهة «اعطوا جزيرة لـ «أوزيـريس» وأوردت الاساطير المـصـريـة وصـفـا لـ «جـزيـرة وسطى» كمكان بعيد مجهول لا يمكن الوصول اليه الا بواسطة سفينة «أنتى» وهو ملاح السفينة الذي ينقل الركاب الى الجزيرة مثل «سرسنابى» وهـو ملاح «زيـوسـدرا» الذى نقـل جلجامش الى دلمون ويلعب «أنتى» هذا دورا مشبوهـا في الصراع بـين «حـورس» و«ست» وذلك لأنه عندما قررت المحكمة الاستمـاع الى شهادة الالهين تقرر نقل مكان الاستماع الى جزيرة بعيدة نائية وصدرت تعليمات لـ ««أنتى» الا ينقل «ايزيس» الى هذه الجزيرة. ولكن الآلهة ايزيس «تقـدم رشوة الى «أنتى» فينقلها وخلال دفاع يـرثى له تحصـل الآلهـة عـلى حكم لصالح ابنها «حـورس» ضد «ست» ومما يجدر ذكره هنا أن «ست» كان آله لـ «آسيا» ويقصد بها وقتها البلدان الواقعة شرقي مصر . لقد كان من ألقـاب حـورس لقب «حـورس بـلاد الشمس المشـرقة» وكـان يتلقى تحيـة تقـول «حـاراختى» ومعنـاهـا «حورس الأفق» وطبقا لما يقوله «فرانك فورت» فان كلمة «الأفق» تدل على بلاد النور والجبال الواقعة شرق مصر على الحافة الشرقية للأرض .

ويـرد ذكـر مـلاحـين كثيـرين في نصوص الاهرام ومعظمهم ينتمون الى المناطق الشرقية فقد ورد في النص رقم ٣٥٩. يا «رى» امنحنى توصيـة الى ملاح الطريق المائى الملتوى كى يأتى بسفينته التى يستخدمها في نقل الآلهة الى الجهة الشرقية للسماء»

وقد أشير الى الجزيرة اكثر من مرة كمكان للقصب وبلاد المستنقعات ومن اسمـائهـا كمـا ورد في «كتـاب المـوتـى» «حقـل القصب المملوك للمباركين» الى جانب الاشارة الى انها المكان الذي يقع على الحافة الشرقية للعـالم ويبـدو أن المصـريـين والسومريين احتفظوا بذكريات عذبة عن معـابدهم القـديمة التى شيـدت بالقصب ويعلل ذلك ما نجده في معبد «ادفـو» من نمـوذج لمعبـد قصبى منقوش على الحجر في اعماق المعبـد الحجرية كما خلد السومريون في شعـرهم ما يـطلقـون عليـه الكـوخ القصبي لـ «زيـوسدرا» حيث همس بين جدرانه الآله «انكى» محذرا من الطوفان الوشيك كما يعيد أقـدم المعابد المكرسة للآلة «انكى» في منطقة «اريدو» الى اذهاننا ما يمكن أن يطابق

بتري: المصريّون القدماء

جاءوا من سومر عبر البحرين

نمـوذجـا دقيقـا لمعبـد مقـام من القصب

وحسبمـا جـاء في نقـوش معبـد «ادفـو» فإن الارواح الخـالقة خلقت عدة اماكن مقـدسة وعلى رأس هذه الامـاكن مكانـان همـا «قبـة الآله المشرق» و«جزيرة رى» وكان من بين الاماكن الأخرى «الجبل العـالي» و«شـجـرة الزيـت» و«محـل الاشباح»

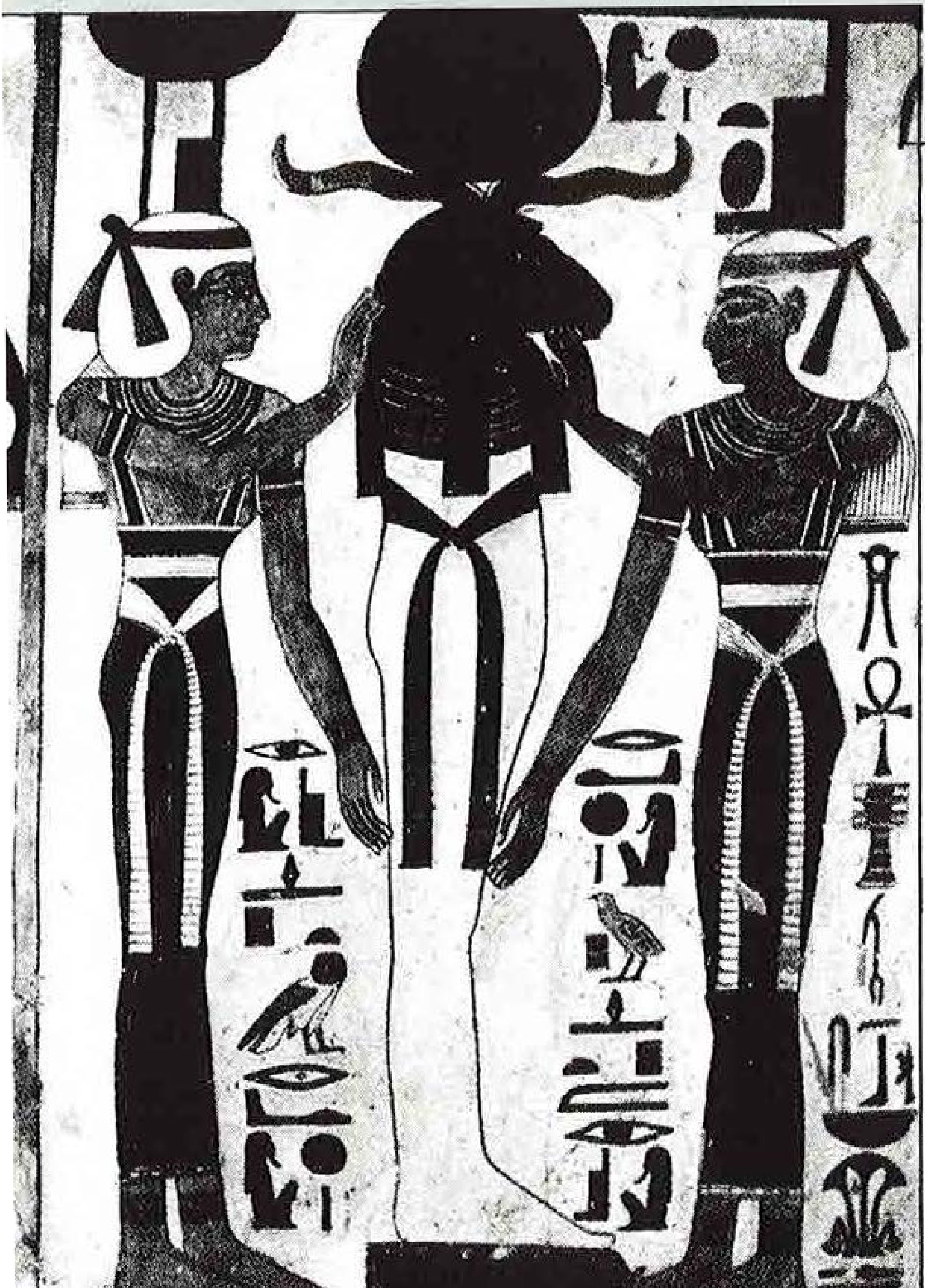
وسميت الأرض المجاورة للجزيرة الأصلية «وتجيست نيتر» وكانت الجـزيرة تسمى في الأصـل ـ وطبقا لهذه النقوش ـ جزيرة السلام كما كان يـطلق عليها الى جـانب هـذا الاسم اسماء جزيـرة ترامبلنـج» و«جزيـرة القتال» وكانت هذه الجزيرة محاطة في الاصـل بـالظلام والميـاه الاصليـة المعروفة باسم «وا ـ رت» وكان سكانها وحكامها الأصليـون هم الصقور وطبعا فإن حورس هو الصقر المصري الأسمى الذي يتلقى التحية كإله بلاد الشمس المشرقة.

وكـان الى جوار «وا ـ رت» عـدة أماكن مقدسة وهى بلاد غنية مثل جـزيـرة الغضب وكـانت هـذه الجزيرة مكـانا لمعبـد مماثـل وتعتبر موطنا للأوائل البدائيين

وطبقا لأساطير «هرموبوليس» فإن آله الشمس نفسه ولد فى بركة كانت مـوجودة فى الجـزيـرة الأصليـة

وتشير نصوص «ادفو» الى الجزيـرة نفسها بأنها «كبركة برزت الى الوجود فى البداية» وكانت الجزيرة مركز العالم كله والآلهة الذين برزوا فى هذا العهد كـانو شيـوخا معمـرين من العصور البدائية وكانت البركة على حافة الجزيرة ومحاطة بالقصب وكانت الجزيرة معروفة بـ «اقليم الصقور»

ويبدو من ذلك ان الجزيـرة كانت مرتبطة بفكرة انها المكـان الذى مات فيه جيل مبكر من الآلهة وان هـؤلاء



○ موت أوزوريس وبعثه من أشهر الأساطير المصرية القديمة وترى زوجته آيزيس الى اليمين وقد جمعت أشلاءه تساعدها اختها نفتيس الى اليسار وبينهما اوزوريس في الوسط.

الآلهة قد لقوا مصرعهم اثر معركة من نوع ما وربما أصبحت الجزيرة مقبرتهم . وقد ارتبطت الصقور التى كانت تحكم الجزيرة في الأصل بالطقوس الجنائزية التى كانت رائجة هنا والتى كانت تستعيد ذكرى الجيل المبكر من هؤلاء الآلهة الذين لقوا مصرعهم ومن هنا فان فكرة وصف الجزيرة بالمكان المقدس تبدو فكرة قديمة .

وأما البلاد المجاورة للجزيرة والتى أشرنا من قبل الى انها كانت بلادا غنية . فان الخالق خلقها بتجفيف المياه حول المكان الذى نشأ فيه وهكذا ظهرت اليابسة الى حيز الوجود ثم واصل الخالق بعد ذلك خلق العالم .

ويبدو ان الخالق الذى كشف أنه كان يطلق عليه اسم « تانن » قد قام برحلة بمصاحبة الصقر عبر « وا ـ رت » التى انضمت اليها بعض الأراضى الغنية ويبدو أنهما بدآ رحلتهما من الجزيرة الجزيرة اذن هى موطن الأسلاف وحسب تقاليد ادفو فان الأسلاف جاءوا من أماكن بعيدة عن ادفو نفسها وكانت ادفو تهتم بأن تصف نفسها بأنها موطن الشعب المصرى والافتراض بأن هؤلاء الآلهة القدماء كانوا آلهتهم أيضا انما كان جزءا من حملة قامت بها ادفو للاعتراف بها كموطن أصلى للمصريين .. ويعتقد بأن المعبد الأصلى للصقر جاء من « جزيرة الطفل المباركة » وينسب المعبد نفسه الى التلة المقدسة الأولى أى الجزيرة المقدسة الناشئة . وكما لاحظنا سابقا فان التلة الأصلية مرادفة تماما للأرض الطاهرة وهو وصف ينطبق غالبا على دلمون

وهنا لا يفوتنى ان أشد الانتباه لتشابه غريب آخر أو ربما كان مجرد صدفة ـ ان شئت ان تقول ذلك ـ وهو وجود تكرار في النقوش الأيقونية لقدم أو لأثر قدم وجد على الاختام التى عثر عليها في منطقة الخليج نفس النقش وجد في الرافدين في العصور القديمة واذا قارنا هذا النقش في الرافدين والخليج مع النقوش التى تمثل القدم في مصر نجد ان نقوش مصر تظهر بالشكل الجانبى وهى تعنى مكانا أو موقعا وكذلك تمثل حرف « باء » الساكن وكانت النقوش التى عثر عليها في نصوص الأهرام لها استعمال خاص (على الرغم من ندرته كما يرى « جاردنر » فهى تظهر القدم بشكل مركب ويتكون هذا المركب من نقش للقدم مع جرة يسقط منها الماء مما يعنى (حسب قول جاردنر) النظيف أو «الطاهر» كما جاء في نص رقم ٥١٢ :

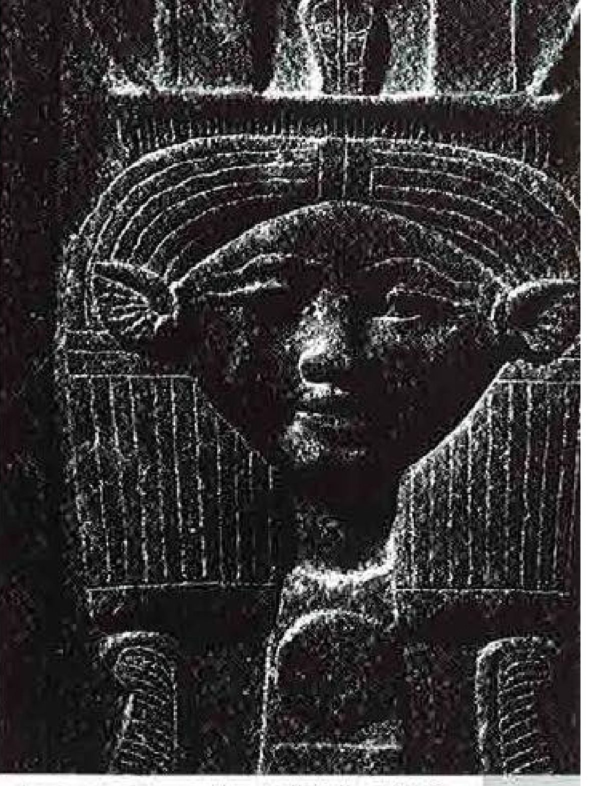
« كن طاهرا . احتل مكانك في غشاء

شجـرة رى .. وجدف عبـر السمـاء واركب الى الأماكن البعيدة . وجدف مع النجوم الخالدة . وسير السفينـة مع النجوم »

كمـا ورد وصف لأحـد معـابـد « انكى » بـأنه « محـل نظيف » ان الارتباط بين القدم والماء ومعنى المكان والنـظيف وفكرة السفـر الى الأماكن البعيدة يجبر من يعى ادراك المصريين لمعنى السفـر ارتباط هـذه المعـانى بجزيرة .

ويمكن القـول هنا ودون مجـافاة للحقيقـة أننى بالغت في صنـع جبل ضخم من تلة صغيـرة بـدائيـة وان الأدلة الاثـرية التى تـؤيد نصـوص المصادر التى نقلت عنها ضئيلة جدا ولا يسعنى اذا قيل ذلك الا ان أقبله . ولكن دراسـة الثقـافـات الخليجيـة المبكرة حيث لعبت دلمون ـ البحـرين دورا حيـويا دون شـك سوف تقـدم الدليل فى السنوات القادمة وهو الدليل الذى يلقى الضوء على هذا الموضـوع وهـو ان القـاسـم المشتـرك بـين السـومريـين والمصريـين هو الشعب الذى أصبح فيما بعد الديلمونيـين . وأظن أن اهتمام النصوص بما يطلق عليه البلاد الغنية وخطوات تجفيفها ورحلات « تانن » و « الصقر » وتكرر نقش القدم الذى يدل على الجزيرة كل هذه قد تمثل ذكرى عهد متوتر وخطير في حياة الشعوب التى عـاشت حول الربع الخالى أو فى الأنحـاء المجاورة له . خاصة ونحن نعلم بأن السكان في العصر الحجـرى الحـديث المتـأخـر عاشوا في هذه المنطقة فى رخاء ونعيم وان البحيرات وجدت واستمرت حول أطراف مـا نسميه اليـوم بـ « الربع الخالى » حتى أواخر عصور ما قبـل التاريخ واذا كان بعض الباحثين يرى بأن سـلاح العصا ذات الرأس المليئـة بالبـروزات وهـو سـلاح من الرافدين ربما يكون قد لعب دورا في فتـح الأرضـين بـواسـطة الأمـراء المصريين الصقور الا أنه لا يوجد أى دليل فى صعيد مصر يشـير الى غزوة تمت قبل توحيـد القطرين . وفى ضوء التاريخ اللاحق يبدو ان تـأثير الرافدين المتواجد فى مصر وذكريـات الجزيرة البدائية فى الوعى المصـرى ربما يرجـع ظهورهمـا الى جماعـات صغيرة نسبيا اما من التجار واما من اللاجئين واما من الاثنين . وربما كان احـدهم راويا ممتـازا بارعـا ومقنعا لقصص عن الحياة من بلاد الشمس المشرقة البعيدة أراد بها ان يؤثر فى سامعيه تأثيرا عميقا ودائما وخاصة اذا كان سامعه رئيسا بارعا لمجموعة من القبائل ومعه بعض زملائه .

وأخيـرا فان مـوهبة السـرد تثير ذكريات الجزيرة الساحرة التى حكى عنهـا الملاح الذى غـرقت سفينته فى حكاية مدهشة لقد كان يبحر الى



○ هاتور إلهة الحب والمرح.. من معبدها في دندرة بالقرب من الاقصر.

المناجم (ترى أين كانت تلك المناجم يا ترى كى يصل اليها بالسفينة) وقد غرقت سفينته اثر طوفان والقى به الماء وحده على جزيرة مهجورة بعد ان غرق رفاقه . وهناك لقى ترحيبا حارا من آله الجزيرة وهو ثعبان برأس انسان وقلب رقيق . مغطى بالذهب والأحجار الكريمة (اللازورد) وقد قدم الثعبان نفسه على انه ملك من ملوك « بنت » ـ وحسب معرفتى فهذه هى المرة الوحيدة التى أشير فيها الى بلاد « بنت » على انها جزيرة ـ ورفض الثعبان عرضا لقربان حمير من قبل الملاح ـ ومن المعقول أن يرفض الملك الثعبان هذا العرض اذا كان موقع بلاد « بنت » في الاحساء لأن هذه المنطقة توفر فيها حيوان الحمار منذ القدم ـ وعندما غادر الملاح الجزيرة في النهاية أعطى له الثعبان الملك الكريم هدية ثمينة والذين يلمون بسلع دلمون التجارية القديمة سوف يشوقهم أسماء التحف والهدايا لأنها تمثل المنتجات التى اشتهرت بها تجارة دلمون في وقت لاحق وهى العطور والعاج والأخشاب النادرة ـ وللعجب ـ القرود ومن الصعب ان نفهم أهمية القرود فى التصدير لأن مصر نفسها كانت غنية بهذا الحيوان .. كما قدمت كلاب الصيد أيضا هدية للملاح وهذا أيضا مشوق لأن « أنوبيس » وهو كلب صيد في احد مظاهره ترأس « البلاد الطاهرة » (ب. ت. يو ٤٣) هو نفسه أنوبيس اله الموت لدى المصريين مما يجعل هذه الحكاية تربط بين الاله الجنائزى والبلاد الطاهرة الاسطورية . وقد أعاد الثعبان الملك الملاح بأمان الى منزل ملك مصر التى وصل اليها بعد سفر بحرى دام شهرين . وحتى في المملكة الوسطى التى تم فيها تدوين هذه القصة لأول مرة . أحب المصريون فكرة الجزر الساحرة الواقعة في البحار البعيدة وهى الجزر الفاتنة الخلابة .

وعلى الرغم من أن هذه الصورة

لا تزال غامضة الا أنه تبرز عدة نقاط بشأن ذلك الأفق الشرقي البعيد . وان مزيدا من الدراسة سوف يخرج بنتائج طيبة . وسوف يكون من الحماقة ان يدعى الانسان بأن كل اشارة الى الجزر في النصوص الدينية أو الاسطورية المصرية القديمة تشير حتما الى دلمون ولست أدعى بوجود اشارات دقيقة اليها وكذلك لا أنكر احتمال وجود الجزر في الأفكار فقط ودون أن يكون لها وجود في الواقع وأقتصر على القول بأن ذكريات الجزيرة المقدسة ربما نسبت الى دلمون اما بصورة مباشرة واما نقلت الى المصريين عن طريق طرف ثالث ثم حدث اندماج بين الذكريات والميل الطبيعى لشعب في الاعتقاد بانسحاب كتلة كبيرة من الماء لتكشف عن جزيرة كانت بداية السلسلة المتعاقبة لخلق الكون .

ربما أكون قد أضفت بعض الأوهام لكننى وجدت صعوبة في العثور على جزيرة ما ذات سمعة خاصة في القدسية وأهمية بالغة كمقبرة وتقع بعيدا كل البعد فى الشرق بالنسبة لمصر غير البحرين .

واذا كانت البحرين هى دلمون كما يعتقد الكثيرون منا وانها كانت بلادا « مقدسة نقية » كما جاء وصفها في الاساطير السومرية المتأخرة فالبحرين بهذه الصورة تكون أكثر من مجرد تخمين اسطورى فى سياق الاساطير المصرية يؤكد ذلك طبوغرافيتها ووجود جبل في وسطها وبركها وشواطئها القصبية واقترابها الى السبخة في الجزيرة العربية .

المراجع

○ مايكل رايس - « دى وايلدر شورز أوف دلمون » ، المؤتمر الثالث حول الآثار الأسيوية ، البحرين ١٩٧٠ ، غير مطبوع .

○ فاولكنر ار - كيو ، « ذى اينشنت ايجبشيان بيراميد تكستس » اكسفورد ١٩٦٩ .

○ ريموند ، أى - إيه ، « دى ميتهيكل أوريجن أوف ذى ايجبشيان تميل » - منجستريو ننهرستى بريس ١٩٦٩ .

○ ريموند ، المصدر السابق .

○ بريتشارد جيه - بى « اينشنت نير ايسترن بيراميد تكستس » برنستون ، ١٩٥٥ .